



رسائل حبّ مفترضة

بين هنري ميللر وأناييس نن

مؤسسة الانتشار العربي

ليلى البلوشي

رسائل حبّ مفترضة

بين هنري ميللر وأنابيس نن







رسائل حبّ مفترضة

بين هنري ميللر وأناييس نن

رسائل حبّ مفترضة

بين هنري ميللر وأنابيس نن

ليلى البلوشي





ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-554-1
الطبعة الأولى 2014

المحتويات

حُبّ مُعافى أبداً هو حُبّ الأب..

/

/

إلى "أبي" وحده...




تليجرام
هنا
سور الأزبكية

هذه الرسائل من "قلب" و"فكر".. "ليلى"؛ أما الكاتبان الشهيران "هنري ميللر" و"أناييس نن" فهما مجرد افتراض ..




تليجرام أكبر مكتبة هنا سور الازبكية
كـ600000تاب

بعض أسماء الشخصيات الواردة في الرسائل

1- أوتو رانك : محلل نفسي نمساوي، تلميذ سيغموند فرويد وابنه بالتبني، عملت معه الكاتبة أناييس نن.

2 - جُن : هي زوجة هنري ميللر.

3 - ريتشارد : صديق أناييس نن وهنري ميللر.

4 - سلفادور دالي : رسام سوريالي.


تليجرام أكبر مكتبة هنا سور الازبكية
600000كتاب

ملحوظة مهمة:

العبارات التي وضعت بين قوسين دون ذكر قائلها هي بلسان «هنري ميللر» و«أناييس نن»، ويمكن التميز بينهما من خلال الرسائل الخاصة باسم كل منهما..


تليجرام مكتبة غواص في بحر الكتب

الافتراضات الأولى:

«هنري» : إلى الآخرين . .

/

«أنابيس» : وليس لك . .

قلتَ لي مرة : «صوتك يمنحني التقوى» . .

قلتُ لك مرة : «اشتهي قلبك الحار ولا شيء آخر» . .


تليجرام مكتبة غواص في بحر الكتب

1

أنابيسي ..

إنني الآن وأنا أكاتبك في لحظتي هذه لا أجد في صوتي البائس سوى صوتٍ مماثلٍ لحشرجة الشاعر «لير منتوف» وهو يعلن بأسى: «**في قلبي كما في المحيط، يوجد ثقل الآمال المحطمة**»..!

أحتاج إليك أنتِ.. تعالي إلي.. تعالي واكشطي هذا العالم عن ظهري أو ساندي الأثقال التي عليه..! تعالي وخذيني.. خبئيني في دهليزك.. في أعمق بقعة في ضياعك اللامحدود.. كي ألهث وراء غوامضك.. أتيه في ممراتك.. في أرواحك المتعددة وهي تطبخني وجبة من التوق والحنين والشهوة.. فاستذوقك.. التهمك ولا أشبع..!

هذا هنري..

روحك.. قلبك.. عقلك.. أنا هنري.. حبيبك.. طفلك الشقي.. خذيني يا هوائي.. هاك بالونك المترهل.. ضخي روحي بأكسجين رئتيك.. وحين ينتفخ ولعك اغرسي جنون أظفارك حيثما تشائين واثقبيني.. كي تسيح روحك في روحي وحيث هناك هدهدي لي أغنية حبنا الأبدي.. إن هذا العالم ألحق بي العار من بعدك يا عالمي الذي أفتقد..!

أصابعي التي كنت تتمرسين في تقبيلها إصبعا.. إصبعاً.. الخنصر. البنصر. الوسطى. السبابة. الإبهام.. إن خنصري الذي كنت تفرطين في تدليله وتتغزلين به: إنه أشبه ببرج صغير تمرح عليه الفئران..!

إن الفئران عينها حامت فوقه وأكلت قطعة منه.. لكن بقي منه جزؤك المفضل ذاك الذي كنتِ تغمسينه في لسانك وتضغطين عليه بأسنانك.. تنبهرين بينما حنينك يهمس: إن لدمك مذاق حب أبدي لا ينضب أبداً..!

الموهبة قتلتني مرة وحبك العنيف قتلني ألف مرة.. صلّبني في آماديه طفلاً هزيلاً تمرست الريح الهائجة بشيطان مكرها كيف تقتلع الحنان من قلب العالم منه.. تردمه دودة حين غلبها الفحيح ولم تجد ما تبلعه التهمت نفسها..!

يا حبي الأوحد..

ذاك الكسر الذي حطمني لم يبرأ.. كبر.. تفجّر.. تقيّح مرارة بعد مرارة.. لكنه لم يبرأ.. وأنا الجرح.. أنا العطب..!

أعطني يدك أشمّها.. إن هذا العالم قابع بقذارته في أنفي وأنت النقاء اليتيم الذي أتوق إليه..!

لماذا بريدي مكبّل على حدودك الافتراضية..؟!

تلك الكلمات التي رصفتها كنمال مجندة في ورقتك الالكترونية المبعوثة إليّ عبر افتراضية هذا العالم التعس لم تشبع نهمي إليك.. قلقي الكامن فيك.. إنه الخوف الذي أدركت بسذاجة في لحظة غباوة أنني خلفته ورائي إلى الأبد.. ها هوذا قفز من العالم إلى قلبي.. من قلوب البشرية إلى شرياني.. دمي سابح في خوفي من فقدانك والحنين فقيد..!

مكثّف غريزة أخبارك فيّ..!

لن يشبع «Google» فضولي الشرّه..!

فهو لا يعرفك كما أعرفك أنا بإتقان.. فهناك أنت افتراض محض.. مرتبة تفاصيلك.. ملمّعة سيرتك وكتاباتك معروضة كتحف نفيسة في واجهات الصحف الورقية والمواقع الإلكترونية.. لكن لا أحد سواي يقدّر مقاييس

حزنك وحمولة أحلامك والكتب التي تحتضن الفراش معك وقصاصات أوراق تحتفظين بها ككنز ثمين وكيف تأكلين وتتنفسين وتمارسين النوم مع كسلك.. بل كيف تضحكين كمهرجة أمام المرآة؛ لتؤدي طقساً اجتماعياً خاضعة أنت له في ترف الأقنعة.. وكيف تغويك مواءات القطط في آخر الليل.. تلك القطط التي وقعت في غرامها مذ اعتراف ملهمك المفضل الياباني «هاروكي موراكامي» بأنها تغويه بدورها كحكاية... كل هذا وأكثر... هل يتقن «Google» إماطة هذه الأسرار إلى مجموع أعدائك..؟!

أنـاييسي..

لا أدري أي سموم تم حشوها في رأسك عن حبيبك..؟!

ثمة مهرج أخرق فبرك اللعبة من أجل مصلحته من أجل عينيـك الغارقتين في بحر دفئهما ربما.. هذا ما أجزم به الآن.. فعينـاك غيمتان مطيرتان.. ماستان.. قطعتا جليد في فرن العالم..!

أجل اللغز في عينيك الماستين النادرتين؛ حتى «موديلياني» المجنون والبوهيمي وزير نساء وجد وطنه في عيني حبيبته «جان» التي كانت تسترخي بهدوء في لوحاته بلا عينين وهو يقول في ملء سمعها: **عندما أعرفك تماماً**

ستكونين حبيبتي وسأستطيع رسم عينيك..! واقترف حبها وعانق روحها كأيقونة وحينئذ أدركت «جان» أن عينيها مسكونتين بوجه «موديلياني» وقلبه وعقله وجلّ انفعالاته النابضة بحس الغرام وعبقرية الفن..!

يا ربّة الغرام.. إنني غارق في شهد عينيك.. كم أحبهما.. كم يرهبني الإبحار في بؤبؤهما..!

فإذا ما كان «جنكيز خان» المغولي الشرس حين دأب وهو طفل العاشرة في خطبة صبيّة فاتنة من نسوة المغول المصفوفات أمامه بكامل طفولتهن حسبما التقاليد نصحه والده الزعيم حينئذ أن ينتقي صبية ذات عينين لوزيتين صغيرتين.. فالأحداق الواسعة طبقاً لفلسفة المغول تقدح سحراً يجلب الجنون والشقاء الأبدي... وأنا ترهبني بشدة فكرة التهام عينيك في لحظة تيه مسكرة من خبل حبي المجنون.. تلك العيون بعثرتهم وبعثرتك وبعثرت عالمي يا طفلتي..!

آااااااه... من سوط انتظارك..!

ذاك القطار الطويل كرقبة زرافة.. تلك المسافة الخائنة كانت تمشي عليّ وأمشي أنا في حقلها الهش نملاً ضالاً وسط جبل من السُكر.. عالمك وحدك.. كان الرصيف حاضناً قدميك الناعمتين.. وأنتِ مديرة ظهرك للعالم..

للماضي.. للحاضر.. شمّعتِ أزمنتك من أجلي وخذلتك.. أنا هنري المجنون بك خذل انتظارك وهذا ما يثقل ظهري ويكسره.. أحدب حزنك أنا يا حبيبتي لا أحدب نوتردام..!

اشتهي قلبك الحار ولا شيء آخر . . . اسعفني يا «لوركا» . . اسعفني . . فقلب حبيبتي احترق من الانتظار وتعفّن . . !

2

"يوميّة نن"

أدير وجهي إلى الأمام كرمح.. لكن ثمة ريح عازمة على كسر رقبتي..!

الأب كالريش على القلب. . !

حينما أنجبني أبي مع أمي.. شاطرت كشقية حبهما السري.. تلصصت عليهما.. كانا راضيين بمعنى ما.. أمي وأبي كانا مبهورين بمعجزة قذفي على وجهة هذا العالم ولكن لمّا تبين لهما خستّه بصقا على قفا المعجزة وكنت أنا طفلة لم تحبُ بعد..!

حين نكون مركبين كيميائياً من أب رائع تبهجنا معادلة أبوّته يصطف كل رجل حينئذ في المرتبة الثانية أبداً.. فذاك العجين الكيميائي البيولوجي وحده الجدير بالمرتبة الأولى في أولويات القلب..

يردد لي دائماً: يا أناييسي.. إن أمك تشبهك..!

وحين ترجوه الطفلة بالتفسير.. يرد عليها بحشرجة لا تفارقها ابتسامة تعرفها: تشبهك امرأة تهدم طوب حيطانها الداخلية من أجل سكن الآخرين..!

إذن أمي لا تشبهني.. أرّد على بابا دون أن اسمعه صوتي الذي يخون ظنه وربما لا يخونه..!

حب معافى أبداً هو حب الأب. . !

كل أنثى تضع يقينها في هذا الحب الأبوي كامل الدسم.. يُغني.. يُشبع حتى الإفراط.. صحيّ ولا يسمن.. خال من مغبة التملك ولهاث الهجران والآه والتيه.. فيااااالها من خلاصة عاطفية ساحرة مشحونة بجلّ الانفعالات سوى عاهة «الخسارة»..!

حب الأب هو الحب الوحيد الآمن. . !

فالأب يحب دون غاية.. حبه مطلق لا يبرره سبب سوى عاطفة أبوة شاسعة.. غريزة أبوية لا تنطفئ.. بينما الرجل، أي رجل في حياة أنثى.. فإن حبه لها يكاد لا يخلو من غايات متضافرة.. كيفما كانت نياتها: صالحة، سافلة، حقيرة، محبة، دنيئة...!

فحسبما احترام الرجل لنفسه تعجنه غاياته: يحبها؛ لأنه يخشى أن تخنقه عقارب الزمن وحيداً دونها.. يحبها؛ لأن لها عينين جميلتين كأيقونتين تلهمانه.. يحبها؛ لأنها مادة إغراء ملفوفة كسيجارة يمجّها بلذة.. يحبها؛ كي تكون عكازته التي يتوكّأ عليها في دروب الأرض الشّاقة.. يحبها؛ كي يعتشي على جيبها كأي وضيع اعتاد التسول من جيوب النساء.. يحبها؛ لأن لا فحولة دون أنثى.. أما الذي يحبها لأجل غاية الحب هذه الغاية وحدها - بشحمها أو عظمها - دون غيرها.. فما أندره..!

لكن الأب وحده.. هو الرجل الوحيد في أعطاف هذا الكون يحب أنثاه بلا مقابل.. بلا غاية.. يحبها في مجموع انفعالاتها: طيبة، شريرة، مجنونة، حزينة، مرحة.. وفي جُلّ أوقاتها يحبها: حاضرة، غائبة، حية، ميتة... وهذا هو صمام الأمان الذي يطوقها إلى أبدية الموت..

كثيراً ما تخضّني حيرة بأبعاد شاسعة من الرجل الآخر: ألا يغدو الرجل دون غريزة أبوة في مرتبة التمساح..؟!

ففي حياة التماسيح تسعى الأم دائماً لحماية أبنائها من الأب الذي يستسيغهم وليمة شهية.. فالأب ليست لديه غريزة الأبوة والأم التي تتمتع بفم كبير تحمي صغارها داخل فمها

خوفاً من الأب الذي يلتهمهم، لكن الأطفال الأبرياء لا يميزون بين الأب والأم وأحياناً يتسلل الصغار إلى فم الأب.. فيقضي عليهم.. وهذا يقارب جداً ما يحدث في الواقع..!

ألم يصدق «مورافيا» حين قال: **«تستطيع المرأة أن تعرف في حياتها رجالاً كثيرين، لكنها لن تعرف إلا أباً واحداً»..!**

* * *

هنري بعث لي حزمة من أنفاسه..!

هنري.. آآآآآه يا هنري.. أيٌّ من الرجال أنت...؟!

أنا على يقين بأن نومه الآن يعصر جسده الهزيل في أحد مراحيض باريس النتنة.. حيث لا شيء سوى هجمة صقيع قاس رديء الوحشة ودموع كقطرات مطر وحيد في سماء مرتدية حدادها..!

كم أتوق إلى ضمّ توقه المرتعش في رسالته لعلي أغمس حرارة تلهفي في أوصاله القلقة..!

آآآآه.. كم أخشى عليه مني.. من امرأة مضطربة الحنين والغياب وكل شيء..!

إنني راهبة في معبد هذا المجنون..!

يلهم روحي كمجموعة رجال في قامة إنسانية واحدة: أب. عاشق. شريك. صديق.. يالـ مسارب العشق بين سهم وقوس..!

«أعشقك» أسمعها لقلبك في ارتجافة الروح واضعة روحي قبالة سرير روحك.. وثمة خشية مريرة تستند ما بيننا كضوء شاحب.. فالحب.. هذه التفعيلة النبيلة.. هذا الصلصال الذي أعجز الكون عن ملامحه.. مرعب يا حبيبي هنري.. كم مرعب الحب في موضع هش كالعالم..!

هل تذكر..؟

ذاكرة حب كلينا مشتعلة على صوت الشاعرة «صوفيا دي ميللو» صوتها وهي تسرّبه إلى رأسينا.. فبحّة حزنها تشملنا.. تشبهنا.. حزن لن يطيقه سوانا ككائنين مخلوقين من مادة دكناء.. صوتها الذي تأبّط الحزن في بزّته السوداء حين كان مقت العالم يخنق كلانا وكلماتها وحدها مررت الستر على عري فجيعتنا:

«رعب أن أحبك

مرعب أن أحبك في موضع هش كالعالم

مؤلم أن أحبك في مكان الشبهة هذا

حيث كل شيء يهشمنا ويحرسنا

حيث يفترى علينا الجميع ويفصل ما بيننا». .

أغرز دبابيس حزني في مخطوطتي.. أهرب من هنري إلى سيرتي الموجعة.. أعيد ترميم بعض الصفحات.. أمسح كسرة هنا وأعوّضها بضمّة وسُكون هناك لعلها تنفث ضيقها في فتحة أبدية حين تنفقئ من هول مصابها..!

أن ترخي الستار على يومياتك يعني أن تنشر على حبل الآخرين أكاذيبك. صدقك. وحقدك المبطن والظاهر. حبك. فضائحك.. عليك أن تعرض كل غسيلك؛ كي تغدو نفسك غسالة وهي تدلق في وجه العالم خسته ودناءته.. طهره ونقاءه المخيفين.. كي يعترف حزنك الخنوع لأي طفل بالقرب منك ببراءة مماثلة: انّج بكلّك.. إن قابلت موتاً يضاهي براءتك فلا تتردد..!

3

أنا اليوم مهزوم..!

وسأبقى في سجن انهزامي ما لم تصلني أنفاس أنايسي..!

أخشى أن يطول انحباسي في هذه الهزيمة.. إن كان «همنغواي» تخلص منها بطلقة.. فأي خيار هو أمامي؛ كي أستأصلها من أعماقي..!

إنني كائن يرى وجوده في الحياة.. أجل.. فمذ إطلالتي من ذاك الشق البتولي كان قلمي وروحي وكل جزء من أوصالي يحفل بالحياة في حيوات كثيرة.. يرغب فيها كلها دفعة واحدة.. والموت هو خصمي اللدود.. هي الدودة التي تتسلل تحت جلدي.. تقتاتني وأنا ما أزال راغب في الحياة كنطفة لم تقذف بعد..

وحين يفترسني خطر حقود أبكي بل أصرخ بشدة: «افتحوا بوابات العالم كلها»..!

وأنتِ يا حبي..

لقد سبرت غورك منذ قرن وحفرت أعماقه بمعول قلبي.. هناك أنت في قبوك حيث لا مهرب سوى بالكتابة.. الكتابة منها وإليها.. إنها غدت ملاذك. طعامك وفراشك وموتك اللذيذ..!

كان «بورخيس» يفرغ عتمته في الكتابة؛ كي يخترع ضوءه الخاص ويهزم وحش رتابته القاتلة التي نغصت حياته في ظلمة كابية..!

و«هيرتا موللر» تلك المرأة كم عانت.. كانت مرغمة على الكتابة.. عن تلك الأشياء التي لن تتركها بسلام أبداً.. فخدّرت أشباحها بلعنة البوح..!

وأنا كلما كتبتني سحقني جوع أكبر.. جوع بحجم حوت.. بحجم جهنم لا شبع من مريديه.. حقاً إن الكتابة هي موتنا المتوحد في فراغ هذه الحياة. في عبثيتها. في جنونها..!

لهذا دأبت في دعك روحك في كتابات تستغرق أشواطاً طويلة؛ لأن الحياة العادية لا تثير انتباهك مثل الأشخاص البليدين.. تلك الحياة المفخّخة بالسهولة تستفزك.. تنظيف الأثاث.. ترقيع الجوارب لشتاء باريسي

حقود.. ثرثـــرة علـــى شرفات النميمة كجارات بليدات.. فأنت حين تخوضين كأي امرأة في مثل هذه الأمور لا تتنفسين حياتك بالمعنـى المكثّف الذي تهفين إليه بكل كيانك الجهنّمي..!

وتلهث روحي في الكتابة بهمّة كلب بوليسي لأن مطاردي هو الموت... أليس هو الفناء الوحيد.. الفناء الأعظم الذي يسلبني منك.. من عينيـك الفسيحتين كغابة نذرت نفسها لطبول الإثارة والوله وحـــب أبـــدي لا ينضب ماؤه في قاعي..؟!

حبيبتي أنابيس..

أقولها بملء ما أملك من روح: إن خيّرت ما بين الحياة وطلقة حبك المميتة فإنني سوف أضع قلبي أمام طلقتك وأموت شهيداً في حبك الأبدي بلا توجس سوى من مغبّة فقدانك..!

أحبك..

أحبك كنهر لا مصبّ له..!

4

"يومية نن"

حواري مع الدكتور «رانك» غدا اعترافياً على نحو عميق بل أضفت إليه متبلات جنونية غمست كل ولهي فيه:

إحساس 1 : هل تخللت طبلة أذنيك همسة «أحبك» فاختل عمرك كله على هامشه..؟!

تجربة الإحساس 1:

أجل.. لا.. بتناقضهما الحامي بالرغبة..!

أجل.. كانت تتوامض على ألسنة معشبة حباً لأنثى نقشت قوائمها على تفاصيل مغرية لا سبيل للرجل حيالها سوى الذوبان كقطعة آيس كريم بينما ربة الشمس تدغدغ خيالاتهم بحلم مغليّ..!

تناهت إلي من أفئدة لم يكن الحب منهم مترقباً عبروني

كأصدقاء تزاحمت أقدامنا معاً على رصيف الصدفة كتحية أخوية مستعجلة..!

وكم حلمت بإفراط معيشة هذه اللفظة في داخلي رعشة لذيذة تدهشني على حين اقتحام من قلب كل رجل أحببته سراً دون أن يعلم..!

إحساس 2: هل علّقت «أحبك» على مشجب أمنية مذلة وقلبك منه شحاذ رغبة..؟!

تجربة إحساس 2:

لم أتمنّ بالمعنى «الواقعي» أنا اشتهيت بالمعنى «العاطفي» والشهوة مطيّة المحرومين في الليالي المضببة بخذلان لقاء روحين على شرشف مصنوع من الغيوم..!

الحياة.. الأم التي لم تقذفني من رحمها غير أنها وضعت في أذني حلقتين كبريق ماس على عنق زنجية حين شاغبتها كمراهقة: أن ليس كل الذين نحبهم يملكون قلوبنا كما نحب نحن وليس كل الذين نحبهم جديرين بقلوبنا كما ندّعي نحن..!

حذرتني: أن الحب لا بد له من كفتين متعانقتين وإلا سقط من مفهوم الحب الحقيقي وصار بمنزلة الوهم المعذب لا أكثر..!

علمتني: لا ينبغي للإنسان أن يترقب الحب من الذين ينبهر بهم بل عليه أن يترقبّه من الذين لا يتوقعهم كبوح فيل عاشق لمعشوقته الباندا..!

كلما احتواني القدر مع رجل ما تلاهثت أنوثتي إليه بحماسة أنه الزائر الذي بعثر انبهاره أخيراً في حضوري.. متسللاً كلصّ في تشعبات قلبي المظلمة كمحاق قمر.. هذا اللّص المرغوب فيه في كل مدن الحب.. اللّص الذي بغتنا على حين لهفة ليسرق أثمن شيء نملكه «القلب» فيستولي عليه.. يسترخي فيه مطمئن الحواس بعد أن مهر وجوده بثقة كزئير أسد: عاشق استولى على نبضك.. فيغدو سكنه بكامل حواسنا ومفتاحه بيده..!

هو المرور الذي لا يعرف أمداً كبحر.. لا يوقّت على زمن محدد كساعة بيغ بن.. ولا تحدّه خطوط الاستواء وجغرافية غرينتش.. مرور لا منطق له ولا لغة ولا دين يمرّ عبره كل إنسي كمهبط إلهي واحد طائعين له: لبيك لمن مررت من هنا.. لبيك..!

أما ما استولى عليه بملء غرامنا.. فتبريره يتفاعل كفرحة ولادة طفل من رحم العقر.. كالتقاء محرمين النار والجليد.. كعطسة..!

ولكن المرور يبتذل حين تطبق حدوده على حدودي كالتحام حب.. حين خضوعه لي يقطع أعناق كل مساحات الدهشة والترقب المفاجئ الذي كنت أرنو إليهما بلذة..!

عندئــذ تتهــاوى كــل مدن اللهفة.. تذوي أمام قلبي.. ويبهت حضوره الجانـي كسارق ليأخذ شرعية أي رجل عادي..!

أعشق رجلاً يبهرني.. يناقضني.. يرقص على مزاجي بحبّ حين أبغضه ويرشقني ببغضه حين أحبه بجنون..!

رجل خارج قواعد مزاجي.. مطلق الشخصية.. يمشي على طريق ملغّم كبهلوان.. يرتشف الشاي مع الملح.. يعبر ذاكرتي ككرة مطاطية.. يحتويني كقنبلة تنفقئ في لحظة جنون.. أهدد كينونته كمرض مستعص على العلاج..!

إحساس 3 : هل وصفات عقلك السوريالي وجدت نفسها في قلب هنري ميللر . . ؟

تجربة إحساس 3:

هنري ليس عشيقي هو أعمق من العشق عينه..!

هو جنون الجنون.. جنون المرء حين ينتصب بكل ثقته أمام المرآة في صبيحة ما فتخذل انعكاسه وتطعن معرفتها

بملامح كائن كان يفرطها تدليلاً كعاشقة استثنائية يرائي في قلبها كونه المديد.. لكنها عوضاً عن ذلك استنكرته كأي غريب تقابله لأول وهلة رغم ألفة العاشق..!

هنري.. هو لحظة خَبل..!

إحساس 4 : بماذا تهمسين لكل إنسان على وشك الحب. .؟

تجربة إحساس 4 :

سأهمس له بنبرة جدة حريصة: إذا أردت أن تحب يوماً فلا تعطِ هذا الحب كلك.. امنحه جزءاً منك واحتفظ بالباقي في حب أشياء أخرى.. لئلا يشمل شلل الانهيار البقية الباقية من وجودك فيعطل سير النبض في حياتك المتبقية.. إن ثمة حياة أخرى تترقبك بعين فضول.. بعين شفقة.. بعين خيبة جديدة أو ربما بعين عاشق قادم مبهور بأنفاس الحب..!

ملخّص دكتور «رانك» في آخر جلسة تجربة إحساس :

أنابيسي..

كان ثمة طبيب حكيم يدعى «داود الأنطاكي» هذا الرجل رأى أن العشق تابع للأمزجة وعلى هذا العشاق في رأيه أربعة أنواع: نوع سريع التعلق سريع السلو وهو النوع (الصفراوي) وعكسه (السوداوي) لا يعرف الحب من أول

نظرة ويتروى ويطيل التفكير ولكنه حين يحب لا يتخلى عن محبوبه ما بقيت له الحياة.. وهناك النوع (الدموي) وهو سريع الوقوع في شرك الحب لكنه ليس سريع التخلي عن حبه بل يجد مشقّة في السلو وعكسه (البلغمي) الذي لا يعرف الحب من أول نظره لكنه يعرف حب غيرها (أو تعرف هي حب غيره) حين يواجه الهجر مرة.

5

سأقابلها غداً على نهر السين وحينئذ سأضع رأسي الثقيل أمامها.. سأقدمه لها وأرجوها أن تقطعه كما قطعت السيدة «دي باري» رأس حبيبها بالمقصلة أثناء الثورة..!

سأقول لها مذعناً بحنان: حبي.. أريحيني منه.. إن رأسي مستعار إليك.. إنه - ملكك وحدك - فكل أفكاره وفوضاه.. كل تكتلاته الساخرة والمؤلمة والمبهجة حد الألم كلها تعنيك وحدك.. خذي رأسي.. فلتكوني أنت مليكته..!

إنني أفقد توازني أمام هذه المرأة كما فقد البدائي توازنه أمام ديناصور ضخم التبس عليه كمعجزة..!

حين شممتها في الصدفة الأولى تفرّعت فيّ بهجة كبيرة.. شجرة ميلاد مزركشة في أعماقي نبتت.. فرح أكبر من أن يستوعبه قلبي الطفل.. طوقني خبل ما لا بل خفة غامضة وكأنني ابتلعت برميلاً من النبيذ..!

وصرت أتخبطني ساخراً منتفخاً بالثرثرة قاذفاً فضائحي بغباوة عن «جُن» وعن أكاذيبها التي غدوت أعلق آمالي عليها.. وكيف أنني مع تراكم تلك الكذبات صرت أصدقها وكأنها حقائق شاملة كنت بمعنى ما جزءاً منها..!

كما أقر حدس نن في يومياتها: «**هكذا إذن.. فالرقة والعنف على وشك أن يلتقيا ويتحدى أحدهما الآخر**» يا لحدسك الصاخب يا حبي..!

سأقابلها اليوم بشرارة الرعد وسوف أستغيث رقتها اللامتناهية: هاك قسوتي.. ثمّة وحش قابع هنا في سابر روحي إن لم تروّضيه فسوف يقتل نفسه ويقتلك.. امنحيه دواء رقتك امنحي هذا المسكين قبل أن يتعفّن من بكتيريا عشقك..!

وإن لم تفلح لغة رجائي فإنني لن أتوانى عن الصراخ في وجهها كطفل عنيد مصرّ على امتلاك كل اللعب الموجودة في الكون: «**اطعنيني في القلب، في الدماغ، في الرئتين، في الكلى، في الأحشاء، في العينين.. إذا بقي عضو واحد حي فأنت مقضي عليك، قدرك أن تكوني لي، في هذا العالم وفي العالم القادم وفي كل العوالم المقبلة، إنني مستميت في الحب، قاتل، عيار، نهمّ**» سأُحمّل صراخي كل هذا وأكثر..!

6

"يـومـيـة نــنّ"

أبلغني «ريتشارد» بأن هنري سيرافقه على العشاء.. فطفق قلبي يهتز كبندول معدني لا يكف عن الهزّ..!

يستفزني خوف ما حين يتعامد موعد غريب بيني ورجل تواصلت معي خصاله عبر الآخرين..!

لست معنيّـة بتفاصيله الخارجية ولا تستوقفني هزائمه وانتصاراته الداخلية ولا علـــي أي امتداد جغرافي هي حدوده أو أيّ تأريخ أثث زمنه كل هذه التفاصيل لا تمت إلى خوفي بصلة...!

إن خوفي هو أشبه بخوف امرأة تسقط في غرام رجل يخذلها ويخذل حلمها في النهاية.. يتركها على حافة السفح وحيدة بينما الرائحون والغادون يكتمون شماتتهم..!

إن الخذلان في موضع كهذا ليس فقط خذلان فقدان

رجل.. فالمعنى في قلب المرأة أعنف مرارة مما يمكن لأي رجل أن يقيسه..!

فالمرأة إن خذلها رجلها تاركاً خلفه خذلان حب؛ فإنها وحدها تحبل بكمد تبعات ذاك الحب.. خذلانه وخيانته وذاكرته..!

النسيان هو أمنية مستحيلة..!

والمرأة لا تنسى طعم الخذلان.. يظل ملتصقاً بلسان ذاكرتها.. يظل جزءاً من جلدها.. مادة لزجة يحتك بها على الدوام والرجل منها لغم خذلان..!

قد يغادرها الرجل ويحل محله رجل آخر.. آلاف الرجال.. لكن رجل خذلانها سيظل أبداً ذاكرة ملغمة فجّرت في وقت ما نيراناً أكلت نفسها بنفسها.. إنها شبيهة بالنار التي التهمت روح الملكة قرطاجنة وقد ألهبت جسدها في شرارتها اللاذعة حين هجرها الطروادي الخائن مبحراً في سفينته..!

إن بؤسها لا يعزو حزنه من فقدان رجل..!

بل بكثافة المشاعر التي أريقت منها.. بحجم الصدق الذي أهين على يد أكاذيب مفتعلة.. بحجم الخيانة التي ثقبت نفقاً في قلبها حتى الصميم..!

فالرجل يبهت حضوره وتتراخى تفاصيله بمرور الزمن

لا يعدو سوى مسمار صدئ في إحدى زوايا الذاكرة المهترئة سرعان ما ينخلع من تلقاء نفسه دون أي ارتطام أو دويّ يذكر..!

ووجه الدهشة أن هذا الخذلان هو ما يحييها حقاً.. هو ما يشعرها بأهمية كينونتها كامرأة خذلت على يد رجل هو عابد أهوائه.. أكثر من ساقط وأقل من ساقط.. هو ما يوقظها على نحو أكيد وأعمق ومبهج..!

رجل لا يعلم أن الهشاشة تكمن في أعماقه..!

إنه لا يقبض على هشاشته.. فالهشاشة هنا موضع لهو.. إنها تلهو به وهو دون جوان لعيون هشاشته التي تتخبّطه من امرأة إلى أخرى أي من ضعف إلى آخر..!

الرجل سيد نفسه.. هو الذي أملت على لبّه حسناء واحدة رغم عيون كل الحسناوات الملتصقات به عبر الحياة.. هي وحدها دون غيرها نخرت كالدود ذاكرته وبقيت هناك تنخره وتغتذي به.. فذاكرته تعيد تصنيع ذاتها عبرها يقظة تلو يقظة..!

الرجل سيد نفسه.. هو رجل عقله وقلبه وروحه وجسده.. ليس رجل عقول الآخرين وقلوبهم وأرواحهم وأجسادهم..!

ألا يقول أحد أمثالنا الباريسية: **«إن الرجل الحقيقي ليس من يغري أكثر من امرأة، بل الذي يغري المرأة نفسها غير مرة»..؟!**

وجاء هنري كهبّة.. كاختراع في وقته.. كريح باردة على طقس معطّل بالرطوبة والحرارة..!

حين دنا مني هذا الرجل القنبلة.. أطبقت على حواسي جلّها وأنا أعدد اختناقي ولحظة اقترابه المتفجرة... وحين تسرّب روح انفجاره فيّ استعادت أنفاسي حياتها.. احتويته.. أغويته.. استوليت عليه.. سلبت منه كل ذلك وأكثر بمهارة عاشقة «وقفت» في غرام حبه بينما «وقع» هو من مطب غرامي ..!

ولم تخطئه قناعاتي عنه: رجل غريب في روحه يكمن خليط من الأشياء..!

من السهل عليه جيداً أن يقع في غرام كتاب أو شخص أو فكرة أو أن يضحك كالجحيم بينما هناك من يثقب قلبه بمسمار..!

إن هذا الرجل متوحش حتى الرقة وقاتل في الغرام حتى الجريمة نفسها..!

7

أنايبسي..

أجل.. كما أذعنت سابقاً وسأذعن طوال عمري باعترافي هذا: إنني مولع بالمومسات..! إنهن يدلقن أمامك بعفوية مطلقة وعلى نحو يجرح حتى مشاعرك وربما ضميرك..!

الفتاة التي قابلتها في المقهى في كليشي كانت من هذا النوع.. نمط من النساء يستفزن شهوتي من عقاله.. إنهن سخيّات على نحو عميق بينما نحن - منّحطون - قبالتهن برغباتنا المتعفّنة وهن على استعداد تام لاحتوائها بكل عفونتها..!

المومس تمنح بامتنان كبير دون أدنى وخز في الضمير..!

تمارس فعلها كما هو دون أقنعة مسرح نو الياباني.. دون إضافة أي توابل نفاقية.. إنها فارغة من تاريخ السموم.. من سيّئات الظن.. لا تطاردك بسيل الاتهامات عن آخر امرأة

كنت معها أو عن مواهبك.. لا يهمّها إن كنت كاتباً أو رجلاً يفرغ القمامات كل صباح..!

وتكمن معجزة اللذة في عطائها العادل..!

فهي تمنح بمقدار ما تمنح جيوبي.. لهذا لم تجحظ عينا دهشتي حينما قطع «فان غوخ» إحدى أذنيه من أجل عاهرة..!

كم أبغض أولئك النسوة اللاتي يدّعين الشرف ببذخ مقرف في ظاهر الحياة بينما في دواخلهن ثمة وحش قابع يلتهمك ببذاءة في كل لحظة..؟!

إنني أعلن اشمئزازي في حضرة هذا النوع من النساء.. مدّعيات الطهر والنقاء؛ فأي ادّعاء متناقض هو هذا..؟!

النقاء يسترخي في روح المرأة الشفيفة تلك التي لا تدّعي غير حقيقتها كسلك مكهرب تباغتك بأسلوب فذّ لا يخطر حتى ببالك..!

فتيات الستربيتيز هن أكثر طعناً بالجرم.. أشدّ التفاصيل الحياة تعبيرا عن تاريخ العريّ..!

«إن الحياة عارية والجسم العاري هو أصدق تعبير عن الحياة» هكذا اعترف الفيلسوف العربي «جبران خليل جبران» صاحب كتاب «النبي» لهذا جاءت لوحات هذا الفيلسوف الذي كان فناناً أيضاً على صورة أجساد عارية.. هو العري

ذاته الذي يريد أن يقنع هذا العالم أن ظهوره على هذا النحو هو جزء من طبيعته الكامنة ولا يملك حيال نفسه سوى أن يرخيها على فطرتها.. فالأقنعة تشوه جماله الحقيقي وترخّص من كيانه..!

العُري يعشق أن يسفر عن ذاته على ما هو عليه.. لكن ثمة ثلة من البشر العري الفاضح يستهوي عتمة أرواحهم؛ لأن العري الساحق بهذا التكشّف يؤجج فضولهم.. تزلزل الإثارة فيهم.. إنهم يفضلون العتمة.. ففكرة التمشي تحت الشمس تفضح خواءهم فهم أجساد تسيح فقط وجسارة ذاك العري الفاضح استوقفهم أمام حقيقة واحدة ومرعبة في آن حقيقة موت أرواحهم وهشاشتها..!

لهذا سيبقى العري على الدوام إثماً ماحقاً لجوقة تريد أن تقمع من حريته وهم أولئك الروحيون وجوقة أخرى تشتهيه كما هو طاعن حتى اللعنة وهم عبدة أجسادهم..!

ولعل فكرة تجسيد الجمال وحده على الجسد البشري الأنثوي عاريا هو ما جعل الإنجليزية «هيلين تشادوك» تناهض فكرة اتكاء الفن على هذا الجانب وحده أي الجسد الأنثوي الفائض بالإغراء وهو عارٍ فلجأت إلى تحديد التقاسيم الداخلية للأحشاء في لوحاتها.. كلوحتها الشهيرة «زهرات البول» حيث حفرت فيها النتوءات التي يسيلها البول فوق طبقة الجليد..!

أناييسي..

لم تكن دُعابة ما أطلقه «أرنولد توينبي» أشهر مؤرخي قرن العشرين حين قال: «**إن التاريخ يستيقظ في غرف النوم**»..! لم تكن دعابة.. بلى.. بلى.. لم تكن دعابة قط؛ وحدنا نحن – الرجال- نعرف ذاك ونحتسيه..!

ازدحمت بالنساء.. تاريخي عريض بهن وطويل معهن وكما شيع عني كن عابرات جسدي.. هذا الجسد كان يرغب فيهن كما هن عابرات في برهة زمنية قصيرة وفي الوقت ذاته حميمية بجنون مدهش.. لكنك يا أناييس وحدك غمست حواس هنري كلها في قاع شهوتك.. مشدود أنا بكلي نحوك من روحي من جسدي من عقلي ومن قلبي.. اقتحمت كل ألغامي.. كل حيواتي الساحقة في أعماقي أتقنت الاستيلاء عليها وأنا بدوري أهبها لك بامتنان كبير وبفرح لا يوصف.. إن الرجل لا يهب كله سوى لامرأة واحدة في حياته تلك التي لا تكون له.. تلك التي تبقى أمنية نفيسة.. حلماً سابراً في مستحيله وأنا مستحيلي ممكن كما تعلمين يا محبوبتي..

إذا كان جسدي فندقاً فإن قلبي غرفة واحدة مفتاحه بحوزتك..!

ولك الفندق وتلك الغرفة ومفتاحها وتاريخها اليقظ..!

8

"يومية نن"

قابلت «سلفادور دالي». . كان المسكين متوتراً ومبتهجاً في آن. . !

كل تناقضات هذا الرجل تبهرني..!

إنه يحيا في عوالم متشعبة تحتشد فيه بفوضى.. بعشوائية.. بثبات تام وجنون مستحكم دفعة واحدة تردمه بائساً ومبتهجاً في آن كطفل يتيم فقد والديه واكتسب في المقابل فرحة مؤقتة بامتلاكه حرية نفسه للأبد بلا رقيب يقصم أحلامه على سعتها وجنونها وفوضاها..!

اعترف أنه قابل امرأة ساحرة وحدها تصلح لترمّم السريالية فيه على نحو خارق حسبما بصمة اعترافه..!

تدعى «غالا» هكذا قال لي.. وأضاف: إن لم تأتِ هذه المرأة لتطرح نفسها عليّ فإنني سأفقد صوابي مجنوناً أم منتحراً..!

بعد عبء يومين من فوضى الروح انتصب أمامي «دالي» كغنيمة هبطت من علٍ و قهقهاته الصارخة تقطع خطواتــه معترفاً باحتفالية: لقد جاءت إلي.. أنا المنهار لتمنع زلزال انهياري باعترافها البركاني وهي تهدهدني بصوتها الكونيّ الألذّ: «**خفف عنك يا صغيري، إننا لن نفترق بعد الآن**» . . !

وأدركتُ بحدسي الذي لا يحيط بتأويلات يقينه سوى حبيبي أن تلك المرأة الجميلة خطفت منه الرجل وشيطانه وحيوانه..!

إذا ما كانت «غالا» خطفت من «دالي» كلّه فهل أنا ملكت لبّ «هنري» بهذا العمق . . ؟!

ليس من السهل على امرأة ما أن تقيس حيز تأثيرها في قلب عاشقها إلا من خلال وفائه.. الوفاء الكامن في القلب وليس على مستوى الجسد.. فهنري جسده عابر سرير وتلكم النسوة كن مرضيات على نحو مثير لمغامراته التي لا سبيل إلى ركودها..!

كان وجود المرأة في حياته كارثياً ما بين أم لا يحبها وأخت بلهاء وخالة مختبلة..!

لهذا بقي القلب على خوائه يستشف عاطفة صاعقة تعيد ضخ الحياة فيه.. فليس من السهل على إحدانا أن تقع

في غرام رجل لا شيء في قلبه سوى خواء ليكون جسده دية يدفعها بلا نهاية عن جرائم لم يقترفها..!

إن الجسد هنا يغدو خالقاً ينفخ روح الحياة في صميمه؛ لأنه يخشى أن يفقد قيمته لهذا تفنى الخطيئة في هيئة ذنب عابر اقترفه طفل لا يعلم شيئاً عنه سوى من خلال تأنيب الآخرين له بأنه مخطئ.. ولأنه جاهل صغير فإنه لا يتوانى عن اقتراف الذنب عينه عدة مرات لا لشيء.. سوى أن متعته في الاقتراف لم تخمد بعد ولم يجد الضجر سبيله إليه وهذا ما يصرف عنه لغز فقدانه..!

لهذا كان هنري متمزقاً ما بين نقيضين.. وتمزقاته تلك نحتت أهواءها ما بين الرسم والكتابة.. كانت فرشاته تسيح ألواناً تثير شهوات جسده بشبق يرقِّص شيطانه بينما غدا القلم منبر خطبه عن قلب معجون بصدق مرعب ومريح وعاصف.. عري من نوع آخر.. استفزاز من عيار ثقيل كما أكاذيب زوجته «جُن» تماماً..!

ولعل هذا الخليط من فوضى المشاعر هو ما أوقعني في غرامه معصوبة العينين.. أسير في عوالمه بعصابة تعتم حواسي أتخبط في دهاليزه بجسارة مذهلة.. ثم أعود إلى حيث أنا وضوء حواسي يعرّيني كلوحة سوريالية خارقة من فرط إبداعه الشاعري..!

9

حبيبتي أنابيس..

لقد ضجرت من التكنولوجيا يا أنابيس..!

هذه العولمة تولم العالم في فراغ أبدي.. خواء تلك المشاعر التي تحاصرنا عبر أسلاك لاسلكية.. في طفولتي كنت أسجل قائمة الكتب التي أرغب في امتلاكها ثم أقدمها إلى والديّ.. و في اليوم الذي يليه أراها مكومة أمامي.. وكان ذلك يعصر لبي الضئيل في هيئة دهشة رغم أن أكثر الدهشات تلك التي يسبرها عقل طفل..!

لكن اليوم بكبسة زر واحدة يا أنابيس.. واحدة فقط وتقبع أمامك مكتبة مهولة بالكتب كم يرعبني هذا العصر..!

إن ما نكتبه في سنوات قادمة سيستحيل إلى علب.. صدقيني كما أحدس لك تماماً..!

كل علبة من تلكم العلب سوف تحتوي بجوفها كلماتنا

وعباراتنا وكومة مشاعرنا وزلازل انفعالاتنا المضطربة.. وربما بعد بضع سنوات سيكون الكتاب «كبسولة» غنية بالمعلومات يتجرعها المرء فتتدفق المعلومات إلى عقله دفعة واحدة..!

اذكر أن «جُن» حكت لي مرة عبر أكاذيبها التي لا تنضب أبداً أنها قرأت عن أقوام تحيا في الجانب الآخر من هذا العالم.. في أقصى غابات الأمازون ثمة أقوام يقال لهم «البيراها» وهم أقوام يتنفسون بعيداً عن كل حضارة وتكنولوجيا ولا يحيط بهم أي نوع من أنواع الرفاهية والترف.. ينامون قليلاً وجلّ وقتهم مخصص لعيون الحيوانات التي تستقر في بطونهم فيما بعد..!

والمدهش يا أنايس.. بل قمة اللذة أنهم يضحكون من كل شيء حتى من الآلام التي يتعرضون لها.. هكذا عندما تقتلع الرياح كوخ أحدهم يضحك أصحابه أكثر من الآخرين.. إنهم يضحكون عندما يصطادون كمية أكبر من الأسماك وعندما يفوتهم الحصول حتى على قطعة واحدة منها.. يضحكون عندما تمتلئ بطونهم وعندما يثقبهم الجوع بخسّته..!

ما أعظم هذا.. إنه أقوى اختراع بشري مر عليّ.. أن تغدو ضحوكاً على الدوام..!

أريد أن أكون بيراهيا حتى الصميم يا قلبي.. سأصدقها

هذه المرة وإن كانت فرقعة كاذبة من «جُن» فأكاذيبها تحييني.. أجل ها أنا أعترف بعظمة لساني أكاذيب زوجتي التي دفعتني للمغادرة إلى باريس هي التي صنعت مني كاتباً يقذف ثرثراته بهذه الفظاعة.. ليس سهلاً أن يحيا المرء في وسط زوبعة من أكاذيب مفتعلة تصدق نفسها في النهاية ويصدقها الآخرون.. هل حكيت لك عن قصة الفيلم الذي شاهدته في إحدى دور السينما عن امرأة نذلة..؟!

كانت تلك المرأة تولف أكاذيب كثيرة عن علاقتها بنجم سينمائي مشهور كي تدخل عالم الفن من خلاله.. لقد حصلت بأكاذيبها في النهاية على ما كانت تصبو إليه يا للعنتها تلك المرأة الداهية حتى النجم الذي حيكت عنه أكاذيبها صدقها..!

لكن كذبة هذه المرأة التي نعتها بالملعونة والداهية معاً لا تعادل شيئاً من الكذبات المزروعة في ألسنة الحكام عبر التاريخ السياسي في أنظمتها الديمقراطية والليبرالية..!

لقد فضحهم «ميشال فيز» ذاك اللعين كم عشقته يوم نشر غسيل فضائحهم على الرائح والغادي في كتاب خصصه عن الكذب.. فبتمحيصه الثاقب توصل إلى أن كل الأنظمة السياسية تكذب على مواطنيها ففي أثناء الحرب العالمية الثانية فك الحلفاء الرسائل المشفرة الألمانية وعرفوا أن

قصف لندن وانجلترا كان قد تقرر ولكن «ونستون تشرشل» رئيس وزراء بريطانيا آنذاك عزم كتمان الأمر عن مواطنيه حتى لا يثير شكوك «هتلر»..!

وقضية ووترجيت الأميركية التي أدت بالرئيس «نيكسون» إلى الاستقالة.. وكذبة «بيل كلينتون» الذي سعى إلى إخفاء علاقته بـ «مونيكا لوينسكي» تلك اليهودية التي أذعنت والابتسامة تشق شفتيها بخبث أن الطفل كلينتون رجل يجيد التقبيل..!

دون أن نسقط كذبة الرئيس الفرنسي السابق «فرانسوا ميتران» يوم طالب طبيبه أن يزوّر التقارير الطبية؛ كي يكتم خبر إصابته بالسرطان عن العامة وهذه الكذبة كانت حبيسة سنوات حكمه الأربع عشرة..!

العوالم السياسية هي بمنتهى القذارة. . !

كل منهم يجيد اختراع أكاذيبه بجدارة قلّ نظيرها.. كل سياسي يا حبيبتي يستحق جائزة نوبل في الكذب ولكن إن عزمت نوبل منحها من سوف يحصدها يا ترى.. فما أطول الألسنة المفطورة على الكذب وما أكثرها..؟!

ألم يصدق «نيتشه» حينما أطلق رجاءه على قفا البشرية: «رجاء، لا تحرموا الإنسان من الكذب؛ لأنه لن

يتمكن من العيش.. الإنسان يعيش من خلال الأكاذيب، لا تحرموه من تخيلاته، لا تدمروا خرافاته، لا تخبروه الحقيقة؛ لأنه لن يتمكن من العيش من خلال الحقيقة»..؟!

الحياة يا حبي تسير على هذا المنوال لا يمكننا أن نتعاطى معها.. مع الآخرين مع أنفسنا دون أكاذيب حمراء.. بيضاء.. دون اختلاقات كيفما كان لونها ومذاقها.. ألم يعترف «كافكا» بدوره في رسالته الأخيرة لـ«فيليس» قائلاً: **«أنا مخلوق كاذب، وهذه هي الوسيلة الوحيدة للمحافظة على توازني، فقاربي هش»**.. وكل بني آدم وحواء «كافكا» يا حبيبتي..!

من طريف ما أذكره أن الحكاءة الحاذقة «إيزابيل الليندي» زوج أمها كان يطلق عليها لقب «مجنونة الأكاذيب»..!

نحن – صانعي الحكايات – أكاذيبنا لها مذاق شجرة البامبو.. تلك النبتة العجيبة التي تنحت التربة بصمت طوال ردح من الزمن حتى تختال معانقة شمس الحياة بصلابة.. أكاذيبنا تحيي الأرواح المثقوبة وتلك الضجرة وأخرى هائمة في مهب الخيبات والإحباطات لتنتشلها بقوة سحرية.. تفتّت الحزن الكبير إلى أحزان متضائلة.. تصنع ما تصنع لكنها لا تؤذي ولا تخلّف خدوشاً.. شفيفة كفستان من دانتيلا تزدان

به كل روح ترتديه.. تتلمس كالمرآة غوامض الروح الغاطسة في الكذب فتعرّيها.. إنها ببساطة تعني «الحياة» لكثير من المعدمين حين تزن قيمة تلك الأكاذيب حجم أحلام طارئة يجسونها من سطر عابر أو عبارة خلاقة في روح مخلصة..!

وحبيبك غارق في الأكاذيب المالحة والحامضة والمسكرة كما غارق في بحر هواك.. يا أوحد صدق خارق في حياتي ولم يفلح شيطان الكذب في تسميمه..! لكن يا شيطانة قلبي.. بالله عليك من طاهر اليوم من آثام الكذب سوى الأغبياء والسكيرين والأطفال...؟

10

"يومية نن"

لهنري صوت كأمنية يؤنسك..!

تتوق إلى تخزينه في قمقم وسد فوهته بإحكام كي تــهزك لهفة الحنين همسة بعد همسة كلما استكان القمقم على قلبك..!

بعض الأصوات تسبرنا كصلاة خشية..!

فثمة حناجر وهي تخترق طبلة أذني عبر ذاك الالتماس اللاسلكي يخيّل إليّ وكأنها تمارس اغتصاباً مقرفاً.. وآخرون كانوا يمزقونني بريائهم الفاضح -القلة منهم- غدت أصواتهم كالغيث تهطل زهور قرنفل..!

كل رقم يخبئ تحت شيفرته لساناً يمثل شخصه الكائن وكيفما تآلفت الحناجر تظل هناك أصوات تختزن براءتها عبر

الزمن وأصوات أخرى تنتعل الغبار.. أصوات تبقى في حنجرة الذاكرة إحساساً نتلهف على وصله النبيل في زمن الأصوات الموبوءة بالخديعة.. وأصوات تتيه بنا في ثرثرات عقيمة دون أن تترك بصمة في كينونة تاريخنا الصوتي..!

ويبدو أن اليابانيين وحدهم أدركوا بحذق غامض أهمية الصوت الإنساني ليس للثرثرة العدمية وحدها بل كوسيلة لإنقاذ أرواح بشرية.. فهم يقومون بعمليات تدريب للصوت وإذا ما هاجمك أحدهم بسيف ولم تكن تحمل أي سلاح في مواجهته.. فما عليك سوى أن تنقذ رقبتك بالوسيلة اليابانية وهي أن تطلق صرخة مهولة - تدربت حبالك الصوتية عليها من قبل – كي تهز السيف من يد خصمك فيسقط بخنوع..!

الصوت هنا بمثابة موقف دفاع فحين تطلق حنجرتك صوتها المهول وهي في حالة خطر.. فإن هذا يجعل خصمك في حالة ضياع تام لدرجة الفقدان الموقت للذاكرة.. إنه لا يعي ماذا جرى وماذا سيجري..؟! لكن بالمقابل ينبغي أن يكون وعيك الذاتي غائبا وهذا الغياب سيحدث صدمة في ذهن خصمك.. سيحدث توقفا وقتيا مفاجئا.. فيا لها من وسيلة للفرار من قدر قد يكلفنا حياتنا..!

لا أعرف كيف أتفاعل مع هذا العالم الآثم في غيابك . صوتك يمنحني التقوى. . ؟!

هل أقرّ بحقيقة وهو أنني يوم تخلصت من هاتفي النقال كما أقترح علي «د. رانك» في وقت ما كي تستعيد أذني ثقتها بالأصوات تلاشت حينئذ عقدة الحناجر الثقيلة على الروح كوجبة متعفنـة.. لكن هنري كان سيلومني كثيراً بل اللوم كله كان سيمحقني من أذنيّ.. فكيف لي أن أمنعهما عن سماع بحّات صوته اللذيـذة وهي تطلق أنفاسها عبر تلك الأوشاج..؟!

عبر تلك المسافة المعلقة ما بين الأزرقين ليهمس لي بحبور وامتنان كبير وبفرنسية أنيقة: «**أناييسي أحبك، وهذا ليس كافياً، إنه أكثر بكثير، بكثير، اسبري أعماقي، أخرجي كل ما في داخلي، أشعر بأني غني غنى لا ينضب**»..

يهزني صوتك مرة وهو يحكي لي تعويذتي في خبايا عتمتك:

صوتك رعشة جنونية

حين يسبرني أستحيل جبل شبق

يكوّم غيوماً لاهثة

عواصف روحي تئن من لذة الإغواء

وأمطرُني.. أمطرُني.. أمطرُني..

يا أنثى الليل

يا رعد القلب

يا برق الروح . . .

لم أكن أعلم أن حنجرتي تحدث زلزالاً كرنفالياً شبقاً في مجاريك يا كوني...!

11

إنني أعرّي بلا خجل كل قطعة من حياتي..!

الكاتب الذي تتأجج إنسانيته في كتاب ثم ينال رضا العامة أو يثير بركان غضبهم.. يلفت قسطاً من اهتمامهم أو لعناتهم.. تبقى حياته كتاباً مغلفاً على رف في مكتبة أو على رصيف في الشارع أو مأوى في قمامة الحيّ.. كتاباً يعودون إليه في وقت ما أو في زمن ما أو يدوسونه بأقدامهم.. يتوارث.. يلعن يوم طباعته.. يطبع آلاف المرات أو يشحن منفياً إلى زريبة مقفّصة محبوساً عن الطبع.. يحكى عنه في المنابر أو يوصم في قضية رأي عام.. يرجم أو يبصق على غلافه.. كتاب يلتهم أوراقه خروف جائع أو تقرضه الجرذان أو في أيدي أطفال أشقياء في حافلة مدرسية استهوتهم أوراق خيباته وانتصاراته وليمة لفم الريح.. هو كاتب حياته ليست مثيرة فحسب بل أسطورة قائمة في ذاتها..!

طوال تلك الأعوام وأنا ألملم فتات حياتي.. تلك النتف أضمها بحرص نملة دؤوب.. عن هنري بكل ما فيه.. بكل ضعفه.. عذاباته.. حيرته.. فوضاه.. كل شيء يمثل لي شيئاً ما سجلته في كل كتبي.. أتخمتها في تلك السطور المتراصة.. كلمة كلمة وعبارة تلو عبارة ونفساً تلو أنفاس.. أمارس ذلك باستمتاع طفولي.. أكتب عدة صفحات ثم أعود وأخاطب نفسي بجدية غريبة ومضحكة في آن: إن هذا هو هنري الذي لم أعرفه قط..!

إنني عبر سيرتي أكتشف متاهاتي.. أعرّيها على كل الجبهات وكأنني في حرب.. هي حرب نفسية في المرتبة الأولى فحتى «سقراط» كان يحارب نفسه حينما أطلق عبارته الشهيرة: «**اعرف نفسك. . !**»

فأنا يا أنابيس وكما أذعنت سابقاً في موقف دفاع عن كتبي: «**أنا ببساطة إنسان ولد لكي يكتب واعتبر موضوعه هو تاريخ حياته، أنا من أكد بقوة في كتبه على أنه عاش حياة طيبة، مكتنزة، مرحة، رغم تقلبات الحظ، رغم شتى المصاعب والحواجز**». .

إن فكرة التوقف عن الكتابة ترعبني.. ذاك الفعل الذي أحتك بي كعادة سرية..!

فحين لا أدلق على ذاك البياض الصارخ فضائحي أصير قبيحـاً.. بشعاً لدرجة تجعلني أتقيأ وجهي في المرآة كل صباح..!

فهل يحق لكائن ما في هذه الحياة أن يحاكمني على حياتي التي غلفتها لهم هدايا عبر آلاف الصفحات..؟!

لا يحق لأحد أن يحاكم إنساناً قال يوماً ما: هكذا أنا.. اقبلوني أو ارفضوني..!

إن الحرية هي وحدها لها الحق في أن تقف في وجهي بكل جبروتها.. بكل ما تملك.. بكل ما تؤمن به.. هي وحدها يحق لها أن تقول لي: هنري ميللر.. إن حياتك فظيعة.. إنك مذنب في تعريتي على هذا النحو أمام أولئك الرعاع..!

ويوم تنتصب الحرية أمامي باعتراف كهذا سأقول لها: آمنت. آمنت. آمنت.. بأني أنا هنري ميللر مذنب يقدم عقله للمقصله بكل امتنان..!

أناييسي يا روح قلبي.. أوليس معي حق..؟!

12

"يومية نن"

الحب يوازي الرئتين في الجسد..

وروح بلا حب كإنجاب أطفال عن طريق تلقيح صناعي.. فعلى الرغم من حضور شبق الإنجاب بحرارة الرغبة واجتماع غريزتين أمومة وأبوة إلا أنه ليس كما هاجس الإنجاب الطبيعي ففي زخم حضوره شمائلنا مكتملة..!

قطعاً.. لا حياة بتقاطيع حقيقية بلا حب.. بلا نبض يعنّف انتباهنا إلى قلب يطوقنا به ومعه مشروع حب خام.. حيث لا مصلحة.. لا غاية.. لا أنا.. لا آخر سوى محض حب فقط لا غير.. عبارة «فقط لا غير» ضرورة في كل مشروع حب خام كاستدعائها الحتمي على صدر شيك مسعّر بمبلغ وقدره (.........) فقط لا غير.. توضع لا كتخوين للمستلم ولكن لبنك الاستلام..!

مثل عاشقين متوثبين حتى آخر رمق «فقط لا غير» بثقة عمياء وبراءة مفرطة ولكن التخوين من الآخرين.. من جمهرة الحياة المشربكة القاصمة.. فمشاريع الحب ملغمة بالشك والعشاق مطاردون بلعنة الخطيئة..!

تعليب الحب في جرم الخطيئة هو ما يمنحها الخلود المطلق..!

ما أكثر ما كان يشتتني على الدوام وميض البدء بسؤال كوني: من هما أول عاشقين دفع القدر شبقهما إلى دنيانا..؟!

وتتابع الفضول إلى متى وكيف وأين وهل وما وماذا.. لكن التخاذل وحده تعامد بحيرة كبرى بهيئة سؤال كصدمة عنيفة: لماذا ما عاد ضخ الحب كعهده الأول.. لماذا هذا التلاشي.. هذا الفراغ المتوجس.. هذا النضب رغم الحضور التام للعاشقين..؟!

لعل الحب هو شقلبة وحبو وسفر وتحليق.. لعله معزوفة من أصابع أعمى.. كخيال فكرة لا حدود لها.. لا تكف البته عن رياضيات الجسد وانفجارات الروح..!

ولا شقلبة أو تحليق أو حبو دون حرية..!

الحرية في الحب مطلب إنساني وحيواني ونباتي فكل

حبيس.. وكل مقيد بسلاسل.. وكل مربوط بحبال هو خارج الحياة وداخل العبودية..!

تجسّد كلاهما «الحب والحرية» في عالم الكاتبة «سيمون دوبوفوار» اختارتهما معاً.. فعشقت «نيلسون إليغيرين» الأديب الأميركي ولكنها رفضت الزواج به وفضلت لقاءات متقطعة ومراسلات غرامية معه.. وظلت مع رجل يمثل لها الوطن وكان «سارتر» فاحتفظت بالارتباط الحر والوطن مع «سارتر» مقابل حب رجل في الطرف الآخر من العالم..!

«سيمون دوفوار» اختزلت حريتها بمذهب يمثلها ومنها يتمظهر الحد الفاصل في الفرق ما بين الزوج وغير الزوج.. فالأول رجل ثابت والآخر رجل طارئ والثابت ثابت بحقه هو إنما الطارئ عليها بحقها هي..!

الأول ثابت بحقيقة يعلنها العقل ويفهمها جيداً وهنا يبرر مذهب العقل.. بينما الآخر هو طارئ بمذهب القلب تلك العاطفة التي تختار دون مشورة من العقل؛ فهي تسير وفق مذهبها العاطفي والأول يعلن موقفه وفق مذهبه العقلي؛ لهذا كلاهما مذهب متعب ومخيف وجدليّ حين يسقطان في فخّ التناقض..!

وهذا التناقض يقبض على روح الإنسان.. فيتملكّه

شعور بأنه ممزّق.. مملوك لا مالك نفسه وإنما هو شيء يتقاسمه عاطفتان وشعوران وقلبان وعقلان كجمرة تُشوى على نار مذهبين..!

الحريّة بالمجمل هي من نسل ثوري..!

ثورة حرة أمام بنية الحياة العتيقة التي ما تزال مربوطة بحدودها الاجتماعية الموروثة المصابة بعاهة الازدواجية.. تلك التي تقيّد إنسانية الرجل وإنسانية المرأة وحقهما الشرعي في الحب والحرية.. ذاك المنع المستبد منبعه السمعة الساقطة لكل «عاشق» و«ثوري» أكان رجلاً أم امرأة..!

العالم.. بل كل من يهين الحرية لا يدرك مداركها العميقة.. أشبه بالذي يبلل قدميه بزبد الشاطئ معتقداً أنه أدرك البحر..!

تلك الحرية وذاك الحب إنهما كالأوكسجين بالنسبة إلى أنوفكم.. إلى أنوف العالم.. إلى أنوف البشرية.. إلى كل شيء حيوي.. كل شيء له نبض يعوزه هواء نقي يتفسح في مجاري رئتيه.. لتطهرهما من نتن الحقد والبغض أي وجه الحياة الدامي.. المتقيّح.. الشرّه والقبيح..!

إن لفظة أحبّ وصل سرمدي.. خبل.. شراهة..!

تعويذة سحرية تبهّر الحديد فتسيّحه كقطعة كاكاو تمارس التشميس على كوكب عطارد.. تُفرقع ما لا يُفرقَع.. إنها تطبب ما لا يطببه مشرط طبيب في قلب مريضٍ بالذبحة الحياتية..!

ولا حب أول ولا حب أخير..!

لا أهمية لهذا الترتيب الكلاسيكي الرتيب الذي أغرق النساء في وهم الأنا أو الأخرى..!

بل ثمة حب متوجس.. حب قلق.. اكتئابي.. مجنون.. أوفيدي.. هيولي.. أفلاطوني.. حب حاد البراءة وصارخ الشبق كمسمار مثقوب في القلب ومعول يفتت الروح من هامتها إلى أقل الأعضاء حساً حين تتلبس بهاجس الخيانة... الحب بطقوسه لا بتراتيبه.. بخواتيمه لا ببداياته..!

فمن الغباوة حقاً.. أن تطالب المرأة رجلها نسيان تاريخه مع نسائه السابقات..!

بل إن نسيانه هنا هو جرم موسوم بالخيانة وهي الخيانة عينها ستطبل دفوف القبيلة بها وليمة التهامك..!

ليكن اختيارك له حسب مقدار الوفاء المخصص لهن في أرشيف ذاكرته.. فأنت سوف تغدين أبدياً أو موقتاً صفقة وفائه الأخيرة إن لم ينته بك الأمر مسلوبة كالسابقات.. ولربما

تكونين عابرته المستثنية في حال أفلحت عابرة أخرى الاستيلاء على غرفتك في «فندق» قلبه.. فلمسة استثنائك في شقق فؤاده سيبقى أثرها محموماً بلهفة تصون تاريخك الشخصي فيه.. فرجلك بصم وثيقة صون تفاصيل عابراته المستثنيات: صوت أو حس أو اسم.. رائحة.. ابتسامة أو حتى شامة.. مستبقياً لكل من سبرت تاريخ عواطفه حيزاً في عمارة الذكرى ..!

المسألة برمتها هي استيلاء أماكن لا أكثر ولا أقل..!

وقد تكون ثمة شواغر.. لهذا من الذكاء أن تخلقي اختلافك فيه وتشتّتي رجلك منك وفيك وإليك.. كي لا يتسع لا القلب ولا العقل ولا قانون الفراغ وانفلات الرغبة لامرأة أخرى سواك..!

كوني حاذقة كفاية لاختبار وفائه..!

من خلال أمسية حميمة تعطر أجواءها معزوفة غدت استثناء عند إحدى عشيقاته السابقات.. وجبة مشتهى تحمل نَفَس إحداهن.. قارورة عطر أو كتاب ممهوز بجرم سابق.. فإن أبدى رجلك وكأنه يصلي صلاة تقديس لذكراه العابرة فامضي باطمئنان فأنت في قلب لك فيه خصوصية ووفاء.. ولكن إن أبدى رجلك امتعاضه فكوني حذرة.. لأنك

ستكونين أنت طُعم امتعاضه فيما بعد أمام امرأة أخرى تكون قد حظيت موقتاً بهوى ذاكرته.. فهي رفيقة الريح تميل إلى حيث ولائم الريح تكنّس شبعها..!

قيسي وفاء حبيبك وفق وفائه للأخريات..!

إن رجلاً بصق في وجه كل ما وراءه هو رجل خوان.. ستكونين أنت مهبط بصقته التالية كوني على يقين.. فالخيانة كالغرغرينا لا تكف عن التآكل في داخله كما خيانة الأهداب للعين.. خيانة الإصبع للإصبع.. خيانة الكف للساعد.. خيانة الروح والحنايا والضمير..!

لا تكوني ضمادة نسيانه..!

لأن الرجل المكسور كالجريح منتهى همّه أن يلملم هزائمه من براثن خذلان الحياة به.. منه.. فيه..!

لا تكوني مسعفة..!

إنه طريدة سهلة كجيفة.. دعيه رابضاً في حدوده.. باعدي جهات قلبك عنه وطالبيه بحزم: حينما تغدو قلباً وقالباً كاملاً لا تزعزعه الريح عد إليّ..!

وأضيفي بثقة: لست مقعداً شاغراً في قطار..!

فإن جئت متأخراً ولم تجدني فلا تلق اللوم سوى على تأخيرك.. إن الحياة لا تفتح أبوابها مرتين حينما تفتحها على وسعها عن طيب خاطر مرة واحدة..!

في حياة الرجل امرأة كاملة ومجموع نساء : الكاملة أمه والباقيات نساؤه السابقات. . !

من المهارة أن تنتقي رجلاً يحب أمه.. يدلّلها.. يفرطها احتراماً لأنك أنت ستغدين أمه الأخرى.. إن رجلاً لا يجيد حب أمـــه هو رجل لا يجيد حب امرأة من بعدها.. إن رجلاً لا تحفل أمه بمكانة سامقة في آماد كيانه هو رجل لن يقيم وزناً لأي امرأة مهما كان ثقل جمالها.. مهما بلغت كياستها.. فـ«نيرون» الطاغية الـذي قتل أمه «أجريبينا» بالـسمّ لم يتوان عن قتل زوجته «أوكاتافيا» دون أن يهزّ قلبه شيء من الشفقة..!

إن من يجسر على خيانة امرأة قدّسته في رحمها تسعة أشهر لا وفاء في فؤاده لأحد. . !

خلق الحب ليغدو الكون إنسانياً حتى نخاع العاطفة. . !

أحبّي.. أحبّي بكل رمق إنسانيتك حتى آخر قطرة من إنسانيتك.. عود ثقاب لإشعال غياهب الروح فليس مهماً أن يكون هذا الحب موجهاً إلى كائن ما كيفما كان جسداً.. ظلاً.. حقيقة.. خيالاً.. نبوءة.. أدمنيه كملهمة كوني متنفسه

وطوفانه ومختبر طقوس زلزاله وبراكينه وفيضاناته وكل ارتعاشاتـه بدءاً برمش العين وانتهاء بإصبع القدم «**فليس معنى أنك لا تجدين من يحبك كما تريدين ألا تحبي بكل ما فيـك**» رددها «غارسيا ماركيز» وهو ما يزال على فراش ذاكرته المحتضرة..!

إن حبك لنفسك هو كالماس أبدي. . !

ولا أبدية في حب مرهون لظرف أو غاية ما.. صفقات الحب المؤجلة إلى أجل غير مسمى تنذر بخريج إطفاء.. قدره يلزمه بإطباق فم كل شعلة متوهجة حتى تستحيل رماداً أو فحما بلون الرتابة..!

الحب المؤجل جريمة مكتملة ذات تفاصيل بطيئة يرخي الحب برعشة ناقصة.. فركود.. ثم هبوط ساحق لرعشات القلب في ترهل شبيه باحتضار.. وروحك وحدها سوف تنقد فاتورة جرم الآخر: خيانته. رحيله. موته..!

وفران الحب هبة. . ومنحه بصدق هبة تنمو أما الوفاء بوثيقته فهي هبة عظمى. . !

وكل خذلان يصقه العالم على وجه قلبك هو شهادة دكتوراه في اختصاص الحب ونزعاته وتجاربك وآخرين كانوا معك كماض غزير و«آخر» طارق على باب قلبك..!

القلب المخذول مستودع غني بوصفات المشاعر وفيتامينات العاطفة وحكايات كمعامل اختبار..!

ينجب الحب توأمه.. مثيله.. شبيهه واختلافه بمزاجين بجسدين وعقلين وقلبين وأربع من عيون وأيدٍ وسيقان وأقدام مقابل ثنائيات من أنفين وشفتين بمحتوى لسانين وجبهتين واحدة لكل منهما..!

لا خسران في مثل هذا الامتزاج بين ثنائيات الروح والجسد.. فحين نعرف أنفسنا وتقلباتها ونقاط الضمور والضعف والقوة والملاينة وطراوة الجلد وخشونته نتعرف إلى الآخر وضموره وضعفه وقوته وملاينته وطراوة جلده وخشونته.. نتعرّف إليها لنحتويها لا لنسلبها أو نماثلها أو ننقدها أو نقدحها هذرا من الثناء بل نتشرّبها كما هي قبل ائتلافنا تحت سقف واحد ساكنه فردان أشبه بجارين يتقاسمان تفاصيل التزاوج وعلى أرض شرفة واحدة يطلان على الكون.. هو ناظر إلى أحلامه في الشمال وهي ناظرة إلى أحلامها صوب الجنوب والجامع سقف واحد يطلي جدرانه قلبان بعاطفة متوحدة..!

أحبّي..

فالحب ينقّي دمك ويسمّم دم أعداء الحياة..!

من مدونة هنري ميللر: رجل أناني مرغوب فيه..!

سيرة فضفضة..

«سأتبرع بعينيّ وأنفي وفمي..

فمذ غدوت إنسانكِ

صرت لا أبصر العالم إلا من عينيكِ

ولا أشمّ إلا من أنفكِ

ولا أتذوّق إلا من فمكِ..

فما حاجتي للعينين والأنف والفم

و لي أنتِ..

وأنا كلّي لك أنتِ..!»

من مدونة هنري ميللر: رجل أناني مرغوب فيه..!

(1)

روحـــي..

مذ التصق وجهي بوجهك.. شيء ما ظل على حاله بيننا.. وأشياء تغيرت.. وأنتِ كما أنتِ.. مبعثرة في قلبي كطوفان لا يستكين.. وفي كل مرة.. كل مرة.. أنحل أنا ظمآن في صحاريك.. وأنتِ في مرساك ذاك.. تتوهمين بحراً يسوّرني وأمواجه تعزف غرورها في أذني المثقوبتين عن صدى روحك..

روحي..

مذ اعتقلت بنقائك قلبي.. يااااااااه، ما أعنف بدائية رجل لم يلبث قلبه ينبض بحرارة بين يدي امرأة حقيقية.. تحركه على هواها.. دمية.. زهرة.. حجر.. لا فرق..!

روحي..

مذ وقعتُ..لا بل منذ وقفتُ بإرادتي في شعثك.. وأنا

مدين لرائحة التبغ وبقايا لطمة من كفك مسربل نعومة جلود الأطفال الرضع.. أتذكرين ذاك النهار المربك..؟! يوم كانت شفتاي تمجان باحتقار لفافة تبغ.. فانتصب ظلك تحت قدمي وإذا بامرأة باسقة كالنخلة تسعل أنفاسها بحنق هكذا خيل إليّ.. وإذا بك تبدين اعتراضاً على مزاجي وحساسية صدرك من تبغي.. فانفعل صوت غطرستي وتغنج دخاني نافثاً في وجهك تنفسه كله.. فتصادمت كفك الناعمة مع خشونة وجهي.. بعبارة واحدة فقط.. عبارة واحدة همد الإبل عن طوله: (أنت رجل أناني)..!

كقذيفة موقوتة.. انفقات كبريائي.. ضاع شخصي تحت سنابك رعدك الهمجي.. ودارت الدنيا بي.. دارت.. دارت.. وفي غيبوبة رعدك أدركت أن لفافتي بين قدمي..!

يتبع...

13

أنابيس..

لأنني رجل.. فأنا مجبر على الصراخ.. على القتال.. على مناكفــة الآخرين.. وعلى مصارعة هذا العالم بصورة مستمــرة؛ لأن وجودنــا الذكوري يكمن في إثبات شيء ما.. لكن ما هو هذا الشــيء مـا لونه ومذاقه وشكله هذا ما لا ندريه..؟!

لا يوجد رجل في الكون يدرك ماهية هذا الشيء.. خاصيته.. سرّه.. لذا هم مصارعون على الدوام..!

تستطيع المرأة أن تبقى ساكنة دون أن يلومها أحد.. دون أن يجبرها أحد على الصراخ.. إنها غاية في ذاتها.. غاية كل رجل.. إنها كائن مرغوب فيه وليس مطلوباً منها سوى أن تمارس طبيعتها في هذا الشأن.. وعلى الرجل وحده.. انتزاع.. سلب.. تلك الرغبة إن سلماً أو حرباً.. وذلك وحده يعتمد على رقي الرجل وثقافته المتراكمة في التصرف..!

إن هذه الصراعات هي التي تفقد الرجل سلامه الداخلي.. تحيله إلى كائن خائر القوى دون أن يجسر على الامتناع.. إن مجرد الكفّ عن مثل هذه الممارسات هو اعتراف ضمني مخيف بفقدان المآل من كل شيء..!

لهذا لا أستطيع أن أكف عن قلقي كرجل حيال ما تنجبه لي الحياة من مخاطر.. عليّ على الدوام أن أكون في موقف دفاع أبدي تجاه أمور أخافها.. دون أن أحيط بماهية هذه الأمــور..؟! أشبــه بالذي يجد نفسه في وسط غابة مهولة بالكائنات الشرهة وهو في حالة يقظة مستمرة لأي مأرب منها إليه..!

إن هذه النزعة من الرجل تسللت منه إلى رفيقته في الحياة.. إلى المرأة وسوّرها من الجهات كافة كمومياء.. غدت المرأة اليوم مثقلة كالرجل في نزعات توجسه.. بعدما كانت هي الغرض في ذاته.. عليها أن تكافــح مثلما الرجل تماماً.. إن الحياة القاسية لن تأبه لجنسها الرقيــق.. فهي بائسة.. قلقة.. تحمل الصخور وكأنها رجل عوضاً عن مهماتها الفطرية كامرأة تطبخ.. تكنّس.. تنجب.. تعمل وتفكر ... إلى ما لا نهاية..!

لعل من هنا برزت نظرية كل من «فرويد» و«يونغ» التي تؤكد أن الموجود الإنساني هو ثنائي الجنسية.. أي خليط

رجولة مؤنثة وأنوثة مذكرة.. فالمرأة نحلة عاملة داخل البيت وخارجه والرجل بدوره غدت له مهمات أنثوية.. فهو يطهو في المطبخ ويمارس دوره في تربية أطفاله ويقرأ قصصاً لهم قبل النوم.. كما يشتري لبناته التنانير والبلوزات والفساتين ومستلزماتهن الأخرى ويعمل في الخارج بدوام كامل.. بمعنى هو أب وأم في آن ومثله المرأة تماماً أم وأب معاً..!

وهذا التفاعل الواقع حالياً طبيعي.. لأن المرأة والرجل كليهما مخلوقان من خليط ذكوري وأنثوي فجاء اكتمالها في هيئة طفل قابل للنمو الجسدي والعقلي والنفسي والروحي والاجتماعي والاقتصادي.. لكن السنوات العتيقة أسقطت هذا المفهوم الثنائي الجنسية؛ لأنه كان عالماً ذكورياً بالمعنى الكلي.. من هنا تفتت مفهوم الكلي الشامل لنظرية الطفل القابل للنمو المتكامل حسب سنوات تبرعمه في الحياة – كما أتخيله أنا - تفتت إلى تصنيفات وكان على القوي أن ينتقي ما يريده أولاً وكان على الضعيف أن يبقى رابضاً حيث هو كي يلتقط ما يرمى إليه أو في أتعس الأحوال أن يخضع بتمام ذلّه لكل ما قذف إلى تاريخه استعباداً لا اختياراً..!

لذا معظم الفروض المنزلية والحقوق تقع على عاتق المرأة.. الذكورة كانت هي الحاكمة وهي السلطة الكلية بينما

الأنوثة كانت مجرد متاع قابل للاستخدام والبيع والشراء..!

والمرأة هي ابنة المرأة والرجل هو ابن المرأة.. فكلاهما استودعا رحم أنثى تحمل لقب الأم وبنت المرأة تغدو كتلة من المشاعر والإحساسات.. لكنها إحساسات غير موظفة بل حبيسة قدرها.. فهي مذ سقوطها من قفص رحم الأم تستلمها الحياة لتضعها في قفص أكبر حجماً وأضيق أفقاً..!

بينما ولد المرأة يستلم تربيته رجل يدعى أب يحشو فيه مفاهيم القوة والعظمة والسلطة والعلو.. في ذاك العالم العتيق كانت الأنثى «هراء» وكان الرجل «كون» وهو العالم نفسه الذي كان يرى أن «الهستيريا» مرض عضوي خاص يصيب النساء فقط وكم بلغت دهشتهم حدتها حين اكتشفوا أن ذكورهم يصابون بلوثات هستيريا كما الإناث تماماً دونما تفريق..!

وعندما تفجرت المفاهيم الحديثة لواقع الحياة الاجتماعية والنفسية سحبت معهما تفجرات جديدة وفروق أكثر خصوصية وشمولية ما بين الرجل والمرأة على مستوى الخصال والتعاطي مع العالم من حولهم؛ فالمرأة هي مجموع شعور والرجل سياسة أحكام.. الأنوثة مستقرة وساكنة والذكورة حركة مضطربة لديه شعور متفاقم بضرورة الانتاج واختراع نظريات وابتكار سبل عيش.. الرجل غالباً ما يتيه في

كهف المطالب الحياتية والمرأة هي من تنير له الطريق وتساند توازنه المفقود.. التوازن الأنثوي نتاج هالة السكون التي أحيطت بها المرأة.. نتاج شخصنة الحياة ومن أهم متطلباتها هو تضبيط كل شيء كساعة حتى تشعر بميزة الأمان..

بل كما توصل في الوقت الحديث المحاضر والموسيقي الأميركي «مارك جونجور» الذي عرض في قالب كوميدي «قصة عقلين» عاقداً وقفة مقارنة ما بين عقلية الرجل والمرأة وأوجه الاختلاف.. فعقل الرجل كما توصل «جونجور» عبارة عن «صندوق».. تلك الصناديق محكمة الإغلاق ولكل صندوق خصوصية.. فهناك صندوق السيارة وصندوق البيت وصندوق الأولاد وصندوق العمل وصندوق المقهى.. ويتم تفعيل كل صندوق حسب نية الرجل لفتحه وحين يتقوقع في داخله تذوب اهتماماته نحو المؤثرات الخارجية عدا الصندوق المحبوس في جوف أجوائه وحين ينتهي منه يغلقه بإحكام.. ليتفرغ لصندوق آخر..!

بينما عقل المرأة عبارة عن «شبكة عنكبوتية» متقاطع ومتصل ومتفاعل بنشاط في الوقت نفسه.. فيمكن لها أن تشطف وتطبخ وتأكل وتقرأ.. تغني وتشاهد فيلمها المفضّل في آن..!

عقل المرأة بمنتهى التعقيد لكنه فاعل دائماً.. بينما من الممكن أن يكون عقل الرجل خاملاً فـ «جونجور» رأى أن لدى الذكور صندوق يدعى «صندوق اللاشيء».. أي إنه يبقى ببلاهة بلا أي فعل كالتحديق في التلفاز والتقليب في القنوات أو إسقاط صنارة في الماء عدة ساعات ثم العودة خالي الوفاض..!

أما على مستوى الألفاظ.. المرأة في حالة تنظيم.. مرتبة حتى على مستوى انتقاء الألفاظ: **أنا أعمل**. **أنا أكتب**.. بينما الرجل شمولي. فردي في ألفاظه : **عملي**. **كتابتي**...

بينما شتات الرجل نتاج نظرة مستقبلية.. والمرأة هي الآن والحاضر واليوم.. لهذا هي أكثر نزعة إلى استغلال الزمن.. ما يثير توتر المرأة حقاً هو غياهب مستقبل مجهول يظلل حياتها مع الآخر.. مع الأشياء.. مع الحياة بفضول نزق؛ فالمرأة كائن اجتماعي لها نظام مملكة وكل من في مملكتها يخضع لاهتمامها ورعايتها الخاصة..

والرجل هو مشروع مستقبل.. يتوجّس من حاضره. ربما المستقبل البعيد هو تعليل لكل لحظات الخنوع والضعف البشري الذي ينتابه عندما يعجز عن التصرف وعندما تفوته القدرة على تولي زمام الأمور.. لعل ولعل..!

والفيلسوف «نيتشه» طرّز هذا الاختلاف بطريقته حين قال: «**سعادة الرجل : أنا سوف.. سعادة المرأة : هو سوف**»..!

«عصرنا بحاجة إلى عنف»..!

هكذا اعترفت لك سابقاً.. وهو اعتراف لم يكن سابقاً لأوانه.. فأنت أكثف امرأة يا أناييس.. تدركين حجم الغرزات التي خيطت تحت جلدي.. في كل بقعة مني.. ولهذا كان لابد لي من الهرب.. هروبي الجميل إلى المتع.. إنني أعشق المتع.. أختارها بعناية.. أنمقها متعاً مضاعفة.. إن الولد الشقي في روحي هو دائم الطلب.. إنه لا يكف عن لكزي طالباً المزيد والمزيد.. إنه شره.. كائن احتفالي.. نزق.. وهذا يريحني جداً.. ضرباته العنيفة تلك تحيلني إلى رجل لا يكبر.. كلما كبر صغر.. كما هي أحلامه.. عشيقاته.. كتبه.. لوحاته والمرأة التي أحب..

أحبك.. أحبك..

أحبك أناييسي... يا صندوق الحب..!

14

أنابيسي..

«ليدي غاغا»: هذه الساحرة الأميركية بعينيها المأهولتين بالشياطين..!

اصطحبني صديق لي وهو مولع بالحسناوات الصغيرات إلى احتفال غنائي راقص.. مبرراً بخبث أنهن يطردن سموم الشيخوخة من دمه وهذا الزنديق لا يفاجئني تبريره ألا يتفق ضمنياً مع ما ورد في التوراة من أن «داود» تنشّق رائحة جسم عذراء جميلة رقدت في سريره مما ساعده على تمديد شيخوخته..!

في ذاك الفوج الهائج.. في تلك الضوضاء المتكهربة.. في وسط تلك المعمعة منفوخة الحناجر التي يقال عنها موسيقى أشعرتني بالدوار.. ولكم شكرت الرب لأنه زهق

روح «بيتهوفن» قبل أن تضاعف موسيقى «ليدي غاغا» صمماً إضافياً له..!

لا أدري.. لم روحي لم تتوافق والفوج..؟!

وجودي هناك كان أشبه بوجود الحمل في بيت الذئب.. فبعد الانتهاء من الحفلة.. جرتني قدماي إلى البيت وأمام المرآة استطالت هيئتي كرجل خائف.. بقيت دقائق صامتاً كتمثال أبي الهول.. أتأمل وجهي الحزين.. ذاك البساط الفضي الذي فرش نفسه على شعيراتي.. تلك المنحدرات التي عصت استقامتها..لأول مرة أشعرتني بأني كبير جداً.. وأني مخدوع بالزمن..!

تلك الفوهة الفارهة لمستها تتمظهر على نحو قابض ومفاجئ تهمس في قيعان روحي: يا هنري.. غدوت مسنًّا.. هيا اذهب واعتن بشيخوختك جيداً..!

ولم أجدني إلا هرعاً إلى فراشي وهناك كأني اختبئ من الغول نمت بكامل ثيابي.. بنبضات قلبي الهلعة.. إنها المرة الأولى في نوعها يكبس عليّ نوم ثقيل مثل هذا.. نوم أمهات متعبات.. نوم فلاحين مرهقين من أرض محروقة بالشمس اعتكفت على ظهورهم .. نوم الدببة في بياتها الشتوي.. نوم لذيذ وشيطاني في آن..!

وحين عمدت شراسة الضوء إلى إيقاظي تلاشى خوف الليل في ضجة النهار.. تخبطت والنعاس يعصر أجفاني أمام المرآة مخاطبة إياها: أنا هنري. هيه.. ما رأيك بي.. ألست شاباً وسيماً يستحق الحياة..؟!

وكأنما ابتسمت المرآة في وجهي وحملتني بلطف عنايتها.. ومذ ذاك اليوم عاهدت على أن تجملني على الدوام حتى أنني خشيت أن تلبسني وجه «نيرسيس»..!

آآآآآآه.. إنني مضمّخ بالطاقة.. بانتعاش الشباب.. بوهج الكون.. سأضيف صوتي إلى صرخات «غوته» على لسان «فاوست»: **قف أيها الزمن، ما أجملك..!**

وعاد إليّ.. ذاك الشقي الكائن في أعماقي يعنّفني طالباً سكاكر مصنوعة من الحب..!

فكرت في اصطحابك إلى احتفال آخر يقام لـ«ليدي غاغا»... ما رأيك يا حبي..؟

15

هنري..

تحدثني عن «ليدي غاغا» وعن الزمن إنهما أمران مثيران حقاً..!

يبدو لي أن هذه الدعوة تليق بـ «مارسيل بروست» هو الجدير بالزمن كله.. لعلها اختصرت زمنه الضائع في حفنة من القول..

إن الزمن عـــدو لمن هو عدو له.. إنه كـ «هتلر» لا ولن يرحم كارهيه.. اسأل اليهود عن «هتلر» واسأل الزمن عن مطارديه..!

الزمن كدفقة ماء.. كخيط منسي انحرف مع الهواء.. كحرارة فستان المنطاد.. كدراجة نارية تقطع دروباً مستعصية.. كامرأة ثكلى تنوح على ابنها الميت في الحرب.. كل ما سبق توليفات عن معنى الزمن.. وفي الزمن سرّ.. أنه لا

ينتظر أحداً.. ولا يدنو منك مرتباً كتفك كأب محب مستدراً عطفه: يا عزيزي.. خذ ما تشاء من وقت يمكنني تعطيل انتظاري كيفما يشأ مزاجك..!

فإما أن تكون مهيّأ له بكل تبرج وافتنان ومرح وجدية.. وإما أن تقف كتمثال حيث أنت وفي يدك منشفة قطنية تمتص حسراتك الهاطلة..!

ولا ندرك متى يضعنا الزمن في حساباته..؟! متى نرى أحلامنا ماثلة أمامنا تمشي وتأكل معنا..؟! متى يسلب منا الحب..؟! متى يجعلنا مجرد شحاذي رغبة..؟! متى يأمرنا بكفى.. ومتى تكون أماً تضمنا بلفيف حنانها..؟!

كل هذا لا يهم.. المهم هو تلك المفارقات التي يضعنا بها الزمن مع الآخرين: حينما تلتقي إنساناً يحمل عدد السنوات التي تحملها أنت.. تواكب عليكما زمن واحد بظروفه وإمكاناته.. بحقائقه وأوهامه.. بخيباته وانتصاراته.. بكل شيء.. استطال شخصه ككائن مهم.. طبيباً عظيماً.. عالماً مخترعاً.. معلماً لتلاميذ جيدين.. بينما أنت مجرد رجل حبلت امرأته منه لا أكثر ولا أقل.. أي شيء كالطحلب..!

إن مثل هذه المفارقات تحطمك.. تفتت ثقتك بنفسك.. تشعرك بأن الزمن احتال عليك.. هذا ما يشعلك..

هذا ما يثير بركان مشاعرك.. أحلامك تغدو أعداء كانت ضدك لا معك..

وحين تلتفت إلى الوراء ستجد أن الزمن مضى.. سار من خلالك.. عبرك كما عبر غيرك.. فهل سيطيق فكرك مزيداً من الجمود.. هل ستظل تمثالاً شمعياً..؟!

سأقول لك: **لا تلوِ رقبتك بالالتفات إلى الوراء..!**

فما مضى لا يورث سوى الحسرة.. ما ذهب لن يُعيد نفسه كغنيمة بل كخيبة.. إن تلك الاحباطات المرزمة كالرعد لن تعيدك طفلاً يرضع من أمه.. لأن الحياة لا تلذّ لها الإقامة في منزل الأمس..!

سأضيف: **اصنع آلة زمنك.. اخضع زمنك الضائع لمصلحة زمنك القادم.. حوّله من مجرد أريكة للاسترخاء إلى منصّة للقفز.. كن أملك..**

أصفق لـ «ماركيز» حكمته عن الحياة حينما قال: «**لا يولد البشر مرة واحدة يوم تلدهم أمهاتهم وحسب، فالحياة ترغمهم على أن ينجبوا أنفسهم**»..

حين تستنفرك هذه المفارقات لملم كل هواياتك.. رغباتك.. أحلام الأعوام الماضية.. مارس بجرأة ما لم تجسر

على تجريبه سالفاً.. إن جمال الأشياء يكمن في النهايات.. هل كنت تحلم بأن تصبح كاتباً أو فناناً تشكيلياً.. عازفاً موسيقياً أو صانعاً للساعات..؟

أرأيت إن مثل هذه الفنون الراقية لا يقتلها الزمن..؟! إنها لا تخشى زحف الزمن..

الموهبة وحدها تهزم غدر الزمن. .

إن من عليه أن يرتعب من الزمن وكأنه وحش يغتاله لا محالة.. هو ذاك الشخص الفارغ الذي يقتات بوهم فحولته.. تلك المرأة التي أغرقت أحلام شبابها كموديل فاتن تعرض على واجهة المخال ومجلات الموضة.. إن على «بيتي بيدج» و«كلوديا شيفر» و«ناعومي كامبل» أن يخفن من طعنات الزمن.. إن على «ميسي» و«زين الدين زيدان» و«أغاسي» أن يهلعوا من ركلات الزمن ..!

أولئك الجاهلون والمخدوعون والسطحيون.. أولئك الذين اجتازوا الحياة دون أن يلحسوها هم وحدهم من تلسعهم عقارب الزمن..!

أوَسقط من ذاكرتك الكاتب الثوري «جاك لندن» الذي كان طفلاً لقيطاً لأب روحاني انتحاري.. فعاملاً أجيراً.. فقرصاناً.. ثم متسولاً.. قبل أن يصبح ثورياً حاملاً الاشتراكية

على كتفيه.. ثم باحثاً عن الذهب.. مراسلاً حربياً.. مليونيراً.. ومكتئباً يحاول الانتحار.. أواااااه كم من حيوات ضجّت في جسد رجل واحد..؟!

أمثالنا يا حبيبي.. الزمن يثري إنسانيتهم.. يشطف أفكارهم على نحو ناصع.. تنضجهم بهدوء.. إن الكتابة هي حليفة الزمن.. تتبلوّر من خلالها حالاتك كلها.. طفولتك.. شبابك.. كهولتك.. إنك تغدو مسناً وأنت ما تزال حاضناً لعبتك كطفل وديع وطفلة في هيئة امرأة عجوز تتذمر على ضعف بصرها وهي تتابع مسلسلاً تركياً من بطولة مهند..!

الزمن هو أن نفعل ما نحبه..

الزمن يملكه أولئك الذين يؤمنون بجمال أحلامهم..

أما بشأن دم الشيخوخة يا حبيبي.. فما ورد في التوراة عن الملك «داود» يتفق مع ما ذهب إليه طبيب ألماني معروف – ابن بلدة ليدن - يدعى «هيرمان بويرهاف» كان مقتنعاً تمام الاقتناع بأن أي مريض قابل للتعافي والشفاء إن عكفت إحدى الفتيات الصغيرات بالنوم في سريره؛ فرائحة أجسادهن كفيلة في اعتقاده بتجديد حيوية المرضى..!

أحبك يا أجمل حلم في حياتي..

والحبّ هو أفضل عملية شدّ وجه..!

16

قابلت هذا الصباح في طريقي إلى العمل جاري القديم.. فحيّاني بمزاج جيد وثغره الذي غدا متوافقاً هو الآخر مع مزاجه الرائق خاطبني: نهارك سعيد يا سيد هنري..

لكنِ مزاجي الذي كان سيئاً 180 درجة قذف حنقه في وجهه قائلاً: دعني وشأني..!

إنني مشدود من قبل أعصابي.. ريمود كونترول في سلطتها.. تحكمني كملك مستبد وأنا عبد لمزاجها المتفجر..!

لا أعرف ما هي الوسيلة الأنسب.. كي أخضعها مثلما يحلو لي..؟!

ليتها كانت شيئاً مادياً يمسك به لكنت سلسلتها بسلسال محكم الإقفال ورميت مفتاحه في فمّ حوت يجوب محيطات شتى..!

أم كأنني كائن يصعب إرضاؤه..؟! ما أحوجني إلى أب

حكيم يضع في يدي كيساً من المسامير..!

كذاك الأب الحكيم في الحكاية الذي قدّم لطفله عصيّ الطباع كيساً من المسامير ناصحاً إياه: يا بني.. خذ هذه المسامير في جعبتك وكلما هاجت بك أعصابك قم بطرق مسمار واحد في سور الحديقة..

في اليوم الأول قام الصبي بطرق سبعة وثلاثين مسماراً في سور الحديقة وظل العدد يتضاعف يوماً بعد آخر ولكن في الأسبوع الذي يليه حين تعلّم الصبي كيف يتحكم في نفحات غضبه طفق عدد المسامير يتضاءل تدريجاً حتى أنه استغنى عن الكيس.. وعندما قفل راجعاً إلى أبيه ليزف له خبر عدم حاجته إلى طرق تلك المسامير.. قال له الأب: الآن.. قم بخلع مسمار واحد عن كل يوم يمرّ عليك دون أن تفقد أعصابك.

مرّت عدةّ أيام.. ولما أنهى الصبي مهمته وقف في حضرة أبيه فقبض على يده وقاده إلى حيث السور ثم قال له: بني.. قد أحسنت التصرف ولكن انظر إلى هذه الثقوب التي خلّفتها في السور لن تعود أبداً كما كانت.. إنها كالكلمات المُرّة التي تلقي بها على الآخرين فتترك فيهم ثقوباً مؤلمة..!

الكلمة كالرصاصة لا يمكن استردادها. . لكن هل نأبه لذلك حقاً. .؟!

حينما أثار أغدو كالثور الأعمى جلّ ما يهمّه هو أن يغسل بدماء غضبه ما يستفزه..!

أنت يا أناييس.. أكثر صلابة في قبض ما يثيرك.. إنك تزنين بروّية أمورك.. أنت ماهرة يا حلوتي.. ربما الآن لو كنت أمامي لخاطبتني برقتك اللامتناهية: كف عن المبالغة يا هنري.. لكن كل صيغ المبالغة بعينها إن امتثلت بثقلها في حضرتك لحركت رأسها بوقار: إنك صادقة حتى اليقين يا أناييس.. ستجدينني ذائباً عندما يقعد هذا العالم في حضرتك معدداً مآثرك..!

لا أدري.. لم يطرأ ببالي «د. رانك».. من الساخر أن أطرح عليه قضية عصيان غضبي فهو حينئذ سيوجهني بنبرة حكيم: اقعد يا هنري.. ودعني أحدثك عن أفعال غضبتك فيك..؟!

وأنا سوف أذعن له ككلب مطيع وأتمدد باسترخاء على كنبته البيضاء التي تفوح منها رائحة الموتى بالذّبحة الجنونية..!

هناك سأمدد ساقيّ الطويلتين وأرخي عضلاتي وأطبق عينيّ بينما صوته النشاز يفسر لي غضبتي: عندما تثور عليك غضبتك يا عزيزي هنري.. فإن دمها يتدفق إلى اليدين ليجعلهما قادرتين بصورة أسهل على قبض شيء كسلاح أو ضرب عدو..

وتتسارع ضربات قلبك.. وتندفع دفقة من الهرمونات خصوصاً «الأدرينالين» فيتولد كم من الطاقة القوية تكفي للقيام بعمل عنيف كخنقي مثلاً في مثل هذه اللحظة.. وربما عنفها ينتقم منك في هيئة جلطة تدوي بالبقية الباقية من حياتك..!

وحينما ينتهي «د. رانك» من فلسفاته العلمية سأخاطبه بجدية: عزيزي رانك.. المطروح على نحو علمي لا يهمني.. ما رأيك بقول «أرسطو»: **أن يغضب أي انسان، فهذا أمر سهل، لكن أن تغضب من الشخص المناسب وفي الوقت المناسب، للهدف المناسب، وبالأسلوب المناسب، فليس هذا بالأمر السهل**»..!

إنني أريد لغضبتي دواء تتحكم من خلاله في هزّ غضبها بموجب نظرية أرسطو.. هل تستطيع أيها البروفيسور «رانك» توفيره لي..؟!

وربما سيرد «د. رانك» حينئذ متحمساً طعني في مشاعره: أيها الكاتب هنري.. إنني لا أقدم لمرضاي عقاقير ملونة تأثيرها أشبه بالسكاكر الضارة على أسنان الأطفال..!

وقبل أن أغادر سأضع أمامه هذه الحقيقة: أرأيت يا «د. رانك».. بداخل كل فرد منا حيوان متوحش يلحق الضرر ويجرح الآخرين ولن تجدي كل عقاقير العالم في إرخاء قبضته الحديدية..!

هناك غضبات مسرّة تلبسك ثوب حكيم كغضبة «برنارد شو» في جوابه على رجل قال له: «**أليس الطباخ أنفع للأمة من الشاعر أو الأديب..؟!**

فرد عليه برنارد شو: الكلاب تعتقد ذلك..!»..

وهنالك غضبات تجعل الغضب يثور من عقاله كرد ملكة فرنسا الساذج على ثائرة شعب طالبِ الخبز: «**ولماذا الثورة إذا لم يجدوا الخبز.. فليأكلوا البسكويت..!**»..

إن مثل هذه الغضبات تهطل أمطاراً من البنزين على نار الغضب لابد منها.. فهي التي توقظنا من سباتنا.. تهزنا بقوة على جانب المظلم في المجتمع بل إن الحيادية في الظلم تجعل الإنسان في منزلة الظالم..!

تلك الآلام.. التشويهات.. الخيبات.. الهزائم.. لا يمكن أن نجسّها في الآخرين من حولنا دون غضب مؤجّج يطالب بالنقيض: العدل.. الحق.. الخير.. الحب..!

مزاجي حانق الآن يا أناييس.. فمن الأفضل أن تتواري عن دكتاتوري الصغير في جنباتي هذا اليوم..!

أحبك.. حتى في حالات الغضب يعرف الحب كيف يغدو ودوداً..؟!

17

"يومية نن"

تقبضني أحياناً فكرة مهولة وهي : ختام حياتي سقطة. . !

استطالت هذه الفكرة في مخيلتي برعب مهول حينما أمعنت في آهات «جان جنيه» في نصه الأثير «راقص حبل» وهو يخاطب الموت في كيان صديقه الجزائري المنتحر «عبدالله» يقف في حضرته ككاهن يعظه عن الموت بشاعرية فائقة: **«إذا كان لعشقك ولمهارتك ولذكائك القوة الكافية أن تكشف قدرات الحبل السرية، إذا كانت حريتك كاملة الدقة ومكشوفة؛ فسيجّن الحبل ليرى قدمك «الملفوفة بالجلد» : لست أنت أول من سيرقص وإنما الحبل ولكن، عندما يكون هذا في كينونته، حبلاً وفي لا حركته يرقص وتكون هذه صورتك القائمة بكل القفزات، فأين تكون أنت؟ إن الموت - هذا الذي أتحدث عنه هنا - ليس هو الموت الذي ينبع من**

سقوطك وإنما هو ذاك الموت الذي يسبق استعراضك..
أنت ميت قبل أن ترتقي الحبل.. إنه الراقص الميت»..!

هكذا أتخيلني دائماً.. أسير بأصابع قدميّ على حبل شبيه بـ «حبل الراقص» رفيع متدل يفصلني ما بين سمائها وأرضها فراغ أشبه بهاوية فاغرة أسنانها البشعة تتريث لحظة اختلال توازني؛ كي تنقض عليّ قضمة حتمية..!

لهذا علي بمهارة وخفة بهلوان أن أعبر دربي إلى الحياة..!

هناك حيث كومة أحلام حائمة في سماواتي لم أقبض عليها بعد.. إلى رغبات بحجم الطفولة والأهم إلى كل مجهول يترصدني في الجهة الأخرى من العالم..!

ذاك المجهول الذي يترصد استقراري ليس موتاً بمعناه التخيلي في كياني بل يتوجس كدرب لولبي يسري بي إلى حيث أجهل..!

إن هذا المجهول يتلاعب بي وأنا عشقت تلاعبه بي على هذا النحو المثير.. ذاك الانتظار المشنوق على فضول مستفزّ.. من الترقب.. من لهفة التمني..!

لعل ذلك مبعثه كوني امرأة تعشق الافتراضات أكثر مما تعشق الحقائق.. تمارس الحياة في دهاليز أحلامها وتقتات

بها بعين رضا أحبّ إليها من أن تكون ماثلة حولها كواقع..!

في امتلاك الأشياء ضجر.. بلادة حد التثاؤب..!

ما يلفت أو يهز كل حاسة من حواسك هو تلك الأشياء التي ليس بمقدورنا امتلاكها.. الأمور التي تناقض توقعاتنا هي وحدها تلبس حياتنا ثوب تشويق..!

أنا من محبي طاردي المجهول.. فالتركيز على أشياء بعينها في الحياة أمر لا يستحق.. إن أروع الأمور هي تلك التي تأتيك مغلفة كهدية ولدت من رحم صدفة لم يكن لك يد في القبض عليها وهي بدورها تزحف إليك وحدك دون غيرك للذة الالتحام بك.. تلك الأشياء المغلّفة بالصدفة هي ما تستحق منا وقفة امتنان طويلة وصلاة شكر..!

فكرة الحياة بدون مجهول يترصدني هي باعث رعب ذاك السقوط المدوي كراقص حبل.. نحن في عداد الموتى قبل استعراض السقوط حين تمضي حياتنا على وجه يتيم..؟!

ثمة صوت ضبابي.. يثقب سكوني كل يوم.. في كل لحظات تأرقي ووجعي يهمس لي بأن أروع الحياة هي تلك الحياة الملغمة.. تلك التي أزيل لغمها بإرادتي.. بيدي.. بعقلي.. بروحي.. بمجموع حواسي.. إنها هنا.. في هذا الشق الغامض.. بلغة الشمس هنا في «القلب»..

«كل منا يحمل في داخلة غرفة».. طالما وافقت «كافكا» في مبتغاه هذا..!

وحين أجيد تأثيث هذه الغرفة التي لا يراها كائن سواي في قدرتي حينئذ المضي بثبات في طريق لولبيّ مدجج بسموم الألغام دون أن يجسر شيء على تفجير خطواتي إلى شظايا معجونة بالخوف والتوجس واليأس ووو......!

إنه عالمنا الروحي.. كما عبّرت عنه الروائية «إيزابيل الليندي» في أحد حواراتها: **«العالم الروحي هو مكان لا يوجد فيه خير وشر.. هو ليس عالم الأسود والأبيض كما يبدو عليه العالم الواقعي.....، في العالم الروحي لا يتوافر سوى العزم.. لا توجد سوى الكينونة وليس ثمة إحساس بالصواب أو الخطأ.. كل شيء يكون فقط نوعاً من طريقة جد ثابتة وساكنة؛ ولأن الأشياء غامضة جداً بذلك المعنى، جد رقيقة وجد غير مركزة فهو مكان آمن..»**

ما رأيك في أن تغدو جوالاً في الأرض. مسافراً. عابر سبيل..؟!

من المدهش حقاً أن يكون لكل منا «camping car»..
فالرب لم يودع الحياة كلها سماء واحدة كما لم يجعل مهبطها

أرضاً واحدة.. إنها تتوالد في أكثر من سماء.. إنها لا تكف عن إنجاب نفسها في أكثر من موطئ قدم..!

ما عدت أخشى السقطات. . !

إنها تجعل المرء يدرك وزنه الحقيقي في الكون.. إنها يا هنري.. تجعل الكاتب - خصوصاً - تركيبة غنية بالمفاعلات الإنسانية.. كم تثريه تلك الثقوب؛ فالمعذبون هم الجديرون بالتعبير عن وجه الحياة الدامي.. إن صرخات حناجرهم لا تدّعي مطلقاً.. أنهم أشد خصوم الافتراء.. صادقون حد الوجع.. حد آلام الإنسانية كلها..!

يحتاج الكاتب إلى الخوف كحاجته إلى الأمن.. يحتاج إلى أن يسلخ جلده مشرط الألم كحاجته إلى فرح طويل الأمد.. فالكتابة الجادة.. الكتابة المتناغمة مع أوجاع الوجود.. السابرة في أعطافها لا يخوض في عمقها سوى جسد صلّبه تاريخ الألم.. قلب متعفّن بدم الحياة وعقل متخم بغصّة واقع مرّ كنبتة سامة...!

وهذا يشبه ما قاله «ديستيوفسكي» يوماً ما كردّ على كاتب شاب جاء يسأله: «**كيف يصبح المرء كاتباً كبيراً. . ؟ فأجابه : أن يتعذب، أن يتعذب، أن يتعذب . .**» كرّرها ثلاث مرّات. وهذا يشبه ما قاله الشاعر مرهف الحس «ريلكه»:

«ينبغي أن تموت ألف مرّة لكي تكتب حرفاً واحداً»..!

وحده الإنسان المتألم هو وجه الحقيقة..!

هو جسد منفوخ بالطاقات.. طاقة البوح.. طاقة الغضب.. طاقة القهر.. طاقة التحدي.. طاقة الحرية.. طاقة الرغبة والحق في الحياة حتى آخر قطرة..!

إنه نزيل في نزل الحياة يقلّبه الألم من وجع إلى آخر.. من قدر إلى آخر.. روحه هي تراكمات أمكنة.. أزمنة.. تجارب.. انفعالات.. وذاكرة تلدغ كعقارب الساعة..!

إن اليد التي كسرها الألم هي يد تجيد كسر تاريخ الظلم بقلمها..!

فالسقطات التي يجابها المرء وحدها قادرة على إذابة أقنعة الكذب والنفاق والغدر.. فكيف إذن لمن يحمل قلماً هو سيفه الوحيد الذي يشهره في قلب الشرّ..؟!

وهي وحدها تشحننا بقوة الأشياء.. بمدى فاعليتها.. بأهمية صونها بكل ما نملك من عزيمة لئلا نراكم مزيداً من الخسارات..!

ألم يقل «كامو» في السقطة: «كنت في بعض الأحيان أتظاهر بأخذ الحياة مأخذاً جدياً، لكن الحماقة الكامنة في

تلك الجدية كانت سرعان ما تصيبني، فأمضي في لعب دوري قدر استطاعتي..»

عندما تسقط تعرّف بشخصك الكائن فيك.. أي «نعامة» أم «أسد» هو أنت..؟!

ما أكثر العباقرة الذين أنجبتهم معاناتهم عبر التاريخ: «بيتهوفن» الذي عانى داء الصمم.. الشاعر «ميلتون» الذي أخرج من صميمه أعظم قصائده وهو أعمى.. «شوبان» قذفوا به في مصح للمجانين دونما وعي بعبقريته.. «باخ» استعملوا نوطاته الموسيقية كأوراق مهملات يلفون بها بضاعة البقالين.. «بلزاك» الذي كان يعاني شروداً دائماً وقد مات بالذبحة الصدرية.. «رامبو» الشاعر الملعون الذي انتقل من التمرد إلى الإيمان.. «بودلير» الذي كان فتيلاً من العصبية والقلق.. «سقراط» الذي هلك على يد فكره..!

إذا كان «دانيال سترن» يرى: «أن آلام الآخرين هي لغتنا الثانية» فإنني أضيف بإيمان مطلق: آلام الكاتب هي لغته الأولى إذن..!

ففي حال الألم لا يكتب الكاتب هزائمه بل حرقته وتمرده عليها.. إن اعترافه الضمني في نفسه والمذيع بين الناس في هيئة نص أدبي هو موقف يحسد عليه لجسارته..!

«تعال لينتحر الجسد في الجسد.. تعال وابحث عن اغترابك في اغترابي، تعال لننثر الورد على الحبل ونعلقه على الطريق.. تعال لنجد الحبل، الوطن، الوطن، الحبل ما تبقى منك، مني ولنموء ونيء ذاكرة الراقص»..

تعـــال يا حبيبي.. بلغة «جان جنيه» فطريقانا حبل راقص مزهـر بفصول عشقنا.. أجل.. أجل سوف أقرّ بامتناني بثقل السقطات التي استوطنت قامة روحي النحيلة.. فهي التي قادتني إلى حبك الكبير.. الممتد.. الأكثر عمقاً يا وطن قلبي..

مزيداً من السقطات إذن كي أمعن في نعمة حبك الثمين كتراب وطن..!

18

الحياة حفلة تنكرية..!

إنني أميل إلى الحفلات التنكرية وأحب أن أكون أول مرتاديها.. إنها تجربة جديرة بالاهتمام يا أناييس.. فأي متعة وأنت تتحركين بين قوالب بشرية تغطي قبحها بأقنعة تفوقها جمالاً فالأقنعة التي تعلو وجوههم.. تخفيها.. هي الجانب الأكثر صدقاً فيهم.. والمتعة الأشد.. فتلك التقاطيع المتوارية خلف قناع هي بذاتها وسيلتهم الوحيدة - الشاخصة عن سذاجة وغباوة - لحقائقهم..!

ثمة وجوه تبقى ثابتة منذ ولادتها إلى وفاتها قانعة بتوحدها كزهرة تلد في قمة جبل وحيد.. وثمة وجوه متوالدة.. لها في كل موسم وجه تعجنه الظروف والمقامات.. إنهم أشبه بصرعات الموضة التي لا تكتفي بموسم متوحد لتعبر عن نفسها حتى يوقنك شعور أن وجوههم دائمة

الاتساخ.. يعوزها دعك مستمر.. كي تخفي حقيقتها الضائعة أبداً بدأب غريب..!

رواية «الدكتور جيكل ومستر هايد «لـ» ر. ل. ستيفنسون».. ما أبرع ما عبرت عن هذا المعنى الكامن لقوى الخير والشر.. إن المحلول الذي ابتكره الدكتور جيكل للتحول البشري هو أكبر حقيقة على تحول النفس الإنسانية..!

فعلى مدى تلك القرون والبشرية في تحول دائم.. إنهم مع التغيير ضد الثوابت.. فلا يوجد كائن ينفخ رئتيه هواء ثابتاً كعمود إنارة في شارع وحيد.. كلنا متبدلون.. مفرطو الحساسية تجاه حمم الكون الساقط علينا.. فالحياة أتقنت فن صلصلة الإنسان ليغدو كائناً متغيراً تتراكم عليه متغيرات شتى تحييه مرة وتغتاله عشرات المرات..!

وما بين الحياة والموت نجد مترصدي التغيير.. مفهومي الخير والشر.. إنهمـــا في صراع أبدي منذ خطيئة آدم وحواء..!

في التغيير تكمن الخطورة فأنت لا تدري كيف ينفعل داخلك مع التغيير.. كيف يلتصق بك.. بأشخاصك.. بأشيائك.. بزمنك.. بنظرتك الشاملة إلى الحياة..؟!

ثمة صنف من البشر يحولهم التغيير إلى كائنات شرسة؛ لهول شراسة الحجارة التي قذفت على أرواحهم حتى اعتادوها..!

وثمة آخرون يستهويهم التغيير نحو الخير.. إذن التغيير قد يصنع منك إنساناً خيراً أم شريراً أو يشكلّك على هيئة نقائض متضافرة.. وغالباً ما يُصلّب المرء على نقيضين تقبضه حسب حالته الفسيولوجية الكامنة فيه: ما بين صالح وطالح بمعنى مزدوج «طافل»..!

الإنسان ليس بكائن حيادي بل هو ممزّق ما بين فضائل الخير والشر..!

والكثير منهم يتماهى كمتمرد في فصاميته وهم أولئك - الفصاميون - كائنات بشرية تتغلب عليهم المسكنة.. الذين يتمرسون بحذاقة - غير واعية - الشر.. يقترفون إثم الخطيئة.. يثقبون قلوب الآخرين بسهام أذاهم دون أن تتمظهر في أنفسهم آثار الجريمة كالذين يرتكبون فعلتهم الشائنة ومن ثم يصطفون في الجنازة لاستقبال المعزين على روح المغدور بها وكأن شيئاً لم يحدث..!

ألم تقولي يوماً إن: «السرياليون هم الوحيدون (في الفن) الذين آمنوا أننا لسنا ذوي بعد واحد وحيد، وأن السبيل

الأوحد إلى تجاوز التناقضات في الحياة هو أن نسمح لأنفسنا أن نعيش في حالة متعددة الجوانب» . . !

إننا قوالب من التناقضات نردم الشرّ بجرافة الخير وفي الوقت ذاته في خفايا أنفسنا نعبد الشيطان حينما يدلّل رغباتنا الخفية.. بينما يغدو الخير هنا في موقف كهذا بالتحديد الشبيه بذاك الواعظ الذي يسبب لنا صداعاً شديداً..!

وحده المتحرر من الوهم يدرك أن الخير والشرّ يتآخيان غالباً في النفس الإنسانية.. يموت غوله عندما يعترف بأن تعصّبه نفسه لم يكن إلا التنكــر لعقل تخلّص من كل وهم..!

نحن مع الشرّ على الخير . . !

معظم ممارساتنا في الحياة هي شرور لكنها شرور خفية منقبّة بواجهة الخير.. فحين نحدق إلى الخير وهو متربع على عرش أحدهم.. الشيطان في خفايانا السحيقة يسخط عليه من باب الحسد وربما من باب التمني بخير مماثل..! ولكن إذا ما كنا نحن مالكي هذا الخير لحاربنا بكل ما نملك من نزعة الشر تلك النفوس الضيقة على خيراتنا بحجة المناكفة عن حقنا في الخير..!

ليس أبعد مما قاله الروائي «سلمان رشدي» في روايته

«أطفال منتصف الليل»: «إنه العصر الأسوأ، العصر الذي يكسب فيه المرء قيمته مما يملك وتكون الثروة فيه بمرتبة موازية للفضيلة، وتغدو الشهوة هي الرابطة الوحيدة بين النساء والرجال، ويأتي الزيف والخداع بالنجاح، فهل تعجب، في زمن كهذا، إن كنت في غاية الحيرة والاضطراب في ما يتعلق بالخير والشر..؟»..

في مسرحيات «شكسبير» نجد الشر والخير يتناكفان معاً.. فإذا كانت «هاملت» هي مأساة رجل أخلاقي في مجتمع لا أخلاقي.. فإن «مكبث» هي مأساة رجل غير أخلاقي في عالم أخلاقي لابد للشر فيه أن يلقى جزاءه.. بينما في «ريتشارد الثالث» يجد في الشر متعة وهواية..!

ثمة ذئبان يتصارعان في قلب كل إنسان يا أناييس..

الأول هو الحب والثاني هو الكراهية.. الحب يقابل الخير والكراهية هي الشر..!

أيهما ينتصر..؟!

الذي يغذى أكثر..!

19

"يومية ننّ"

إن فعل القراءة يستوجب الصمت التام.. الهدوء الكلي.. فديدان القراءة مفرطو الحساسية.. فليس من الغريب مطلقا أن تنبّه دبيب نملة على البلاط سكونهم أو تُعكّر ارتطام إبرة على جبهة الأرض نفسهم القرائي..!

لكن التساؤل الجدلي: هل الكتابة فعل يعوزه الهدوء..؟!

هل ينبغي للكاتب في حال الكتابة أن تقبضه حالة من الطوارئ.. يعتزل العالم في قبوٍ أصم أبكم..؟!

هل تلزمه عزلة كعزلة «مارسيل بروست» الذي صنع لنفسه غرفة من الفلّين ووقع اختياره على الفلّين بالتحديد.. كي يقضي على كل صوت يتلصص على هدوئه المقدس من الخارج.. كي لا يتناهى إليه وقع أي ضجة.. كي ينعزل نهائياً عن الكائن الذي يصنع العبث ويعيش فيه: الكائن البشري..؟!

هل حقاً ينبغي أن نشيّد جدراناً تلعب دور الحامي من الخارج ؟!

تفرغ حدودنا الكتابية عن الجلبة.. الضوضاء.. الأصوات.. الصراخ.. وقع الأقدام.. لعلعة الرصاص.. دوي الهتاف.. بكاء طفل.. مواء قطة.. جريان ماء... إذا ما كانت هذه الأمور هي الحياة بعينها.. فأي حياة ينشدها كاتب صنع لنفسه تابوتاً ونام فيه مترقباً إلهام الحياة..؟!

عندما أثيرت قضية سرقة مخ «اينشتاين» اكتشف العلماء من خلال إجراء الفحوصات على مخه الذي كان طوال أعوام انتشاله من رأسه مغموساً في عبوة مايونيز إلى أن الخلايا الغروية لدى «اينشتاين» يتضاعف عددها عن مخ إنسان عادي وقد تم إجراء بحث على الجرذان لاختبار الخلايا الغروية والعصبية ومدى قدرتهما على التنامي والتزايد.. فلوحظ إلى أن الجرذان التي تحيا في وسط غني تتضاعف لديها الخلايا الغروية على نقيض الجرذ الذي يهمّش في بيئة وحيدة..!

أي إن الأفكار المبتكرة قادرة على التطور من خلال اندماج الإنسان في بيئات خصبة كثيفة بالتفاصيل الحياتية و«اينشتاين» الشاب اهتدى إلى نظريته النسبية لأنه كان يواكب

الضوء ويلاحقها أينما حلّ.. وكان أقرب إلى طفل صغير يجنح بخيالاته المفرطة على ظهر شعلة ضوئية تسبق الريح في مضمار الكون.. لهذا أكّد بأن: «الخيال أهم من المعرفة»..

الكتابة ضد العزلة. . والعزلة ما هي إلا تقليد اجماعي فطري متوارث سار عليه الجميع مخدوعين. . !

في مسرحية «يوليوس هاي» التي انتقى لها اسم «الحصان» عن «كاليغولا» يرد مقطع وهو يصف نوعاً خاصاً من الوحدة عند «كاليغولا» : **«العزلة، أتعرف العزلة. .؟ هل هي عزلة الشعراء والعاجزين، العزلة ولكن أي عزلة. .؟! أنت لا تعرف أن المرء لا يمكن أن يكون في عزلة أبداً، وأننا أينما حللنا يلاحقنا ثقل المستقبل وثقل الماضي. . . . . . . ، آه من هذه الوحدة التي يسممها وجود الآخرين ليتني على الأقل أستطيع أن أتذوق طعم الوحدة الحقيقية، الهدوء وحفيف الشجر. . !»**. .

فالخارج.. كل ما في الخارج هو جزء من مادة كتابة والجزء الآخر ما تفرزه أعماقنا من طحالب الوجود.. إننا نسجل في عقولنا أضعاف ما ننقله على ورق.. وعقولنا تلك وهي تنتج سيناريوهات أفكارها تفرزها في معمعة الضجة.. في صميم الفوضى العارمة الملّمة بنا.. كل ما في الحياة هو

مشروع رواية.. ومضات قصصية.. نص شعري معجّن بالإنسانية.. مسرح.. تراجيديا.. كوميديا... فهل عقولنا كفّت عن كتابة أفكارها في ضوضاء الحياة..؟!

الكتابة ليست «شارلي شابلن» الذي يضحك.. يبكي العالم في صمت تام للحواس.. بل «شارلي شابلن» هنا هو فعل قرائي بامتياز.. لأن المشاهد يوظّف حواسه كافة.. سمعه وبصره وصوته كي يكتمل «شارلي شابلن» في مشهد كلي..!

العزلة في الكتابة تجافي الواقع.. لأن أكثر الأوقات التي تشتعل فيها سطور الكتابة بحريق الكلمات.. هي تلك التي يلهبها حزن في خيبات كاتب والحزن أكثر الانفعالات تعبيرا عن الضجّة..!

نفرّ من الخارج إلى الداخل..!

وفي دواخلنا امتداد آخر لوجه الضوضاء والضجيج والصراخ.. والصخب بكل مكملاته هو البيئة الحقيقية لحقل الكتابة عدا ذلك ما هي إلا إعادة تجميل الكلمات باستخدام الممحاة..!

الكاتب ليس إنساناً معطوب الحواس تعوزه ظروف معقّمة..

تقفيص الحواس في غرفة صغيرة وبعض كتب وشاشة حاسوب لا تصنع وحدها أدباً جيداً..!

ماذا عن قصاصات السجناء والمعدمين.. كتابات المقاهي والأرصفة.. وعن يد تكتب في وحشية الحروب وويلاتها بينما اليد الأخرى تحمل كلاشنكوفاً تقتل الحرب.. أليس هذا تجسيداً للفعل والفاعل في كيان واحد..؟!

الكتابة هي من أكثر الفنون تعبيراً عن إنسانية الإنسان.. إنها الارتحال إلى المجهول.. إلى سراديب المغامرة.. إلى مكامن الضّجة واكتشافها رويداً رويداً.. إنها مصفاة ولا يمكن لها أن تسحب التلوث من جوف العالم دون أن تتلوث.. دون أن يتسرب إلى جوفها تلك القاذورات فتصفّيها بمكنسة الكلمات..!

إن المرء موجود مع الآخرين أكثر مما هو موجود مع نفسه؛ إذن الكتابة هي فعل مشاركة كما هي فعل حوار.. والكاتب الذي تخلو تفاصيل حياته من الأصوات لن يردد سوى صوت نفسه كببغاء..!

الكتابة فعل فضول.. تدفعك إلى رفع كل الحجارة التي تتخبط بها في الطريق.. لتعرف ما تحت كل حجر.. عقارب سامة.. ديدان.. غيلان... دون أن تساهم أي مخاطرة مهما

بلغت شدّتها في تعطيل فضولك عن الكف..

إنها فعل إنصات.. والذين لا يجيدون الإنصات لابد أن آذانهم بها علة من العلل العويصة.. أشبه بذاك التلميذ الذي فاته فهم الصمت حين كان يسير برفقة أستاذه في إحدى البقاع الصحراوية في أفريقيا.. ولما ألقى الظلام عليهما تحية المساء ساحباً معه حتى آخر قطرة من ضوء النهار.. نصب كلاهما خيمة تساند تعبهما حتى الصباح.. هنا خاطب التلميذ أستاذه: «يا لهذا الصمت»..!

رد عليه الأستاذ قائلاً: «لا تقل ذلك.. ولكن قل: لا أستطيع الإنصات إلى الطبيعة»..

فإن كنت من أولئك الذين يستخدمون فرجاراً لرسم دائرة ومسطرة لرسم مربع، سوف تظل عبد نمطك أبداً وتمر عبرك أنماط الآخرين وأنت مجرد شحاذ متفرّج..!

بل إن مع أساليب التواصل الحديثة تبلورت عزلة الكاتب الذي كان يعتزل في برج عاجي فارضاً حدوداً بينه وبين الآخرين والدنو منهم أمنية تكاد تغدو مستحيلة.. ولكن مع «تقنيات التواصل المبتكرة «الفيس بوك» و«التويتر» ومدونات الكتابة غدت العزلة تقليداً عتيقاً وحطمت أنماط الحواجز الوهمية بين الكاتب وقرائه وغدت العملية التواصلية

أكثر ثراء وأعمق في تبادل الأفكار.. هذا يؤكد تفجر عصر جديد يدعى «عصر القارئ» وعصر «التكنولوجيا» التي لها الفضل في القضاء على مفهوم العزلة العتيقة..!

إنني لا أستطيع تخيّل كتابة خالية من شوائب الضجيج.. من عنف الحياة.. من جبروتها.. من خيباتها.. من الرقص.. من الغناء.. من الألوان.. من النحت.. من البكاء.. من الهستيريا.. من الرعب.. من الطمأنينة والقهقهة والسكون.. من أنا وآخرين..!

بل الكتابة هي فعل حبّ لا يمكن أن يمارس دون عنف..!

20

اعترف «يوكيو ميشيما» يوماً: **«أريد أن أجعل من حياتي قصيدة»..!**

من يطالع روايات هذا الرجل الذي صاغ حياته على شكل قصيدة مغناة - وسط حشد من البشر ستظل تتوارث تاريخه الشخصي عبر أجيال مديدة - سيشعر دونما شك بعسر الهضم ولن تفلح المشروبات الغازية على أصنافها في التخفيف من حدة فوران تفعيلاته المعوية..!

رواياته تدفع فضولي للتلصص على حياته الشخصية.. كيف كان «يوكيو ميشيما» رجلاً عادياً.. زوجاً.. أباً وكاتباً كل هذا وأكثر..!

المرأة في رواياته قنبلة مشتعلة.. حتى في حالات الشبق تكون المرأة هي الشيطان التي تغري الرجل وتقتحم عالمه البريء..!

سرد عن المرأة في «حبه المحرم»: «تحيا المرأة أينما كان، وتحكم كالليل، فطبيعتها تتجسد في أوجه الخسة والحقارة، وهي تجر القيم كلها إلى وادي سقط المشاعر، فهي تعجز تماماً عن استيعاب العقائد، قد تستوعب صفة المفهوم أو نسبه إلى الأشياء، لكن المفهوم في ذاته يعجز تماماً عن سبر أغواره، ونظراً لقلة أصالتها، تعجز حتى عن استيعاب ما يجري، كل ما تستطيع اكتشافه هو الرائحة، إنها تشتم الرائحة عن بعد ألف ميل، لذلك جاء العطر، هذا الاختراع الذكوري، ليحسن حاسة الشم لدى المرأة وتمكن بفضله الرجل من الهروب من المرأة»..

وفي موضع آخر يضيف: «إن سحر المرأة الجنسي وغرائزها المغناجة وجميع قوى جاذبيتها الجنسية، تعتبر خير دليل على عدم فائدتها، فما هو مفيد لن يحتاج إلى الغنج، ويا لها من مضعية للوقت أن يصير الرجل على انجذابه إلى المرأة..! ويا للعار الذي يلحق بقوى الرجل الروحية..! لا تعرف المرأة ما معنى الروح..»..!

إن عباراته في نعت المرأة أشبه بضربات هراوة على هامة كل أنثى..!

فهو يقوم بتجريدهن كلياً من الروح.. ما من شك

نظرات «ميشيما» إلى المرأة في حبه المحرم وبعض من رواياته هي نظرات راهب يرى أن المرأة كائن مخلوق من الرذيلة.. لهذا وجب النأي عن دروبها كلياً..!

«ميشيما» في روايته هذه تحديداً يقدم لنا عرضاً عن نظرات بعض الرجال إلى المرأة في كل مجتمع.. فالرجل لا يمكن أن ينعت المرأة بأوصاف دنيئة وجارحة على نحو كثيف قدحاً بإنسانيتها إلا لضعف في إنسانيته.. لنقص في كيانه الرجولي.. ففي بعض الحالات يطارد عقيلة الرجل هاجس شيطاني.. بأن المرأة تلك التي تكون رفيقته في الحياة تتمتع بفضائل تفوقه على عدة صعد.. لهذا يجنح إلى نعتها بأوصاف يقلل من شأنها الأنثوي..!

ومن جانب آخر نجد الرجل نقيضاً آخر في المجتمع الرجل «الشاذ» الذي يهمي كحيوان خلف أهوائه بجسارة تدفعها فتنة مخيفة والشذوذية هنا سلوك يبرئه الرجل في داخله بناء على «أرسطوفان» الذي كان يؤمن أن الرجال المحظوظين حقاً ليسوا ممن يبحثون عن نصفهم الأنثوي الضائع بل أولئك الذين يبحثون عن الرجال وهم تدفعهم دوافعهم الجنسية إلى أعضاء من جنسهم نفسه، فهؤلاء لديهم كما زعم «أعظم تكوين رجولي»..!

لكن رجال اليوم يحملون شذوذهم ورغباتهم المخالفة للطبيعة على الجنس اللطيف؛ ليجعلوا من الأنثى مسبباً أساسياً لسلوكهم الشائن.. فهي في دخيلتهم كما يتصورونها نقيصة ولا يمكن أن ترضي فحولتهم الشبقة.. لهذا يكتفون بأنفسهم عنها كنوع من التقديس.. فيغدو الذكر كاملاً والأنثى هي النقص..!

الذكورة مسكونة بهواجس نبل جنسه.. ألم يذهب معظم فلاسفة الحكمة إلى أن النساء جنس خلقن من أنفس الرجال الشريرة ومن أنفس غير العقلاء..! ونغمة تفوق الجنس الذكوري متفاقمة مذ ظهور «باندورا» التي حمّلها التاريخ الذكوري خطايا العالم وشروره.. على اعتقاد أن أول انحطاط للجنس البشري مرتبط بظهور المرأة؛ فالرجال طبقاً لرواية «هزيود» - الشاعر اليوناني - عاشوا على الأرض فترة أحراراً فارغين من مغبة المرض والتعب والجهد ثم ظهرت «باندورا» ويعنى بها «حواء» في الأساطير اليونانية حيث خلقها إله الحدادة الشائه الأعرج «هيفاستوس» وحتى تكتمل أنوثتها منحتها «أفروديت» بعضاً من جمالها وشيئاً من رشاقتها وعلمتها «أثينا» الأعمال المنزلية وغزل الصوف هكذا جاء اكتمالها بعدما حصلت على كل الهبات وتزوجها «أبيمتوس» المتهور والعجول -كما ذهب اليونانيون القدماء-

ولكن رغم شرها المغبون وسوء الطالع جسوا أهمية دورها الكبير في الإنجاب وأعمال المنزل وهذا ما جعل «هزيود» ينصح الفلاح أن يحصل أولاً على المنزل ثم على المرأة ثم على الثور الذي يحرث الأرض..!

«المرأة لا تجلب إلى العالم إلا الأطفال، الرجل إلى جانب الأطفال قادر على أن يكون أباً لكل شيء، فالخلق والتكاثر والتوالد تندرج كلها ضمن قدرات الرجل أما حمل المرأة فليس سوى جزء من عملية تربية الطفل» كما يقولها «ميشيما» في حبه المحرم..

«يوكيو ميشيما» في رواياته صوّر عداوة الرجل للمرأة على المستوى النفسي بالدرجة الأولى.. فرجاله مرضى بالنقص والفحولة الزائفة والرغبة في الانعتاق عن الذات والهرب منها بطرق غير سوية وهذا هو انتقامه من المرأة..!

إن خوف رجله من الأنثى هو خوف لا شعوري.. فالرمزية في المرأة هي التي تقضي عليه وعلى ذكورته الخالدة بذاتها كما يعتقد..!

ولا يمكن تبرئة ساحة المرأة؛ فالأنثى كالرجل في إحساسها بأنوثتها.. والمرأة لا تُسقط الرجل من وجودها الأنثوي سوى حينما تهان على يد الرجل وتُحتقر.. يغدو

الرجل في وضع كهذا عدوّها الأوحد.. فتلغي ذكورته من خلال الاكتفاء بذاتها عن طريق سلوكيات شاذة.. أو تعكف على الانتقام من خلال التلذذ بتعذيب كل رجل تخلي له مكانة في بلاطها الشخصي.. وهو الهاجس عينه يتردد في كيان كل رجل يستعذب كل أنثى اتخذته دمية للتلهي ..!

بينما خوف المرأة من الرجل في مثل هذا الموقف هو خوف شعوري؛ ولأنه شعوري فهي على نقيضه يمكن أن تبرأ – بلا عقد - برجل نقي يسحب من قلبها أوجاَع الماضي الشائك بحب مخلص يكون هذا الإخلاص فعل تخليص لها من طعنة الغادر دون أن تسقط فعله الخائن من ذاكرة نسيانها..!

لكن التركيبة الذكورية لا تضحي بثقتها بسهولة وتضعها في قلب المرأة؛ فآثار التحطيم تأخذ وقتاً طويلاً كي تجد طريقها إلى التبرئة في محكمته الخاصة.. هذا إن لم تنحرف إلى تهويمات أخرى تتغذى بماضيه عن جنس النساء..!

ولشك الرجل حجة كما أشرنا لكونه يحيا في مجتمع ضخ فيه المثاليات حتى انتفخ.. فهو القوّام.. القوي.. الشهم.. المتمتع بالكمال في شؤون كثيرة على نقيض المرأة.. فهي كيان مرسوم من قبل المجتمع الذي يراها كائناً ضعيفاً في

ذاتها.. مهزومة.. عبوّة ناسفة قابلة للانفجار.. وهنا يجلس الكبرياء على عرشه في عقل الرجل فغروره الداخلي الموهوم فيه يرفض الخضوع لكائن أضعف منه وفوق هذا مخلوقة من مادة شريرة كما أذعن أقدم فلاسفة التاريخ..!

وصفة الانتقام هنا تنشأ بين الجنسين حينما تنهار القيم وتخلو حياتهما من المبادئ.. انهيار الثقة هو النافذة التي تشرع من بعدها كل أبواب الشرّ بين الطرفين..!

بينما انتقام الرجل من المرأة وانتقام المرأة من الرجل هو انتقام ذاتي.. فالمردود ينقلب عليهما كالذي يحفر حفرة لغيره فتوقع صاحب الحيلة..!

أي تختلي فيهما صفتان تتلاعبان بهما في آن واحد: السادية والماسوشية كما القوس والسهم..!

هذه القواعد غير قابلة للتعميم بل ينتهجها شرذمة من البشر من رجال و نساء.. أولئك الذين ضيّقوا أهدافهم في الحياة على كيانهم الآخر. سذاجتهم حوّرت عقولهم على فكرة فقدان ما يرغبون فيه يساوي فقدان كل شيء رغم أن الحياة من حولهم ما تزال تغريهم بمزيد من عروض.. فالفرص سانحة ولكنها تعتمد اعتماداً كلياً على كفاءة المرء في تعاطيها..!

الرغبة في الآخر لا يعني التوحد معه في كل شيء. . !

المأساة تكمن حين نضيع في الآخر وننسى أنفسنا.. للآخر شخصه وكيانه.. أحلامه وأشياؤه في الحياة.. وحينما يعي كلاهما مسافة التوازن القائمة بينهما.. بالتكامل مع الآخر دون الاستيلاء عليه كلياً بأحلامه وكيانه.. بشخصه وأشيائه واحترام كيانه المستقل فسوف تسير الحياة على رحابة تريح الطرفين..

وحين نعي هذه الحقيقة ففي حال الخسران لن تتهاوى كل الخسائر دفعة واحدة بل تظل ثمة أشياء صامدة.. تلك التي اعتادتنا وحدنا ولم يشاطرنا فيها الآخر.. فلا مشكل لها في اعتياد صدمة غيابه المفاجئ.. فاعلة في شأنها كما هي سواء غاب أم سجل حضوره ككيان مستقل..

وهنا تبقى لنا أشياؤنا التي نحب.. التي كافحنا من أجلها طوال تلك السنوات العجاف..!

القاعدة ببساطة: اعرف كيف تكون نفسك وكيف تكون الآخر في المقام الملائم.. بهذا يتحقق التوحد المتوازن..

حكمة الحبّ هي : أن أعرف كيف أصير أنت وأعود إلى أنا. . !

من مدونة هنري ميللر: رجل أناني مرغوب فيه..!

(2)

شيطانيّ..

أنثى تناوشني.. أنثى كن بنات جنسها معبودات في وحشيتي.. أحركهن.. أحرقهن.. أعذبهن... أنثر في وجهن حنقي وجنوني وهمجيتي بلا أدنى طرف.. تهيل علي بجسارة لتهمد مساحات الرجولة في داخلي المنيع..!

تلبّسني مس دنيء.. تغبّش الشيطان في حدودي كلها.. كل دناءاتي الوضيعة.. كل حقارتي.. خستي.. أشهرتها لإذلالك ولم يبق في الكون كله مطمح يحركني إلا إياك..!

غضب غضب.. ثرت في جوفي.. تمددت كسنديانة شوكية تبرعمت بحقد في حصوني المنيعة عن الألم والجرح.. فأنا الذي كنت أخلط الآه.. أعجنه من أفواه الآخرين وأستلذ بحفاوة خارقة وكأنني في احتفال كرنفالي حين تختلط آهات متداعية من حناجر مستها ساديتي بحقارة حافلة دون أن يرمش قلبي ســـوى مزيد من الاشتعال بفرقعات اللذة.

ومذ تملكني إحساسي الماجن وأنا أدير هذا العقل ولأول مرة أشغّل محركه.. لا أدري متى آخر مرة خضع عقلي لتفكير ما..؟! هذا العقل الذي أراه نكتة فارغة.. لا أدري ربما حين كنت تلميذاً صغيراً..؟! ذاك الطفل مفرط الدلال الذي سرق إجابة زميله الذكي وأطلقها كإعلان من فمه وكأنها تخصه وكأنه هو من فك شيفرة طلاسمها لا زميله الحاذق مهلهل الثياب القابع بتكوينه الضئيل إلى جانب مقعده.. وكنت أعلم جيداً أن المعلم الذي كان يرتدي ملابس أبي الداخلية سينهق كحمار على زميلي الذي سرقت منه أنا جهده بعد ما سكبت تهمتي عليه.. ينهره أمامي وقهقهاتي تحاصره.. يكيل له بالشتائم البذيئة وأنا أفضفض حجم حذاقتي في قوة السلب..!

كانت تلك أول مهارة لي لتحريك عقلي البليد وأعجبتني أيما إعجاب ومذ ذاك التفكير ولجت عوالم أكبر.. أن تسلب الآخرين جهودهم وتضيفها إلى قائمة إنجازاتك ثم تبصق في وجوههم المجعدة من الفقر؛ لأنهم يدركون جيداً أن أي نأمة تصدر من أنفاسهم لن تجديهم سوى دفعات من الخسران والذل وربما تعدم كينونتهم عن الوجود.

نعم كنت مافيا.. ولطالما أغرتني منظومتهم المحرمة

عن القنص.. تلك الوحشية اللذيذة في التهريج.. في هرس البشرية من ثم تعليبها كحشرات لا تصلح لشيء عوضاً عن كونها عاهة بذاتها تفتك على يد المجتمع بجرعات..!

وكنت أعلم أنك ستكلفينني كثيراً.. لأن تلك الكلفة التي كنت سأشهر تعبها من أجلك وجدت راحة لذتها فيه..

فأضحيت أنتِ كل ثوانيّ.. دقائقي.. ساعاتي.. أيامي.. سنواتي.. الأولى.. الثانية.. الثالثة.. كنتِ وكنتِ.... فكرة مارقة استعذبت عضلة عقلي الجاحد..

ثم قفز صمودك.. ذاك الصمود الذي بعثرني.. شطرني أقساماً كالمرايا المهشمة وعوضاً عن عقابك صرت أحاصر نفسي بعقاب لم أعرف نهايته.. لكنني عرفت جيداً أي أسر وقعت فيه بل فداحته..!

يتبع...

21

طوال أعوامي يا هنري.. ووجهي أشبه بقطعة صلصال في أيدي المصورين والنحاتين.. تلك الأشعة التي اخترقتني آلاف المرات.. لتغدو تقاطيعي حكاية فم كل عدسة.. أصبحت نجمة «نادي الموديل» وطبعت صوري على أغلفة المجلدات التي نافست احتكار رأسي وغدوت موضوعاً للوحات الرسم والبطاقات الفنية والتماثيل والألوان المائية.. وجهاً منحوتاً يتملاّه الزائرون في المعارض.

لكنني اليوم سوف احكي لك عن وجه فتاة صغيرة في صورة واحدة فقط.. مفردة.. تجس سيرة تاريخ شعب بأسمه..!

المصور الأميركي «ستيف ماكوري» عزم في يوم ما أن يحط رحاله فِي أرض الباكستان خلال عام 1984م وما من رفيق سوى عدسة مصورة.. وفي نيّة تلك العدسة التقاط صور حية تنبض بمعاناة التشرد والتنكيل وويلات الحروب وخلال الرحلة صادف في أحد مخيمات اللاجئين الأفغان

فتاة في عامها الثالث عشر وحيدة بعد أن قتل السوفيت أبويها أثناء رميهم القنابل على قريتهم.. وفي ليلة مشنوقة الضوء توارى أبواها تحت أكوام التراب فوجئ بها تسأله باللغة البشتونية وببراءة مطلقة: هل تأخذ لي صورة..؟

والتقطت عدسة «ماكوري» صورة تلك الفتاة.. التي لم يعرف بأنها ستكون ذات شأن وأن تتصدر قائمة مئة أفضل صورة في العالم ووجه غلاف مجلة «ناشيونال جيوغرافي».. وتُعرف بصورة «الفتاة الأفغانية» التي عرف بعد سنوات اسمها الحقيقي «شربات غولا» ويعني اسمها حرفياً بلغة البشتون «فتاة زهرة الماء العذب»..

قال ماكوري عن صورة فتاته: **«إنني أحب هذه الصورة، الأيقونة على الدوام؛ لأنها ببساطة تجمع عواطف متعددة، الدهشة، الخوف، وحب الفضول، وتمنحنا الفرصة لنتخيل قصة ما، قصة أنفسنا في حياة هذه الشابة ذات النظرات الساحرة»..**

هذه الصورة هي دراما كاملة.. رواية لتاريخ متأجج بالثقل وعدسة ماكوري مازالت تبوح بفضفاض.. فذاك الجمال المتوحش يبلغنا كم هي المرأة الشرقية صامدة لا تبتلع إرادتها العواصف القوية.. كأن لسان حالها يبلغ العالم من حولها بجسارة عميقة: حدقوا جيداً إلى صورة فتاة فقدت والديها..!

إنها صورة تحدّ.. شراسة كبرياء.. إصرار حد الحياة على الحياة..!

ترى ماذا سيتقوّلون بعد مضي قرون حينما يتأملون تقاطيعي وهي مسوّرة في زمنها..؟!

أجل.. أضحى هذا الوسواس لهاث خيالاتي.. لهذا كوّمت كل صوري أمامي.. منبطحة بوجوهها المتعددة على الأرض.. ورحت أتملى فيها.. في تقاطيع امرأة وكأنها ليست أنا.. الصورة موقف.. هذا ما أؤمن به.. إنها تسور موقفها في زمن ومكان محددين.. والصورة ذاكرة.. عابرة وممتدة.. فبعد عشرين أو ثلاثين عاماً حينما يشير حفيدي إلى ألبوم صوري ويثقب في تاريخها وجهاً.. وجهاً... ثم يواجهني ببراءة مطلقة: جدتي.. احكي لي عن هذه المرأة..؟!

الأطفال عادة لا يألفون تقاطيعنا الشابة.. لا يدركون ماضينا ولا يستوعبونه بعقولهم الغضة.. إنهم يؤمنون بالحاضر والماضي هو الأمس حيث كنا معاً في نزهة وانتهى.. لكن ذاكرتنا تشتغل مع الماضي دائماً على حساب الحاضر.. إن سألتني: ما هو الحاضر..؟!

سأجيبك ببساطة: بأنه الآن.. ولكني لا أحيا فيه بل أنا غاطسة في الماضي حتى أذني..!

فذاكرتي تمضي إلى الوراء بينما عالم دون ذاكرة هو عالم

الحاضر.. لكننا لا نستغني عن ذاكرتنا وإن كانت مصدر تعذيبنا وموتنا اليومي وهكذا يحيا ملايين من البشر.. الكثير منهم متشبث بماضيه بكل حواسه بينما حاضره لا يتعرف إليه سوى عن طريق ممارسات يومية: نوم.. طعام.. جنس.. عمل...!

والطفل الذي شبّ على أنني جدته ستظل ذاكرته تحتفظ بي ثابتة كما أنا.. تلك الجدة التي زحف الزمن عليها حتى التعب.. ألا تعمل أحياناً عقولنا كعقول الأطفال في مبدأ الثبات..؟!

إذا ما كان هذا الطفل يعتقد أن جدته منذ ولادتها وهي كائن في مرتبة الجدة ولم يعبرها الهرم الزمني أليست الصور تعبث بذاكرتنا على هذا النحو.. ؟!

إنها مؤطرة في زمن ومكان ثابتين.. لكن الذاكرة لا تعترف.. إنها تعتاش على ماضيها لأن خوفها يقضي على حقيقة التغيّر..!

نحن كالأطفال نرغب في الثوابت.. نتوق بأن تظل صورنا فاتنة لا تشوهها شمس ولا يلتهمها دود..!

أقول هذا وأنا أتأمل وجه «شربات غولا» بعد صعودها الهرم..!

22

حبيبتي أنابيس..

كنت قارئاً عابراً لمقال «وندل بري» فلفت لبي قوله عن سياسة الاقتصاد: **«أول شيء يجب أن نبدأ بتعليمه لأولادنا (ونتعلَّمه نحن) هو أننا لا نستطيع أن ننفق ونستهلك إلى ما لا نهاية، ينبغي لنا أن نتعلم الاقتصاد والصيانة، إننا في حاجة فعلاً إلى «اقتصاد جديد»، لكنه اقتصاد يتأسَّس على حسن التدبير والعناية، على الوَفْر والصيانة، وليس على اليسر والتبذير، إن اقتصادًا يقوم على التبذير اقتصاد عنيف في صميمه بما لا رجاء فيه، والحرب هي عاقبته المحتومة، إننا في حاجة إلى اقتصاد مُسالِم.."**

ما أكثر السياسات التي تحتاج إلى إعادة تدوير ليس في المجتمع فقط بل أيضاً في عقول الأطفال خصوصاً..!

المعلم الذي تماهى نزاهته في وسط تلاميذه عن

المبادئ والمثل بين البشر.. عن الحب والخير والصدق بينما في أعماقه يدرك مدى التناقض الفاغر بين ما تقوله كلماته من نبل القيم وما تفعله في الواقع..!

فالعالم الخارجي نحن نخفي حقيقته عن الأطفال.. كأننا نغطي جميع التفاصيل المثقوبة بالسواد ونرخي الستار فقط على نوافذ وأبواب نثق ببياض أفقها..!

نرسي مفاهيمهم على المبادئ المعقّمة والمُثل العظمى بينما الحياة ما هي إلا خنجر غدار يجيد اختيار طعناته.. طعنات من الأمام.. طعنات من الخلف بل من جميع الجهات عمودياً وعرضياً.. نعظهم عن أهمية الصدق ونحن نمرر كذباتنا الفظيعة فيما بينهم.. نعلمهم معنى الحب والاحتواء وفي قلوبنا شرارات من اليأس والحقد.. نحكي لهم عن أسطورة الوفاء.. ولا وفاء؛ لأن الخيانة استولت على كل المقاعد..!

إننا نخادع عقولهم بسذاجة..!

أليس من المعذب أن ترص المعلمة الوفاء في قلوب تلميذاتها الصغيرات وحين يكبرن يؤمنّ بنزاهة كل رجل..؟! وفي حال الخذلان الكبير.. في حال صفعة الخيانة سيغدو حينئذ الألم فظيعاً لأنهن متسممات بترياق الوفاء مذ نعومة مشاعرهن..!

ماذا عن المعلم الذي يحاضر في تلاميذه عن أهمية الصدق فيشبّ هذا التلميذ وفي مجابهة حقيقية مع العالم عند أحرج منعطفات الحياة تتوالى عليه الصدمات لتكهربه جراحات لا تبرأ..!

لماذا لا نجري تغييراً في أسلوب تقديم الحياة لهم.. لماذا لا نعظهم على الكذب والنفاق والغدر والسلب.. نكوّم أمامهم كل تلك القيم المشوّهة وننبّهم محذرين بأن الحياة ليست مثالية بل هي غابة حيث يشرب المرء دم أخيه من أجل غناه الشخصي..؟!

ألا نقطع بذلك سيراً مديداً عليهم.. أليست سياسة اليهود مع أطفالهم ذات منافع جمّة متماشية مع حضارتهم حين يعبئون عقولهم الصغيرة على كراهية بقية الأجناس..؟! وعلى أن كل ما لا يمت إلى يهوديتهم بصلة فهو قاتل.. سفاح.. حيوان مفترس.. تافه وحقير..!

بينما صغارنا أفكارهم هزيلة عن حقيقة الوجود.. متخاذلون في مواقفهم بمعنى أعمق هشّة هممهم.. لأنهم الحالمون بأسطورة الحياة المثالية كما أوهمهم بها كبارهم حين كانوا صغاراً.. كأني باستنكار «بودلير» وهو يتساءل بعجب: **«عمّ يبحث في السماء جميع هؤلاء العميان..؟!»**..

إلى متى يستمر عرض مسلسل الخداع.. ومتى

الكفاف..؟! إلى متى تتوارث الأجيال قيمها الوهمية..؟!

إننا متوحشون ولكن بطريقة راقية و عصرية. . خدعتنا المدنيّة. . خدعتنا المكانة الاجتماعية وأصولنا البشرية وكماليات الحياة. . !

ومع ذلك نحقنهم بانتقامنا.. نريد لهم أن يذوقوا مرارة ما ذقناه.. ما ذاقته كل الأجيال الساحقة في أزمنتها الغابرة.. أليس ما نفعله من تشويه الحقائق فعل انتقام مبطن بالحقد..؟!

ماذا سأقول لابني حينما يقذف إلى هذا العالم. . ؟!

هل أقول له: بني.. أغدق مشاعرك على الحيوانات السائبة ولا تغدقها على حفنة متخاذلين من البشر.. خبئ تميزك في عالم منحط؛ لأنك ستكون بقعة عسل يلعقها الذباب.. كن مفرطاً في لا مبالاتك تجاه كل شيء سوى ما يجس كيانك.. جاهر بما لا تؤمن وفصِّل نفاقك على مقاس العالم من حولك وإياك ثم إياك أن تؤمن بالقيم.. بل اكسرها وسر عليها إلى غايتك في الحياة..!

أجيبيني يا أنانيس.. بالله عليك فما عدت أطيق هذا الركام من الخداع..!

23

هنري..

يا حباً كالموج يخضّ دمي خضًّا بمدّه وجزره..!

أجل.. نحن متقلّبون في متاهة الخدعة حيث كل الأبواب تقود إلى الدرب عينه.. في حياتنا اليوم لا قيم ولا مبادئ.. والكل يلملم من أجل أناه.. كلنا منفيون في ذواتنا.. وحيدون.. يتامى كبيضة مفقوسة تاهت في وسط صحراء مترامية عن ذويها..!

سأستعير جملة من الفيلسوف «أوشو» حيث يسهب في الحديث عن فكر الطفل: **«الطفل يملك صفة اللامعرفة والبراءة، ينظر مندهشاً، عيناه في منتهى النقاوة، ينظر بعمق ولكن من غير أفكار أو أحكام مسبقة، إنه لا يسقط معرفته على ما يراه؛ وبذلك يتمكن من معرفة حقيقة ما يراه، إن الطفل يعرف الحقيقة، والراشد يعرف فقط الواقع الدنيوي،**

والواقع الذي خلفه حوله بواسطة الإسقاط، والرغبة والتفكير، هذا الواقع هو تفسير الحقيقة»..

ثمة خداع دون شك.. نحن نخاطب الطفل وننبهه قائلين: لا تكذب.. إن الكذب سلوك شائن.. ولكن حين يغدو الكذب حليف مصالحنا نخادعه بمكّر: لا بأس.. إنها مجرد كذبة بيضاء..!

ومن هنا تختلط القيم وتخرج المبادئ عن جديتها.. تغدو أمزجة تخضع لكيمياء تقلباتنا النفسية.. والطفل لا يخـــدع فبراءته ناصعة جداً وليست له خلفيات عن الأشخاص الذين يعاشرهم فهو لا يعرف تاريخهم.. إنهم بالنسبة إليه مجرد هيئات.. إما معلم أو طبيب أو مهندس أو سائق حافلة..!

الكبار في عقل الطفل هم مهن متداولة حتى الأب هو الشخص الذي يمنحه المال..!

والطفل عقله الصغير يتفادى الصدمات؛ لأنه نقي فإذا ما شاهد أمه في فراش رجل غريب ليس والده تكتمل حقيقة الموقف في فكره كما هي لا كصدمة بل كواقع.. ولأنه لا يـــدرك مدى خطورة هذا الواقع كتفسير إذا ما خرج من فكره إلى فكـــر آخر أكبر وأنضج منه كأن يشيع ما شاهده

إلى والده.. فسوف يستحيل هذا الواقع إلى صدمة رهيبة في فكر الأب..!

إننا يا هنري لا نخدعهم.. لكننا لا نريد أن نقضي على نقاوة عقولهم.. إننا لا نحقد عليهم بل نرغب أن تبلغ انفعالاتهم سنهـــا القانونية في النمو وتنضج بهيئة طبيعية دون وصفات اصطناعيـــة تجريبية من أحد.. دون أن تغزوهم دوافع خارجية تتراكم عليهم من بيئاتهم.. فمن حق الوالدين أن يبذلوا السبل كافة لتوفير بيئة صحية لتربية الطفل.. البراءة والنقاء والصدق وكل القيم النبيلة هي قيم موجودة عند الصغار تجري في دمائهم التي لم تتلوث بعد بوساخة البشرية..

إننا فقط نقلّص منها.. نسلبهم حق النضج الطبيعي.. فعوضاً أن تكون مسيرتهم في الحياة على ظهر جمل نجعلها نحن حين نقدم لهم الحياة كما هي مشوّهة مسيرة طائرة وبذلك نحمّلهم أوزار الحياة قبل أن يجسوا مطية الاقتراف..!

إن ما يميّز الصغار عن الكبار هو كمية الدهشة في حيواتهم..!

فهي مصدر حماستهم وافتتانهم.. وهي روحهم التواقة إلى اكتشاف الحياة قفزة بقفزة.. وحين نعرض لهم العالم ككتاب

مفتوح.. فإن كمية الدهشة في أعماقهم سوف تتقلّص..!

سيكون لديهم زخم من المعلومات وما بقي أمامهم سوى الخوض في الحياة كسيرة واضحة المعالم من حصيلة تجارب الكبار.. فنقضي بذلك على جزء كبير من مصادر الدهشة الكامنة في أرواحهم الصغيرة.. كأننا حشدناهم في قصر مكون من غرف كثيرة وشرعنا كل الأبواب على كثرتها أمامهم.. فإن القصر حينئذ هو مكان يخلو من المتعة بالنسبة إلى الطفل.. فالعالم المكشوف هو عالم لا يثير الطفل.. بينما إن أبقينا على غرفة واحدة مغلقة في وجه دهشته.. فإن حماسته وفضوله كفيلان بتفجير كوامن المتعة بشتى أنواعها في أعماقه وسيظل يحوم كنحلة حول الغرفة السرية وكأنها المتعة الوحيدة في الكون..!

وكي يتعلم الطفل التفكير علينا ألا نسكب المعلومات وخبرات الحياة في ذهنه سكباً.. وكي لا يكون ألعوبة لآراء الآخرين وحتى لا يكون تابعاً لخبرات الآخرين وبعيداً عن الأحكام الشائعة والاهتمامات التافهة علينا أن نحرص على إبقاء تلك المسافة بينه وبين المعارف كي ينتشلها من تربتها بجهده ويدوّرها في عقله مستخدماً ميوله الطبيعية.. فأمامه جبهات عليه أن ينازلها أمام مستقبل حافل بالغموض..!

إن آخر أنفاس «فان غوخ» لفظت قائلة: «لن تنتهي

التعاسة من هذا العالم» ولأنها كذلك يا حبي.. فمن الأولى أن يحيا الطفل في مدينتهِ الفاضلة تلك التي رسمها له عقول الكبار الخادعة إلى أن ينفقئ بالون الخدعة من تلقاء نفسه..!

أشار «هيرقليطس» في إحدى شذراته المكثّفة مسطِّراً: «الدهر طفل يلعب النرد : إنه مملكة الطفل».. فقد كان «هيرقليطس» يرى في العالم عماء محضاً نظمه الزمن.. فالزمن في نظره كان شبيهاً بطفل يلعب بحصى متعددة الألوان يجمعها ويفرقها وفق مزاجه..!

والفيلسوف «نيتشه» فسّر هذا المعنى بطريقته على لسان «زرادشت» حين ناقش قائلاً: «لعب الفنان ولعب الطفل وحدهما اللذان يستطيعان أن يتطورا ويضمحلا في هذه الحياة الدنيا، أن يشيّدا ويهدما بكل براءة وهكذا مثل الفنان والطفل، تلعب النار النشطة بصفة أبدية.. تكوّن وتهدم ببراءة، وهذه اللعبة إنما الدهر هو الذي يلعبها مع نفسه، متحوّلة إلى تراب وماء.. تكدس النار مثل الطفل كوماً من الرمل على حافة البحر، ترفعها وتهدمها، وتعيد لعبتها بين الحين والآخر، لحظة من الاكتفاء، ثم تستبد بها الحاجة من جديد كما تدفع الحاجة بالفنان إلى الخلق، ليس غروراً مذنباً هذا.. بل غريزة اللعب المستيقظة مجدداً هي التي تستدعي ظهور عوالمِ جديدة.. يرمي الطفل من حين إلى آخر بلعبته،

لكن سرعان ما يعود إليها بحسب نزوة بريئة، غير أنه حالما يشرع في البناء، ينطلق يجمّع ويربط بين الأشياء ويسوّي الأشكال طبقاً لقانون انتظام داخلي صارم»..

هنري يا حبي..

تسلل واسرقني مني ما عدت أخافك كما الأسطورة التي حلمنا بها أطفالاً ..

24

أنابيسي..

حبيبتي.. صرت أؤمن أن الطبيعة البشرية بين الذكر والأنثى هي خليط أسلوبين.. من الممكن أن ندعو الأسلوب الذي يحاكي طبيعة الرجل وتركيبته الداخلية بالأسلوب «الحيواني» بينما ما يلائم طبيعة المرأة ويجس تركيبتها الداخلية بـ الأسلوب «النباتي»..!

الرجل يدنو من المرأة بأسلوبها «النباتي» انطلاقاً من أسلوبه «الحيواني».. حين تندفع أحاسيسه فيترجمها في هيئة أشياء تشتهيها النساء عادة كـ باقة من الأزهار طلباً لودها أو هدية مغلفة تحوي بجوفها قارورة عطر من نرجس أو قرنفل أو أركيدا.. وقد يُفرش درب دلالها بكلمات تحتمل أوصافاً حيوانية: قطة.. غزالة..

بينما المرأة تسحب مسافات رجلها بأسلوب «حيواني» انطلاقاً من أسلوبها «النباتي».. حينما تتبرج بمكياجها وثيابها..

تتغنّج وتبخ أنوثتها بعطر مستخلص من أصول نباتية..

وإذا ما أمعنا النظر جيداً.. سنكتشف أن معظم ما كان ينتج للمرأة قديماً هي منتوجات مستخلصة من أصول نباتية ومعظم ما يتقلده الرجل ينتمي إلى أصول حيوانية في إنتاجه.. أي ما يتوافق وطبيعة كل جنس وما يميزه من الآخر..

ولأن كلا الطرفين يحاول أن يدنو من الآخر بأسلوب معاكس.. لهذا اختلط الحابل بالنابل في الوقت الحاضر.. فغدت المرأة هي خليط أصول نباتية وحيوانية والرجل بدوره هو خليط أصول حيوانية ونباتية.. لكن تفاوت أساليب التعاطي في الحياة يعود تبعاً لعوامل الثقافة.. الفكر.. الطبقية.. البيئة.. وهلم جراً...

ومن جانب آخر المرأة والرجل يقضيان على ذاتيهما من أجل حدوث اندماج فيما بينهما. . !

فالمرأة تفعل ما يؤذي جسدها.. كي ترضي جنسها الآخر.. فتنتعل كعب حذاء يثقب الأرض كمسمار ليتحمل ظهرها تبعات هذه الثقوب الحادة.. وتلون عينيها بعدسات تؤذي بؤبؤ القرنيّة كي تبدو غانية في عيني رجلها..!

وحين تلطخ وجهها بمستحضرات كيميائية تهدد نضارة بشرتها إرضاء للآخر.. وحين يتنازل شعرها عن

طبيعته المخلوقة سواء بالتلوين أو بالتلميس فيتساقط مع الزمن.. وحين تمنع جسدها من التغذي خشية السمنة من أجل إمتاع الرجل..!

الألم والجمال جنباً إلى جنب هو قدر المرأة في هذه الحياة حتى في أعمق حالات الطفو مع الحب تتأوه المرأة كوخز وميض ضوئي ينغرس في عينيها.. كقصيدة ممهورة بصراع فكري..!

والرجل لا يقل إيذاء لنفسه عن المرأة للاستيلاء على قلبها.. فينفخ في عضلاته متناولاً عقاقير من أجل أن يكون مثيراً لأنثاه.. وعقاقير أخرى تضاعف من شحن فحولته ليغدو دون جوان حبيبته..!

الفرق بينهما أن المرأة لا تضطر إلى أن تخشن من طبيعتها لأجل رجلها بينما الرجل يلين من خشونته من أجل أنثاه.. فالخشونة في المرأة مرفوضة بينما الليونة في الرجل محببة من قبل المرأة.. فهي تنفر من الرجلِ الذي يتودد إليها بخشونة..!

ليس على مستوى التودد للمرأة وحدها تفيض الأنوثة عند الرجل..!

فالرجل في حالة البكاء يضعه المجتمع دائماً في مرتبة المرأة.. كون البكاء شأناً أنثوياً محضاً كما تعتقد بدائية

عقولهم والرجل الباكي مهما بدا غرض بكائه يظل معلقاً على مشجبي الضعف والخنوع..!

رغم أن دموع الرجل تحديداً من - وجهة نظري - تغدو بثقل حبات الماس حين تهطل بصدق.. ولعل «ميخائيل ستروغوف» إحدى شخصيات الرائع «جول فيرن» تنبهنا إلى ما يمكن أن تصنعه دموع الرجل النقي.. فهذا الرجل بعث كرسول سري لينقل خبراً مصيرياً إلى القوات الروسية المحاصرة في سيبيريا.. وكان الطريق الذي يقوده حيث غرضه بعض مناطقها محاصرة بالتتار فحدث أن وقع أسيراً في قبضتهم واقتيد إلى زعيمهم وشاء أن يكون هذا الزعيم غليظ القلب؛ فأمر أن تنزل عقوبة العمى على «ميخائيل ستروغوف» برأس سيف شوي على النار حتى التهب.. كيلا يتمكن من مواصلة السير إلى سيبيريا وإبلاغ الجنود..! وحين غرس السيف المتوهج الحرارة في عيني «ستروغوف» تابع طريقه إلى حيث وصل إلى سيبيريا وبعينين صحيحتين دون أن تخدش حرارة السيف المتوهج ابيضاض نظره.. وذلك لأن الدموع الحارة التي فاضت من عيني «ستروغوف» قد بردت توهج السيف.. تلك الدموع التي سالت حين أدرك أنه لن يتمكن من رؤية أسرته بعد العمى.. بدموعه حارة الصدق من صميم فؤاده أنقذ نفسه و روسيا..!

ليس كل النساء إناثاً كما ليس كل الرجال رجالاً..!

المرأة حين تُخشّن من طبيعتها تؤذي أنوثتها وتلغيها وهذا الأذى يشمل الرجل الذي يميل صوبها.. فالخشونة في المرأة تشعر الرجل المحب لها وكأنه أمام رجل آخر لكن دون شاربين..! على نقيض قواعد اليونان القدماء كانت منزلة المرأة وضيعة كالحيوانات والعبيد وكانوا لا يغدقون خصال الإطراء عليهن سوى حين يتمتعن بصفات الرجولة..! وهناك من ربط بين زهرة الأوركيدا والمرأة الجميلة؛ فزهرة الأوركيدا كما ذهبوا هي أخت المرأة الجميلة وهذه المرأة الجميلة ينبغي أن تكون لها روح قاتلة وإلا ذبُل جمالها في عين الرجال..! ألهذا لقّب الفيلسوف الصيني «كونفوشيوس» الأوركيدا بـــ «زهرة عطر الملوك»..؟!

لكني أجزم أن ربطها بالمرأة عائد إلى كونها من الزهور التي لا تعرف معنى التقليدية بل تتمتع بالجمال والغرابة في آن.. وهو ما أكسبها جاذبيتها الخاصة.. كما أن التنوع الهائل هو السمة التي لا تتخلى عنها؛ فهي موجودة في كل مكان على ضفاف الأنهار أو فوق الجبال على ارتفاع 14 ألف قدم وبعضها يعيش وسط الغابات الممطرة الاستوائية والآخر في جبال الألب وفي مناطق شبه صحراوية كالمرأة تماماً هي شاملة وطاغية في كل بقعة لتنجب فيها الحياة.. لا عجب وهي كانت «شراب

الحبّ» عند البحارة البريطانيين عندما تلقفوها في أول صدفة ليهيم بها الأوروبيون حتى الهوس مما أبهظ ثمنها..!

أما الأنوثة في الرجال في حالة التودد للمرأة لا تُنكر.. فالرجل المحب حين يتودد إلى المرأة المحبة يسحب أنوثتها إليه خصوصاً حين تكون في المرأة التي يميل إليها أنوثة طاغية من رأسها حتى أخمص قدميها..!

«أحبوا المرأة ذات قلب الحنون كالزهرة والهش مثلها، ففي هذا القلب تقيم الحبيبة والأم والأخت والملاك» إنها وصية «سانت بيف»..

المرأة تستطيع أن تحيا دون رجل.. لهذا ثمة نساء عذراوات يقضين البقية الباقية من أعمارهن دون رجل كما حكم لهن القدر..!

بينما الرجل لا يمكنه بأي حال من الأحوال الاستغناء عن العنصـــــر الأنثوي بل لو لم تكن المرأة موجودة لاخترعها الرجل..!

أنابيسي يا حب قلبي..

لا تؤذي طبيعتك الأنثوية فأنا أعشقك كما أنت بقلبك وقالبك..!

أحبك جداً..

25

حبيبي هنري..

«أحب أن أتأمل بين حين وحين الوجود من الجانب الآخر.. فمن جانبي كان الأمر مضنياً على الدوام ثم إنه منحاز.. أحب أن أنظر إلى نفسي من الخارج.. أن أفكر في نفسي بعقل غريب وأحب على وجه الخصوص أن أشعر بنفسي بحواس العالم.. قاس أن نبقى دائماً على الضفة بينما يمتد البحر حراً من كل قيد». . هكذا يعبر «رافايل أرغولول» عن «حواس العالم» في كتابه «صيّاد اللحظات» وهو الشعور الذي أجدني فيه باستمرار أن تكون لي ضفة خاصة ومنها أرنو على ضفتك.. حين عشقتك رجلي.. عشقت فيك طباعاً «لم» و«لا» أجدها في كياني.. إنني في «**اختلافك**» أجدني.. أجسّ عالمي وحواسي وتقاطيعي ومرآتي..!

الحب هو اكتمال بين جنسين متناقضين كقطبي مغناطيس إذا ما تشابها تنافرا وإذا ما تباينا التصقا بعنف.. لك

ضفتك ولي ضفتي.. تنتابك حواس الكون بأجوائك وتنتابني بأجوائي.. هكذا هي كيمياء الحياة حقاً.. قوائم اختلاف بين القلوب والعقول والحواس..!

لهذا يكهربني حد الصدمة.. أولئك الذين يلتصقون بمماثليهم في كل شيء كأنما صفوف من النمال لا يمكن التميز بينهم مهما اقترفوا الاختلاف..!

كما أنه اكتمال بين كائنين ناقصين. . فناقص الأنثى مع ناقص الرجل بشكّل اكتمالاً مدهشاً. .

المتعة في العلاقة بين اثنين تتوثق حينما تتبدى الاختلافات بينهما.. في التطلعات.. في الأحلام.. في طريقة ممارسة الحياة.. في المهن.. في طرح الحوارات.. في التفكير..

الشراكة في كل علاقة هي اكتمال. .

فكلا الجنسين هو نصف الذي يكمل نصف الآخر.. وإذا ما كانت الأنصاف بين الأشياء في الحياة اكتمالاً متطابقاً ففي علاقة بين اثنين هو اكتمال غير متطابق.. وحدها هذه العلاقة بين ذينك الجنسين تنكر التطابق..!

وإذا ما وجهنا سكينة فكرنا نحو الغابة.. تحديداً إلى الكائنات الحية.. الحيوانية منها لوجدنا أن التطابق بين الحيوانات من الجنس نفسه بين الذكر والأنثى غير وارد..

فأنثى العنكبوت في طبيعتها تتباين عن خصال ذكرها.. كما البقرة والثور.. كما ذكر التمساح وأنثاه.. كما كثير من المخلوقات.. فلماذا نحن البشر مجادلون.. منكرون لحقيقة اختلافنا..؟!

التشابه عادة يختلق نزعات نفسية. . !

فإذا ما ارتبط فنان تشكيلي بفنانة تشكيلية سوف يجس كلاهما أو أحدهما أن شريكه أكثر تفوقاً أو ربما تمايزاً أو ربما نشاطاً ويبدو كما لو أن أحدهما خلف الآخر..!

كما حدث مع النجمة الاسترالية «نيكول كيدمان» طليقة النجم الأميركي «توم كروز».. فقد اعترفت ذات لقاء أنها حين كانت قرينة «توم كروز» كانت دائماً تشعر بأنها خلفه.. وأن الأضواء استثنت به دونها.. بينما هي رغم ما قدمت من أدوار رائعة كانت أشبه بالمهمش.. ولكن الحال تبدّل حين ارتبطت بمغن استرالي.. فالاختلاف في المواهب والتطلعات ذوب الشرخات بل طبعت الفردية بطابع التفوق المستقل.. بكيانها الحر عن الآخر كما ميولها وأهدافها ومجموع أحلامها.

حين تكون ثمة مساحة اختلاف في الحياة بين اثنين.. فإن هذه المساحة كفيلة بخلق خبرات جديدة.. تحديات

جديدة.. كفيلة بأن تأخذ من اختلاف الآخر وتنطلق منه لتخلق اختلافك فيه.. هذا الاختلاف جدير بأن يقضي على شرارات الغيرة ويهدم النعرات المتبادلة بتهمة الحساسية المفرطة التي غالباً ما ترتهن كأزمة مكبوتة أو ربما مكاشفة بين طرفين متماثلين إلا ما ندر..!

الاختلاف يثري الحياة ويطبعها بفتنة الدهشة ولولاه لقضى حشد من البشر نحبه من آفة الضجر. . !

كمتعة تزاوج كاتب بطبيبة أسنان.. ممثل بمعلمة.. عالمة فيزيائية بعارض أزياء.. مهندسة بمسؤول تسويق..

فلا أجمل من أن تلتقي باختلافك فذلك وحده يعينك على اكتشاف نفقك الداخلي كما الدائرة والمربع كتناقض مثير من نوعه ونزعاته..!

بل من الساحر أن يكون الإنسان نمط نفسه غير قابل للتكرار.. فأنا أريد أن أكون نفسي كما أريد لك أن تكون أنت نفسك.. ألسنا على الدوام نحن البشر نباهي بأشياء نادرة نملكها دون الآخرين ونعتز بامتلاكنا إياها.. كيف إذن بجوهر النفس..؟!

أعمق العلاقات دواماً بين معظم البشر هي التي تكون بين أولئك الذين صودفت اختلافاتهم في حياة واحدة..

فغدت حياتين زاخرتين بأنفاس التجدد والتطلع والرغبة في الآخر والتشبث به بشغف وجنون ومتعة وعطاء لأنه الجزء الناقص الذي يكمل دائرة اكتمالهما.

لا تكن أنا يا حبيبي..

كن أناك في أحلامك الصغيرة ولتظل لأشيائك سرّيتها.. كي يتلصص توقي عليها.. ولأشخاصك حريتها.. كي تقدح أناي نار غيرتها.. وفي كن اختلافك.. كي أفتّش عن مثيلك في أمنية النظرات المتطلعة..!

لهذا بعد الآن لن أقول: «**كلانا**» **كمجموع واحد بل سوف أؤكد : «أنا وأنت» كمجموع مستقل. . !**

رغم توافق الحب ومفاصله والشوق والوله والغرام.. ففي كل حالة توافق بين فكرين أو قلبين ثمة ثغرة اختلاف.. وإن توافقنا منذ البدء على حجم وحقيقة وجود تلك الثغرة في كل شراكة بين روحين.. فإننا حتماً سوف نصون حقوق وأحلام وتطلعات «كلانا» في هذه الحياة دون تنغيصات تلك العقد البشرية التي تتمظهر في كل علاقة «حب» كاستثناء فرّط «حساسية» بين هذين الطرفين خاصة..!

حبيبي هنري..

لنكمل كياننا المقدس بخليط أنت وأنا. . أنا وأنت. .

(3)
فحولة مشاعر

ليتنا نقتل أحاسيسنا قبل أن تتورط..!

نردمها في قاع صفصف.. نفتتها مع الريح.. نزرعها في قلب العاصفة.. نغيب معها بذاكرتنا.. كي نعود إلى الحياة بخذلان رجل صفعه الزهايمر قبل أوانه..!

تعلمين.. فضائي كم كان شاسعاً بنساء كقوس قزح.. كن ينقبن داخلي بلا جدوى.. كن نسوة بلا عقل وبلا قلب وبلا روح.. حمامات مدنسات.. مضخات رغبة لا أكثر بكثير ولا أقل بقليل.. إن الواحدة منهن أشبه بساعة يد تلهث عقاربها حول نفسها.. تحيض راحتها.. تستعذب كيانها.. لكي ينتظم غيرها في ثواني اللحظات وفي دقائق الأيام في ساعات الشهور..! دورانها ذاك.. يعييها لا يريحها.. يومض لياليها أرقاً.. يشطر أيامها صداعاً نصفياً يزمّر كببغاء أبله يردد اسم صاحبه بلا جدوى..!

فكيف لي أن أخضع كرامتي التي كانت سامقة في وجه الريح والجبال والإنس لامرأة دفق شريانها في روحي هكذا دفعة واحدة بقوة متراس..؟!

إن ذلك فوق شجاعتي كرجل...!

أتعلمين.. قلبي هذا النابض تحت جلدي الأيسر.. المتخفي تحت شعيرات صدري.. لم أسمع دقاته يوماً..؟! كان صخراً صلداً سكنته وطاويط سوداء ظلت تنقر في ظلمته بلا جدوى.. التفت حواليه أنسجة عنكبوت مشيخ.. بهت عن الحياة منتعلاً الغبار وبقايا فراغ..

القلب هذا العضو العضلي كم كان ثقيلاً كصهريج.. كم كان نتناً كحمّام تعفن برائحة بول.. متمدد الجفاف والقحط.. كل خواءات الكون تكدست فيه.. لكن شعوراً غامضاً على حين غرة ترجرج فيه بعنف.. بعنف قذيفة موقوتة حين تسقط غارة على بقعة ما.. هكذا استوطنت قلبي.. تلك البقعة الخالية قبل عهدك من الخفقان.. ومن دماء حارة.. من أشياء لا أكاد أجس كثافتها، عمقها، عفويتها، جنونها.. وكيف لي أن ألمّ بها وأنا لم أجس شاكلتها قط في عمري كله..؟!

فأيتها المرأة.. التي أحيت بنصل أحاسيسها خواء مثلي.. رجلاً لم يكن له يوماً قلب ينبض كجندب صغير.. لم يشعر يوماً بدماء ساخنة تتقافز عبر شريانه.. كينونته..

واستطعت أنتِ.. بكيانك الغامض أن تعبثي به وفيه ومنه وعليه.. بعرضه وطوله.. بكله ببراءة طفلة..!

فأي مسيس في تجاويفك تملكين سحره..؟!

يتبع...

26

أنابيس..

يا حياتي الأولى والأخيرة..

صادفت البارحة بين سطور دفتر مهمل في أحد الأدراج كلمات حشرج بها «فرناندوا بيسوا» بعمق:

«أنا اليوم مهزوم كما لو كنت أعرف الحقيقة. . !

صاحِ كما لو كنت على وشك الموت». .

إن أعتى هزيمة في حياة الرجل هي عندما يرغب بكل كيانه في امرأة لا يمكنه الحصول عليها.. امرأة يعلم أن كل تفاصيل قدرها لا تتوافق مع تفاصيل قدره..!

إن الإحساس الوحيد الذي يتضخم في داخله المهزوم في تلكم اللحظة وتغدو كأمنية مستحيلة هي أن تبتلعه الأرض في جوفها كما لو أنه لم يكن موجوداً قط. . !

إنها هزيمة مرعبة فهو عاجز أمامها.. كل الطرق مسدودة إلى وصالها.. من المؤلم بل من أشد العذابات حين تعشق إنساناً لا يمكنك بأي حال من الأحوال أن تفعل من أجله شيئاً..!

هذا الشعور العاجز يشّل كل موجودات الحياة من حوله.. تتقافز في كيانه كلمـــة واحـدة فقط تذبحه وتحييه ألف مرة لتعيد تعذيبه كرة بعد كرة كعذاب براميثيوس الأبدي: «جبان»..!

لفظة «جبان» تسحب منه حق رجولته.. تشعره بالنقيصة.. تجس وتره الحساس.. إن تأثيرها قابع في أعمق بقعة في قلبه.. ولأنه ملحوق بالهزيمة لهذا لا سبيل إلى الهروب من هذه اللفظة سوى بالهروب منها.. وأول إجراء في هذا الوضع الهروبي هو الفرار من المرأة التي جبن عن امتلاكها ويوازي إلغاء تاريخها الشخصي إلغاء لفعل لفظة «جبان» فيه..!

ويغدو حينئذ نبضاً جريحاً يحيط بأشياء الجانب الآخر ولكن على بعد.. فهو في اعتباره الذاتي قد تخلص منها كما تخلص من عار لفظة جبان.. لكنه تخلّص أشبه بتحرير رقبة عبد من العبودية بينما لم يعتق بعد أمام المجتمع من جلده الأسود.. حرّ ولكن حريته ليست مطلقة بعد..!

إنها خسارة توازي خسارة وطن. . !

الهروب إلى أخرى هو محاولة تأثيث وطن بديل.. قد يجد فيه كل شيء سوى الشعور بالأمان وعار ينغّص عليه بوحشة ضمنية.. لهذا كثير من الأحيان يحدق إلى وطنه الأول بكراهية لاذعة.. شعوره بالجبن هو ما يوقد فيه شرارة تلك الكراهية نحوها.. فهي وحدها تغذي ذاكرة جبنه وتجعل منه منفياً إلى ما لا نهاية..!

الحب الحقيقي فعل فروسية ونبل وشهامة. . !

لهذا على الرجل الذي يعشق إن لم يملك حرية نفسه.. فمن الأولى أن يحبس أنفاس حبه في خزانته مخبئاً سرها عن الناس.. موارياً إياها عن التي يعشقها لئلا يخنقها بجبنه بعد ذلك..!

هذا الشعور المرير بالجبن لا يلحق العار بالرجل وحده بل يطال أنثاه كذلك.. فليس من السهل عليها إطلاقاً حين تلغّم بواقع وقوعها في غرام رجل «جبان»..!

إن إخماد العاشق جذوة حبه في داخله دون إلحاق ضرر بالآخرين سوى نفسه هو قمة الجسارة ولا يطيقه سوى الإنسان الكامل..!

ألا يكمن سر الحب العنيف في مستحيلة.. في اختلافه.. في حنق المجتمع منه ورفضه الكلي لذينك العاشقين البريئين من جرم الآخرين الملحوق بهما..؟!

كأن همساتك اللطيفة تناهت إلي معلنة بحب: بلى.. بلى.. يا وطني الأبدي..

27

حبي هنري..

هناك نساء يهدمن وجود كل جنس ناعم في حياة الرجل. . !

فالصدمة التي أحدثنها كانت من القوة والشدة بحيث لم يجد الرجل منفذاً له من دوي صفعتهن.. لتغدو كل امرأة من بعدهن جرماً.. مشجباً يعلق عليه الرجل جرائم الأولى.. تلك التي أذاقته خذلانها.. خيانتها.. غدرها.. فكل امرأة في عقيلة هذا الرجل هي نمط وحدوي يكرر روحه في كل أنثى ولا فرق بينهن مطلقاً..!

إن هذه المرأة كانت سبباً في قسوة قلبه كحجر صلد تاه طريقه إلى اللين..!

وثمّة نمط نسوي يُحببن الرجل في كل جنس ناعم. . !

لطرافتهن.. لصدقهن.. لوفائهن.. لكل هذا وأكثر.. يرغبِّن الرجل في كل امرأة من بعدهن.. إن كمالها الأنثوي

استحوذ على الرجل حتى غدا يفتش عن كمال مثيل لها في كل امرأة.. بعد أن تاه عن كمالها لنقصان الحياة عن سبيل كمالها.. هنّ نساء يحررّن الجسد ويحررّن الخيال..!

لهذا لم يخطئ «وليام شكسبير» عندما قال : «**بالنار يختبر الذهب، وبالذهب تختبر المرأة، وبالمرأة يختبر الرجل**»..

إن أفضل النساء.. هي تلك التي تخاطب في الرجل طفله الصغير القابع في سراديب روحه.. في قاع كل رجل طفل يُحبّه اللطف واللين.. طفل يعشق شراسة الحب.. يرغب في شهوة الحنان.. عبثي.. أناني.. مستبد.. غيور.. جانح.. وحدها امرأة من النساء تخضع هذا الطفل.. تلينه.. تعيد تكوينه.. تخاطبه بلسانه وعقله وقلبه وتضاعف من جنون مطالبه بغرائزها كأم وعاشقة ورفيقة له..!

كل أطفال المرأة يكبرون سوى هذا الطفل.. فهو طفل آخذ بامتياز..!

سحب من أنوثتها ليمنحها اللذة.. سحب من حنانها ليمنحها الأمومة.. سحب من جمالها وصدقها ووفائها وعطائها ليبرر سياسية المنح في نفسه ولهذا هو الوحيد الذي يستفرد بها خالصة لنفسه إلى الأبد..!

أنجبت من خلاله أطفالها الباقين.. لكنه أول طفل في

حياة كل أنثى.. طفل يكبرها في البداية ليصغرها في النهاية..!

طوال تلك القرون والرجل يستحوذ على المرأة.. والمرأة تستقبل استحواذه بامتنان كبير وشغف.. إن هذا الاستحواذ يدغدغ كيان المرأة ولكنها في الرجل تناهض غريزته في الاستيلاء والامتلاك والسيطرة..!

الرجل يعشق امتلاك الأشياء والمرأة تباهي بامتلاكها كمعشوقة..!

يعوز الرجل أساليب عديدة وطاقات هائلة كي يكون مالك زمانه.. والمرأة يكفيها أنوثتها فقط.. ألم تجعل أنوثة المطلقة مرتين الأميركية «ويليس سيمبسون» ملك بريطانيا «إدوارد الثامن» يتنازل عن عرشه في الحكم حين اعترف بجسارة أنه لا يستطيع الاستمرار في الحكم دون أن تكون المرأة التي يحبها إلى جانبه.. كما أذاع لشعبه في المذياع..!

وحده الحب العنيف المعجون بالصدق يضحي بثقل.. لأنه حب متحرر من كل مصلحة عدا مصلحة العاشقين..!

ولا أعتى من تضحية عازف القيثارة «أورفيوس» الذي حاول إنقاذ حبيبته «يوريكيدي» من الجحيم تحت الأرض بعد أن لدغتها أفعى حية فماتت.. ولكن الآلهة قبلت أن يقوم حبيبها بانتزاعها من الجحيم شرط أن لا يلتفت وراءه حتى

يجتازا ممراً يفصل عالم الأموات عن عالم الأحياء وكاد ينجو بها لكنه في البارقة الأخيرة من مهمّة الإنقاذ تملّكه شغفه فنظر إليها قبل صعودها إلى سطح الأرض.. وفي اللحظة عينها فقدها وتاه في البلاد عازفاً متشرداً..!

هنري..

كم أحبك وطفلك... يا عازفي المتشرد..!

28

أنابيس..

تعرفين كم أدمن الأفلام كما أدمنك. . !

السينما هي التفسح الوحيد في العالم الذي يشعر فيه عقلي بطلاقة فكره في التخيل وطرح فرضيات غريبة بل غامضة في ذاتها معاً..!

شاهدت باستمتاع بالغ فيلماً كان عنوانــه « **INSIDE MAN**».. يحكي هذا الفيلم عن رجل يستولي مع ثلاثة من رفاقه على مصرف في وسط مدينة نيويورك أو كما يسميها اليهود «أورشليم الجديدة» وهي المرة الأولى التي أشهد فيها أسلوباً غاية في المهارة والذكاء للاستيلاء على مصرف.. إن مهارتهم جعلتني أتساءل عما يولّده المجتمع المتحضر من أفراد متحضرين بحق في مجالات الحياة كافة..!

المجتمع المتحضر يخلق أفراداً متحضرين. . !

التحضر شامل.. يدخل في شموليته العقل.. فالتفكير البشري ينحو تجاه التطور والفكر الإبداعي والقلب يتبدى تحضّره في أسلوب تلقي الحياة بمرونة ورحابة بما يلائم ترف المجتمع والأفراد المنتمين إليه.

هذا التطور نهم.. لا يكتفي بحداثة نفسه بل إنه في نهم مستمر أبدي.. مادامت الظروف والقوى تشحن طاقاته بمزيد من الازدهار..

لكن المدهش حقاً في المجتمع المتطوّر هو حالة اللصوص..!

فالمجتمع المتحضر يخلق لصوصاً متحضرين يجاري اللص التقنيات الحديثة في أساليب نهبه؛ لأنه مضطر.. إن براعته تتضاعف طبقاً لبراعة أساليب المجتمع الذي ينتمي إليه..!

كانت مهنة اللص في أزمنته العتيقة مهنة شاقة.. فلا أحد يمكن أن ينكر بأن اللصوصية مهنة مثلها مثل أي مهنة.. فاللص يسرق من عرق تفكيره ويجهد أعصابه من أجل تحقيق مأربه سوى كونه يستولي على أشياء ليست له ولكنها وببراعة حاذقة سرعان ما تكون ملكه.

لكنه لا يثبت ملكيتها لنفسه إلا سراً؛ فما يزال أمام المجتمع جانحاً رغم ما بذله من جهد لبلوغ أربه..!

اللص في هذا الزمن المعولم ليس ابن الليل بل هو ابن النهار بامتياز. . !

ولم يعد مضطراً للخروج من بيته للنهب بل تأتيه الصفقات حيث هو.. إنه الآن إنسان متحضر لديه جهاز حاسوبي ومن خلاله يستطيع أن يستولي على أهم مصرف في العالم بهدوء تام وببراعة فائقة الذكاء..!

اللص من هذا النمط هو كائن يستحق الإعجاب دون شك فليس من السهلِ أن تجازف بنفسك للقيام بمهمات خطيرة قد تكلفك باهظاً..!

وهذا اللص هو خارج قانون المجتمع.. يعمل لحسابه الخاص لكنه إن عمل مع المجتمعِ ولحسابهم وأضفى على مهنته المصداقية.. لغدا فرداً مفيداً جداً لمجتمعه.. فعادة يمتلك اللص من الأساليب والإمكانات والتطور الفكري والقوة الجسدية والتحكم في الأعصاب ما لا يملكه الإنسان العادي.. إن فرداً كهذا إن عمل مع المجتمع من الممكن جداً أن يصنع حضارات باهرة وأن يجري تغييرات جمة في بؤرة المجتمع الذي ينتمي إليه..!

لكن المجتمع المتحضّر لا يؤمن سوى لأصحاب الشهادات.. لأولئك الأنيقين في بذلاتهم الراقية وحنكة أحاديثهم العصرية رغم افتقارهم إلى أهم متطلبات الذكاء والخبرة في الحياة..!

المجتمع المتحضر يطلب الماديات ويسقط من حساباته المعنويات..!

فلا يهم كم هو الفرد عبقري بقدر ما يهمها طبقية هذا الفرد.. مكانته الاجتماعية.. أسلوبه المتحضر الموازي لقفازات الزيف وجوارب النفاق وتبلّد المشاعر في كل شيء..!

هكذا يحطّم بقبضة يد واحدة أصحاب المواهب.. أولئك الذين لا يملكون سواها بديلاً.. إنها مواهب تصنع معجزات لكنه لا يجاري حضارية المجتمع المقيم فيه فهو مجرد شحاذ بالنسبة إليها..!

كأن مجتمعاتنا تنمي التحضر في أفرادها لكنها تعود فتهدم تحضرها فيهم..!

كحال اللص العبقري الذي تمكّن بحذاقة من الاستيلاء على ممتلكات هامة من خلال كبسة أزرار لا أكثر ولا أقل..!

المجتمع الذي يتفشى فيه اللصوص بأعداد مهولة هو مجتمع متحضر بحق.. لكن ينقصه إعادة نظر في موهبة لصوصه ومكانتهم وأسلوبهم في الحياة.. ليصنع تحضراً ما وجد له مثيلاً.. كمدينة نيويورك في أميركا.. إنها مدينة لصوصية بامتياز وهناك إن واجه قاض لصا ما بالسؤال عن مهنته.. يبوح بها على ملأ وبافتخار جسور: أنا لص.. وقوتي

من جيوب الآخرين التي أحصل عليها بدوري بعرق جبيني..!

إنها مدينة حاشدة بالعباقرة.. لكن المجتمع في حرب دائم معهم إنه يقضي عليهم.. يحطمهم.. إنه العدو الأكبر لعبقريتهم الفذة..!

المجتمع المتحضر لا يريد لصوصاً عباقرة لكنه يبغي أفراداً على درجة عالية من الحذق.. ولكن أنى ذلك؛ فللص حافز قوي يشحن ذكاءه باستمرار كي يجاري تحضر مجتمعه في أساليب نهبه من تلك الجيوب الحديدية المرقمة بينما الفرد العادي ما هي حوافزه..؟!

فمؤهلاته العلمية تقوده إلى مهنة راقية وهذه المهنة يمارسها بفضل مؤهله.. ومادام مؤهله غير محدود التأثير.. فإنه باق كما هو.. لا يأبه أن يرفع من كفاءة ذكائه؛ فالوظيفة لم تطلب سوى ما لديه من مؤهلات..!

المجتمع يؤمن بعبقرية لصوصه ويعترف بمدى كفاءتهم..!

لهذا فهو يبتكر أساليب جديدة لحفظ الأمان كي لا يخترق أولئك اللصوص أجهزتهم الأمنية.. رغم ذلك ما يزال اللص يخنقهم بالمرصاد.. إنه يبتكر في أساليبه ليتفوق عليهم بحذاقة نادرة كما العلماء كلما ابتكروا مصيدة فئران جديدة حشد الوجود بفئران أكثر دهاء مما لا يمكن تصوّره..!

ولعل أبلغ مثال يمكن أن أضعه هنا كدليل واضح على ابتكار المحروم طرقاً وأساليب غاية في الحذق لاختراق الأنظمة هو «الشعب الإيراني» في عصر الجمهورية الإسلامية التي فرضت عليهم أنظمة حتى الحيوانات لا يمكن أن يتكيّفوا معها فكيف بإنسان حرّ..؟! لهذا يحاول الإيرانيون بما أوتوا من عزيمة وإرادة تحطيم أوثان المنع بابتكار طرق تجعلهم يتعاطون الحياة بقيود أقل؛ وكلما طورت السلطات قيودها المحكمة نجح الشعب المحروم في تجاوزه باختراعات لا تخطر حتى على بال السلطات.. فأي إرادة وأي عزيمة..!

وفي رواية «قصة حب إيرانية تحت مقص الرقيب» لكاتبه الفذ «شهريار مندني بور» تجدون أنفسكم أمام تلك الإرادة بكل روحها الجبارة أمام سلطة مستبدة..!

اللص هو إنسان مثقف..!

لديه مخزون ثقافي في أسلوب تعاطيه مع الحياة مع الأشخاص؛ كي يحيا بشطارة فكره عوضاً عن كم من مواقف وحكايات يستقيها من وقائعه الحية تؤهله لأن يكون حكاءً بجدارة.. لكنه اختار الفعل على الكتابة.. فضّل أن يؤدي دوره على مسرح الحياة وأوكل مهمة الكتابة إلى كاتب انتقى مهنة

التفرج عليه.. ليخلّد ذكراه كبطل في رواية بوليسية..!

الروايات البوليسية ما كانت تولد لولا جمهرة اللصوص وما كانت شيّقة لولا مآربهم العبقرية. . !

أناييسي.. لا يتسع هذا المجتمع الذي نتجوّل في دهاليزه لحيرتي.. إنه مجتمع فاقع التناقض وهذا التناقض هو ما يطرقني مفكراً على الدوام بغرائبية الأمور كعبقرية اللصوص في مدينة يسلبها تحضرها..!

أحبك يا سارقة قلبي.. يا أروع لصة في تاريخ القلب..!

29

حبيبي هنري..

أنا وأنت نحا خيارنا في هذه الحياة على أن نكون متفرجين وبإخلاص متفرد..!

والكاتب هو أكبر متلصص في تاريخ البشرية. . !

إنه لا يستطيع أن يحيد عن ممارسة تلصصه فهي وحدها تشحنه بطاقة البوح.. وهذه الثرثرة العدمية التي تدعى كتابة لا تثرثر من تلقاء نفسها بل يعوزها ثرثرات العالم وأفعالهم كي لا تكل عن ممارسة وظيفتها السرمدية المطلقة في ذاتها وهي الثرثرة..!

الكاتب مشاهد.. لكنه معزول عن الجميع.. يتابع مسرحه من على مقعده في العالم منفرداً وبخفية.. إنه لا يكتفي كمشاهد بل يترك العنان لخياله بالسفر. . بالتركيب والتحليل وإضافة وإلغاء.. شطب وبتر حقائق.. إنه يعيد

سنفرة مشاهداته كي تأتلق في سطوره مشاهد أخرى مأخوذة من الواقع أجل لكنها لا تخلو عن فرقعات خيالات خلاقة..!

دور المراقب يربحنا؛ لأنه متوافق مع عزلتنا رغم أن سلوك المراقبة يلغي العزلة في ذاتها..!

فحين تتفرج على العالم.. على البشر.. لن تكتفي بحيزك الضيق بعالمك الداخلي.. هذا وحده يضطرك إلى أن تدفع نفسك إلى هناك.. حيث الحشود.. حيث الأقدام.. حيث أفواه لا تكف عن البكاء والضحك والهزل والغناء.. خليط من المواقف.. الضوضاء.. المصائب.. المجرمين.. فالعالم الهادئ الذي يخلو من المرئيات و الأصوات هو عالم غير قابل للتفرج..!

التفرج يعطينا شعوراً بأن كل ما يحدث على مسرح الحياة هو جزء من فيلم.. بشخصياته وأماكنه وظروفه.. لكنه لا يمت إلينا بصلة.. فنحن متفرجون فقط وذاك السعار المحموم لن يطالنا طالما بقينا نكتفي بالتفرّج..!

لكن وجه الحقيقة غير ذلك تماماً؛ فالكاتب المتلصص يؤدي دورين.. إنه متفرج بالدرجة الأولى لكنه يغدو بعد ذلك متفرجاً عليه.. بطلاً في كتاب أوراقه شاشة فضفاضة مضيئة بملايين المواقف عبرت بالكلمات.. ففي الكتابة

وحدها يصير الكاتب هو المتفرج عليه.. يتجسس القراء على أسراره.. على خفايا مشاعره.. على حقائقه.. على أوهامه.. يتعرفون إلى أحلامه وخيباته وأمزجته الغامضة والمدهشة ونظرته إلى الكون ونفسه والأشياء.. شاء أم أبى يقع في النهاية صريع تفرجه على الآخرين..!

لكن ما يثير السخرية حقاً هو الشكوك التي يثيرها في سطوره والقارئ منها ما بين ضحية وجلاد.. قاتل وقتيل.. فهم يجسون فيها أنفاسهم همسة وأنفاس الكاتب همسات أخرى.. يقفون على أحلامهم مرة وأحلام الكاتب مرات أخرى.. يرقصون مشاطرين الكاتب أفراحه ومن الجانب الآخر يشعرون وكأنهم هم المعنيون بذاك الفرح.. هذا الشك المثير تصرف الشبهة عن الكاتب وتلصقه به في آن بالقوة ذاتها..!

كم هم أشقياء أولئك الكُتاب.. الذين يلهون مع قرائهم بشقاوة «توم وجيري»..!

30

أنابيسي..

كما برق فكرك تماماً: الكاتب متفرج ومتفرج عليه..!

كان الروائي «ألبرتو مورافيا» يتكئ على البصبصة في كتابة معظم رواياته وكانت هذه البصبصة بالنسبة إليه تقوم مقام التأمل.. ففي روايته «الحب الزوجي» يتلصص الزوج على زوجته فيشهد خيانتها ويستمر في مراقبتها بينما هي تمارس فعل الخيانة مع حلاق القرية.. وقد أشار في إحدى حواراته إلى أن البصبصة نوعان أحداهما سلبي والآخر إيجابي.. وما قام به بطله في «الحب الزوجي» هو بصبصة إيجابية.. بينما تختصر البصبصة السلبية حينما يرى الإنسان ما لا يرغب في رؤيته..!

لكن نزعة البصبصة عند «مورافيا» تتماهى بشكل كبير في روايته المعنونة بـ«البصاص».. فالبطل هنا يراقب غيره وفي الوقت عينه يراقب نفسه أو الأصح يختلس النظر إلى نفسه عبر اختلاسه النظر إلى الآخر..!

ويتوافق معنى البصبصة في رواية أخرى لـلإسباني «خوان خوسيه مياس» ففي روايته «هكذا كانت الوحدة» تكون الزوجة مخبرة سرية لمراقبة زوجها الذي تكتشف خيانته لها..!

ولا يتفاوت التلصص في مساعيه حتى على مستوى الشاشة بدءاً من فيلم «النافذة الخلفية» التي برع فيها «ألفريد هتشوك» في توظيف المراقبة من خلال نافذة يسترق منها البطل المراقبة ويكوّن مشاهده الخاصة ليصدمه مشهد أكثر هلعاً هو مشهد جريمة قتل أمام مرأى تلصصه..!

أما في فيلم «الآخرون» فالغرابة تأخذ حدها حين يتلصص الموتى على الأحياء..!

في اعتقادي حياة الكاتب هي مخزون روائي.. آلة زمنية تشرع أمامك ألغاز العالم وتفاصيلها في أي وقت شئت تألف أمامك انفراجاً ضوئياً يقودك من سماء.. إلى أرض.. إلى بحر.. على جبل.. إلى كهف.. إليك.. إليهم.. في تداول حميمي كأنك بطل والآخرون مشاهدون أو كأنهم أبطال وأنت شاهد على تاريخ عصر في جغرافيات الكون المتقلبة أبداً..

ما يستنشقه الكاتب على أرض الواقع من حيوات سرعان ما تستحيل من تلقائها إلى خبرات.. تتكاثف فيه..

تحصره.. تقولبه.. تكسره شظايا ثم تعيد لمّ نفسها مثله كأي شخص لديه زخم تجارب لكن الفرق هو أن الكاتب يوثق تجاربه في سجل كتابي.. بينما العادي يكتفي بعبورها برهة من الزمن ثم تنتهي ليكمل من بعدها مشواره في الحياة - كأن ما كان مرتهن في ما مضى ـ محفوف بالماضي الضبابي كزاد استذوقه وفرغ منه وتستثنى هنا بعض الحالات النفسية أولئك الذين من إفراط حساسيتهم تجاه ما أفرز من مواقف على مسرح حياتهم غذّي في عاهة نفسية ووهم روحي طبقاً لشدة التجربة ومرارتها..!

ثمة أنماط من البشر حيواتهم مثيرة كمادة كتابة حتى الكتاب أولئك الذين يسترسلون في سير حياتهم للناس تغدو حياتهم جديرة بالتعرف.. بالدنو منها عن فضول طالما تشغل فئة من الناس كتجربة.. طالما هي تسعدهم وتبكيهم.. طالما هي تضاعف من حجم أحلامهم.. تومض مشاعرهم وتختلي في أفكارهم أسئلة تتوق إلى كثير من الأجوبة أو أجوبة عن استفهامات كانت تحاصرهم..

وحين تنتهي الإثارة من حيوات البشر وانفعالات الحزن والدهشة والغضب والحب والوفاء والكذب إلى لا آخره.. هل يطيق هذا الكون الاسترسال في الحكي..؟!

لا يمكن له أن يحكي دون أن يكون ثمة ما يهزّه بقوة.. هكذا هي الحياة أولئك البشر متفاوتون في تقديرهم للأمور.. في سعة إحساسهم تجاه بعض منها.. في مدى تقبلهم لبعضها الآخر..

لهذا عليهم على الدوام أن ينازلوا بهمّة فارس مغوار مع ظلال أنفسهم المتقرحة في أرض تجاربهم مهما غدت حدة فظاعتها.. فبقدر ما توجعهم تلك المنازلة تحيي فيهم جسارة الإقرار بواقع الحال بجلّ تقرحاته..!

والأروع يا أناييس هو أن الكاتب لا يخسر أبداً..!

فـ«إيزابيل الليندي» التي سجلت قصة ابنتها «باولا» وهي معتكفة على كرسي متخشب قرب سريرها الذي كان يشهق الموت.. ككاتبة مهرت جيداً كيف توّظف بؤسها..!

الكاتب سجله رمادي.. حياته خليط سوداوي بيضاوي كامتزاج الحليب مع القهوة.. أما بقية الألوان فهي عواطف طارئة كما هطل مطر غزير على مهبط صحراوي في موسم جدب..!

يقول «زوربا» راقصاً بولَه: **«اعطِ الحياة دفعة»..**

وما أكثر دوافع الحياة..!

لا أنكر أن عشقي الأزلي للكسل هو ما يجرني إلى الكتابة ساعات متلاهثة.. حيث لا تكف أصابعي عن لهاثها وهي تكتك على سبورة الروح وكأنها في سباق أبدي مع الزمن.. إنها تفعل ذلك كي تتفرغ للكسل بعد ضمور لحظة التكتكة كما تتفرغ لأشياء أخرى مثيرة..!

بل صرت أجزم أن الكسل هو الوقود الأساسي لكل مادة كتابية.. فالزمن في حيز الكاتب ليس كما عند الآخرين لا بمناسباته ولا بأولوياته.. فمن الممكن جداً أن أمارس فعل الكتابة في عيد الميلاد.. كما تدفئني الكلمات حين تغتصب الثلوج الطرقات ليس هنالك ما يعطلني عن ممارسة الكتابة في أي وقت خصوصاً عند المنصرفين له كلية.. فأنا مهنتي هي الكتابة وأنا مدير نفسي والعاملون عليها أحرر لذاتي وقت ما أشاء من إجازات وإلى ما أشاء.. أنا سيد نفسي.. أنا حرّ.. هذا ما يعوزه الكاتب أن يكون حر نفسه ووقته.. فقط أولئك المتفرغون يمتلكونه..!

من الطرافة أن كتّاب عصور السالفة حين كانوا يسهبون في تفاصيل وصف أحداث رواياتهم وشخوصهم كانوا يوصفون من قبل المجتمع أنهم كائنات مريضة اجتماعياً وعاطلون عن العمل لأنهم يملكون وقتاً فائضاً ليتأملوا زرقة

السماء وتثـــاؤب قطة في الفناء ويتسكعون في العالم ويراقبون الناس..!

من حق الكتابة علينا أن نوليها الاهتمام الكافي.. العناية التي تستحق.. إنها كالمرأة تعشق التدليل... فماذا تفعل المرأة حينما تُدلّل..؟!

إنها تغدق عليك بكامل أنوثتها وعن طيب خاطر وهكذا هي الكتابة دائماً.. دلّلها.. أحسن إليها.. تفرغ لمزاجها.. تمنحك بإحساس مفرط وبمزاجية مذهلة للغاية..!

ومن الضروري جداً أن تُخلص لها.. فبقدر إخلاصك تمنحك غزارة الإبداع وبقدر حجم خيانتك تورثك الخذلان..!

وحين تخاطبها حدّثها بصدق لا يتسع للثرثرة وبهدوء حكيم.. بينما انفعالات الحياة تصطخب نيراناً في قاعك.. في تلك البُرهة يصبح بوسعك أن تنطق حقائق عميقة بسعة أرواح مشتعلة على سطح الكون..!

أحبك يا مدللتي الصغيرة..

أحبك بعُمق..

31

حبيبي هنري..

الكاتب لا يخسر أبداً.. عبارة عظيمة جداً..!

أفترض أن الكاتب الناجح هو من يُسخّر كل ما في العالم لحقل تجاربه.. في صالح مسيرته الإبداعية.. ولن تحتشد حقيقة كهذه سوى عند أولئك الذين لديهم حساسية مفرطة تجاه كل ما يمت إليهم بصلة سواء من أشخاص أو حوادث.

لي اعتقاد راسخ وهو أن علاقة الكاتب بالأشخاص ليست كعلاقة الأشخاص العاديين بأشخاصهم؛ فالأشخاص في قائمة الكاتب هم «حقول تجارب» إن عنى بذلك على وجه التحديد أم لم يعن..!

فليست القراءة وحدها تكفل للكاتب ثقافته عن الأشخاص.. بل غوصه في خضمهم عبر تقريب المسافات بالحديث وخلق حوارات والنزول إلى حيث أسفل أو

التحليق إلى حيث أعلى أو تغذية مسيره شطر جهات أربع أو فصول.. فالذي يرغب في إنارة طريق المعدمين لن ينيرها بمهارة إن لم تألف قدماه تلك الدرب.. ولن يرقّع انكساراً في ثقب ما إن لم يثقبه انكسار شبيه أو مماثل أو معايش عن الحالة الشخصية التي يعلن للعيان شواهدها..!

ألم يقرّ البعض بأن المرأة الكاتبة إن لم تتحرر من دائرة جنسيتها فإنها لن تستطيع الكتابة عن الرجل..؟!

أجل.. الأمر على هذا النحو المرأة التي تستثني بمعول حفرها بئر عالمها لن يجيد معولها الذي لم يتخبط سوى مع صخور نفسها تفتيت بئر في أتراب الآخرين..!

كذا حكايتها مع الرجل لا يمكن لها الكتابة عن نصفها المكمّل لها دون جس حدوده.. فتتحرر من ذاتها وتتقمص فيه والنقيض واقع التأكيد عند الآخر.. كما حدث عند «غوستاف فلوبير» حينما كتب «مدام بوفاري».. وكما عايش «ليو تولستوي» رائعته «آنا كارنينا» وهو يستشف أنوثتها الطاغية أمام قرائه في تداعيات مشوقة لدرجة يشق على فهم المرء التصور أن «آنا كارنينا» مبدعها ذكر وليس أنثى..!

في الحديث عن «حقول التجارب» لقائمة الأشخاص في حياة الكاتب.. ثمة ثلّة من الكتاب وظفوا حيواتهم

الخاصة لأشخاصهم في عمق كتاباتهم بطريقة فذة جداً.. على سبيل المثال الكاتب الياباني «هاروكي موراكامي» الذي ولد في عام 1949م وله حوالى اثنتي عشرة رواية.. لا تكاد تخلو رواياته تلك من لمحة من لمحات شخصيته وكيانه والمعروف عن الكاتب أنه طفل وحيد لأبوين درسا معاً تاريخ الأدب الياباني.. وتتبدى هذه الصفة في روايتيه «الغابة النروجية» و«جنوب الحدود غرب الشمس» فالبطل في كلا الروايتين طفل وحيد.. لكن تظهر عقدة الطفل الوحيد على نحو فاغر في روايته الثانية ففيها يقول البطل «هاجيمي» معترفا بتلك العقدة: **«كرهت مصطلح «طفل وحيد»، شعرت كلما سمعته بأنني أفتقد شيئاً - كما لو أنني لست إنساناً كاملاً - كان مصطلح «طفل وحيد» يشير إلي بإصبع اتهام ويقول لي: «ثمة شيء ينقصك، يا صديق»..**

كما تتكاثف تلك العقدة في هيئة أمنية في روايته «الغابة النروجية» فالبطل «واتانابي» حينما يصحب صديقة صديقه «ناغاساو» التي تدعى «هاتسومي» إلى ناد ويراها تمارس لعب البليارد يعترف لها: **«أنت تعرفين، حين كنا نلعب البليارد قبل قليل، خطر على بالي شيء، لقد كنت طفلاً وحيداً لأبوي، لكني لم أشعر مرة خلال الزمن الذي كبرت فيه أنني متوحد، أو لم أرغب في أن يكون لدي إخوان أو**

أخوات، كنت سعيداً بكوني وحدي، ولكن فجأة، وأنا ألعب البليارد، داهمني الشعور بالرغبة في أن تكون لي أخت صغرى مثلك، رائعة فعلاً وجذابة». .

درس «موراكامي» في جامعة «واسيدا» بطوكيو وكان تخصصه «دراما» كبطل شخصيته «واتانابي» في «الغابة النروجية» الذي كان يدرس «تاريخ الدراما» ولم يكتف بهذا الجانب المثيل بينهما بل إن «موراكامي» اعترف أنه اشتغل في محل لبيع أشرطة الكاسيت وتأثير هذه المهنة الأولية في حياته جمة فبطله «واتانابي» أيضاً كان يعمل في دوام جزئي في محل لبيع الأشرطة هذا أولاً، وثانياً اكتسب الكاتب خبرة حافلة في موسيقى المعازف الغربية خصوصاً والكلاسيكية ويظهر هذا جلياً للعيان من خلال أسماء رواياته التي تحمل أسماء معازف غنتها فرق ذات شهرة مخضرمة كفريق «بيتلز» أو «الخنافس» وغيرهما..

تزوج الكاتب صديقته التي كانت تدرس معه في جامعة طوكيو وتدعى زوجته «يوكو» ويبدو أن الكاتب في روايته «جنوب حدود غرب شمس» يصف زوجته بشكل ضمني، تلك الفتاة التي قابلها في طوكيو وانجذب كلاهما للآخر وتزوجا.. والحافل في المسألة أن «موراكامي» يذكر

في روايته هذه فضل والد زوجته عليه.. فهو الذي أعانه على فتح بار في أولويات حياته قبل أن يكون كاتباً والذي تركه فيما بعد كي يتفرغ للكتابة وقد عبرّ عن هذا من خلال بطله «هاجيمي» الذي يفتتح باراً بفضل والد زوجته وتتحسن ظروفه المالية بشكل كبير.. وهنالك جدلية مماثلة أخرى فالبطلان في كلا الروايتين شغوفان بالقراءة.

يعرف عن «موراكامي» بأنه عدّاء ماهر، وقد شارك في حوالى 25 ماراثون جري.. وهذه الرياضة يمارسها يومياً بعد أن يستيقظ في الساعة الرابعة فجراً يعكف خلالها على الكتابة حتى تأذن الشمس بالشروق.. فيبدأ متعته في الجري لمسافات طويلة.. في «كافكا على الشاطئ» الصبي «كافكا تورو» يمارس رياضات شتى كالجودو والجمنازيوم كما أنه يمارس الجري لمسافات طويلة والسباحة.. كما شخصية «جندي العاصفة» في روايته «الغابة النروجية» الذي يعكف كل صباح بهمة عالية على ممارسة تمارينه الرياضية.

وللكاتب التركي «أورهان باموق» تجربة مثيرة مع أشخاص حياته.. فاسم «حسن» في كل رواياته مجسد كإنسان شرير.. وحين سأله أحد أصدقائه وكان يدعى «حسن» عن مبعث الشر في كل مسمى حسن في رواياته.. فاعترف الكاتب أن ذلك يعود إلى حادثة وقعت له في سن صغيرة

حين قام طفل صغير بضربه تحت عينيه بحجر من نبلته وكان يدعى «حسن»..!

وقد صوّر الجزارين الذين قابلهم في صغره على أنهم رموز فزع وقسوة.. بينما الكلاب على أنها مخلوقات جالبة للحذر والشك.. لكن حبّه للجياد جعله يلصق بها نعات أصيلة كـ الرقة والبراءة والحرمان ورهافة الحس.

ثمة ضوء ساطع يتنشل الكاتب من زاوية الظل ليجد نفسه على حين ومضة في صورة جماعية مع أبطال شخصياته.. إنهم تمكنوا بنجاح من جرّه إلى حيث هم يحلقون حالمين.. متألمين.. مغتبطين.. كيفما بلغت حدة تلك الانفعالات.. إنها بالحياة وحدها تضج فيهم.. فالحياة الممتلئة المحاطة بالكاتب هي التي تصنع منه واقعه الكتابي.. حتمياً في شرارة الانطلاقة الأولى بمجمل واسع النطاق.. ولكن بعد ذلك يستعيد الكاتب ذاته.. متحرراً منها إلى الآخرين وعوالمهم الشائكة.. يضيّق كيانه ليتمدد في كينونة الآخرين.. بينما ذاته الخاصة يفرغها في جرعات فيكون حضورها متذبذباً في كل كتابة وكتابة وتغدو الشخصيات التي يسجل عنها حقائقها هم بمثابة أصدقاء يألفهم ويألفونه، ومع مرور الأيام يصبحون رفقة مقربين وكأنما معارف عبرت حياة الكاتب في زمن ما.

إشباع النسغ الذاتي ضرورة؛ لأنها وحدها تعيد لقامة الكاتب توازنه في الرؤية إلى العالم والآخر بأسلوب لا ينقصه حكمة ودراية خفايا الشخصيات.

ولا يعني التدفق الكتابي في حياة الكاتب الامتلاء الخارجي وحده بل يستطيل داخله، ففي قاع كل إنسان عالمه المعني به وحده.. الضاج بالحياة كما رتبها برغباته.. كما استقى معالمها بحرّية مزاجه.. كما يعشق أن يحياها.. فهذا الامتلاء القاعي والقشري يمدده على امتداد الحياة في قوالب عدة سواء صبّها في موهبة محددة بذاتها أم فرقعها في تطلعات أخرى تمس كيانه الإنساني والآخر.

وهذا التحرر.. يجعل الكاتب يستقي من حياته ما يلائمه وينطلق منها إلى شؤون أخرى تضاف إلى مسيرته الشخصية أولاً ثم الكتابية ثانياً.. هو الذي يقوم بدور الكاتب والناقد والمراقب.. فحياته هنا أشبه بدور مخرجٍ مع ممثلي الفيلم ففي بعض الأحايين يكون المخرج مخرجاً وممثلاً في آن.

أليس «أورهان باموق» برواياته استحق عن جدارة جائزة نوبل..؟

اعتقادي يؤمن أن حياته المثيرة هي التي كافأته في النهاية..

32

أنابيسي..

في خضم إلقاء الضوء على الكاتب وصلته بالموجودات من حوله ثمة تساؤل قوي يحتك بي في هذه اللحظة بالتحديد وهو: هل الكاتب الذي يعجز عن إثارة التغيير في واقعه الراكد بقادر على أن يفجر تغييراً في العالم الذي يدور في دهليزه..؟!

أبداً.. الكاتب الذي عجز أمام أفكار واقعه بالتغيير أكاد اجزم بأنه لا يجسر على إجراء تغيير في واقع العالم..!

هكذا يواجهني فكري: لقد فشل في تحدّيه الصغير فكيف إذن في تحدّيه الكبير..؟!

إن الحياة لا تمنح عظمتها على وجه اعتباط. . !

فأولئك الخالدون في بطن التاريخ استحقوا عن جدارة عظمتهم وخلودهم.. فعلى مستوى الواقع كان التمرد لصيق

تركيبتهم الإنسانية.. تمردوا على شخوصهم.. تمردوا على واقعهم.. وهذا التمرد سرعان ما تعاظم وتمدد ككائن مهُول لم يكتف بعالمه الصغير فأراد عالماً أكبر يليق بحجم تمرده وأحلامه وتطلعاته في الحياة.

وبقدر حجم الأحلام وشدة تأثيرها يكون حجم التمرد وانطلاقته. . !

فـ «غيفارا» أراد أن يحقق الحرية وتمرد على الجميع من أجل حريته.. ألم يطلق صرخاته في كل البقاع قائلاً بأعلى تمرد: «**إما أن نحقق الحرية وإما أن نبقى معذبين**» ودفع ثمن حريته.. لكن الضريبة خلدته بطلا في عقل الكون..!

و«مالكوم إكس» أشد السود غضباً في أميركا.. وربما انفقأت جمرة الغضب والأسى في داخله.. حين كان أحد تلاميذ نهاية المرحلة الثانوية.. وطلب أستاذهم أن يتحدثوا عن أمنياتهم في المستقبل فتمنى مالكوم أن يصبح محامياً غير أن الأستاذ نصحه بأن يلغي المحاماة من أحلامه؛ لأنه زنجي وعليه ألا يحلم بالمستحيل فمهنة المحاماة مهنة غير واقعية له والأنسب لمن هو في وضعه أن يعمل نجاراً..!

وهذه الكلمات غدت قذيفة مرارة وقسوة على وجدان مالكوم.. فالأستاذ بارك أمنيات جميع التلاميذ عدا صاحب

الجلد الأسود لأنه في نظره لم يكن مؤهلاً لما يريد تحقيقه..!

على غرار ذلك ما حدث مع «فرانز فانون» الذي وبخته امرأة بيضاء وقالت له: «**أيها الزنجي القذر**» لمجرد أنه ارتطم بها في الزحام وبلا قصد..! من غرابة القدر يحدث هنا تصادم عكسي بين معلم «مالكوم إكس» ومعلم «فرانز فانون» فـ«فانون» عندما كان طالباً في جامعة ليون كان من تقاليد الجامعة أن توضع أسئلة الاختبار في سلة ثم يلتقط كل طالب سؤالاً منها وكان أحد أساتذة فانون قد أحس بالإشفاق عليه فساعده على التقاط سؤال؛ وعندئذ رمى فانون الورقة ومدّ يده إلى قعر السلة ليحصل على حصته من الأسئلة.. فقد رأى في هذا الإشفاق إهانة وتقليصاً من شأنه وكيانه الإنساني لمجرد كونه أسود..!

واضح أن تمرد «مالكوم إكس» وكرامة «فرانز فانون» أثّراً في مسيرة تاريخ السود.. ولا شك الفضل يعود إليهما وإلى كل المتمردين السود بطريقة ما إلى تزعم «باراك أوباما» رئاسة أميركا اليوم..!

كما قاد «فوكنر» معركة تحرير العبيد في جنوب أميركا.. «ميغيل أستورياس» كان يعيش في المنفى.. الكاتب «تشيكوف» الذي حارب الذل والعبودية وكل قصصه كانت

زاخرة بالوقائع التي عاشها وتمرد عليها.. والشاعر الملعون «رامبو».. مثله مثل «لوركا» الذي قال مرة على لسان أحد شخوصه في مسرحية «ماريانا»: «وما الإنسان دون حرية يا ماريانا، ودون هذا الضوء الثابت المتناسق الذي نشعر به في أعماقنا، وكيف يسعني أن أحبك إذا لم أكن حراً..؟ قولي لي، كيف يمكنني أن أعطيك هذا القلب القوي إذا لم يكن ملكي..؟!»

وكان دمه فداء لإسبانيا على يد الفاشيين الذين اغتالوه؛ لأنه نادى بالحق لكنه نال بالمقابل المجد والفضل يعود إلى غرناطة..

كل هؤلاء خضّت حماستهم دماؤهم التي كانت تغلي مطالبة بأحلامها الخاصة.. زاعقة بحرية أفكارها.. إنهم لم يكتفوا بذواتهم برؤيا المطالب بل شقّوا الدروب الشائكة والملغمة وراكموا الحجارة التي رجموا بها عبر مسيرتهم المتمردة وحولوها سلماً للرقي.

صغير كل من يصغر عن مطالبه.. كل من يخضع نفسه لمطالب الآخرين من أجل إرضائهم..!

في إرضاء الآخرين تكمن الخطورة؛ لأنك ستظل ذاك العبد الذي تخلى عن حريته الإنسانية التي منحت له.. تركها

لأنه لم يجرؤ على تسخيرها لمصلحته وهو قمة العبودية الإنسانية.. لأننا ولدنا أحراراً..!

كل ما سبق يمكن تسميتهم بالشخصيات النامية التي سعت بجسارة ممزوجة بالقهر والتحدي والأهم بالتمرد إلى خلق حضارة تسعى إلى أن تصير هي نفسُها بيئة نفسها وتحديًّا لنفسها بل ومجال عمل لنفسها.. وبعبارة أُخرى إنّ مقياس النموّ هو التقدُّم في سبيل التحقيق الذاتيّ.. ويكون ذلك عن طريق المبُدعين من الأفراد أو بواسطة الفئة القليلة من هؤلاء القادة المُلهَمين؛ إذ تستجيب لهم الأكثريّة عن طريق المُحاكاة الآليّة التي تُمثِّل الطريقة الغالبة في عمليّة الانقياد الاجتماعيّ..

والمعادلة عينها تجري على الكاتب.. فالكاتب حين يتضاءل تمرده في واقع شخصه مع الآخرين سوف تتضاءل نفسه أمام مرآته.. فمهما كانت البدائل التي استقاها ليرضي بها رغباته الصغيرة والآخرين لن تجدي نفعاً.. فنفسه المتمردة التي عجزت في امتحانها لن تغفر له ذلك.. لهذا سيعجز عن إحداث أي تغيير يمس العالم إلى أن يتغلب على نفسه التي خذلها..!

مفهوم التمرد هو في ذاته اعتراف بشيء ما سبق واعترف به الإنسان المتمرد.. هو تطلّع داخلي يرغب فيه

المتمرد بكل كيانه كي يثبت وجوده أولاً في واقعه ثم في واقع العالم.. لهذا كان سلوك التخطي والتخلي عن الشيء الراغب فيه هو ما يثبط الهمة عن مطالبته في الآخرين فما فقدناه من مبدأ لا يمكن لنا إرساؤه في الآخرين مطلقاً..!

«من يخف الموت سوف يحمل موته دوماً على كتفيه..!» هكذا كان إيمان «لوركا» يردد بينما أنفاس غرناطته تُخنق..

الكاتب إنه ذاك الرجل الذي تاه بقاربه في النهر وكافح بما يفوق أضعاف طاقته الطبيعية في التجديف عكس التيار كيلا يسقط في الشلال.. وعلى حين فجأة لاحت له فكرة وطبقها.. جذف مع التيار.. بكل قوة نحو الشلال وصاح بأعلى صوته: الآن أنا حر..!

«من السعادة في كل عصر أن يكون هناك من لديه فردانية كافية وشجاعة كافية ليقف من أجل قناعاته» هكذا يقول «روبرت جرين انجرسول»..

والأكثر إقناعاً هي حماسة «رينيه شار» وهو يخاطبنا قائلاً: **«افرض فرصتك، شدّ على سعادتك وضمها، واذهب صوب مجازفتك، هم لفرط رؤيتك سوف يتعودون»..**

والحرية عبء يا أنابيس.. لم تخلق لمن اعتاد عبوديته..!

33

هنري يا روح قلبي..

لكن من وجه آخر قد يغدو جبن الكاتب كإنسان في زوبعة محيطه الشخصي هي الطاقة التي تفجر كلماته حمماً.. أي يتكئ على لغة كلامه مستعيضاً بها عن الفعل..!

وهي في ذاتها في رأيي مرارة أخرى تضاف إلى روحه المنهكة جزئياً لعجزها عن الفعل.. لتنتهك بذلك كلياً في هيئة كلمات يتقولها أمام الملأ متقوقعاً بذلك بين عجزين حقيقيين..!

فهو في دخيلة نفسه يزن جيداً قامته كإنسان وكاتب.. عجزه على المستوى الإنساني كفرد عادي يمارس حياته مع ذاته.. ومع الأفراد من حوله في واقعية الظروف التي يحياها.. وككاتب تتأوّل كلماته أمام الناس كحكيم.. أو كفيلسوف.. أو كزنديق.. كمشعوذ.. كنزيه.. محدثاً تزاوج «كلمي» و«فعلي» بالقوة التي تتزاوج في جوارحه أو لا يزاوجها..!

لهذا يمكن القول بأن انتحار «همنجواي» لم يكن جبناً.. فهو أدرك حجم نفسه في عجزها عن إحداث تغيير كيفما أراده في جوارحه ككاتب مسؤول أمام كلمته.. وحينما خذلت الكلمات روحه اختار الانسحاب إلى زاوية عتمته.. من نفسه المخذولة التي باتت تؤنبه أولاً ومن الحياة التي اتكأت ثقتها على عاتقه ثانياً..!

والكاتب الياباني «ياسوناري كاواباتا» وهو أول كاتب ياباني نال جائزة نوبل ولكن يبدو أن المكانة السامقة التي وصل إليها لم تكفه ذريعة.. ليكف عن حبس أنفاسه منتحراً باستنشاق الغاز..!

بل أي خيبة دفعت كاتبة بوزن «فرجينيا وولف» إلى مغادرة العالم بجيوب ملأى بالحجارة..!

ولعل انتحار شاعر الفلاحين والفقراء «ماياكوفسكي» كان أعمق استشفافاً.. فهذا المناظل الذي كان محرضاً جماهيرياً على الثورة والتغيير حين خانته الثورة وخنقته خيبة الحياة العاطفية وبعد سهام النقد اللاذع التي اخترقته من الصحافة الأدبية.. انتصر هروبه وكأنه كان يعد انتحاره حين ردد في وقت ما: «**أليس من الأفضل أن أنقّط نهايتي برصاصة**».. وقد نقّطها كما قال..!

لا يأتي انتحار الكاتب من باب الفراغ..!

ثمة أسباب روحية على وجه التحديد هي التي تعصر كيانه حتى يجسر على فعلة الانسحاب الكلي من الحياة وبإرادته.. وهنا الإرادة معمول بها مقام الفعل.. فإرادة الكلمات حينما يئست عن تأثيرها تكثفت في الروح إرادة أخرى وهي فعل انتحار.. إن الكلمات التي يكتبها الكاتب هي مخزون دمه وروحه التواقة إلى إحداث تغيير في العالم من حوله.. إلى فرض توازن.. وإلى إثبات شيء ما.. وحينما تعجز عن أداء دورها المرغوب فيه.. ينشأ عن هذا اضطرابات هائلة تفترس الكاتب - نفسه - ضحية لها..!

وهذا المعنى لا يشمل دائرة جميع الكتاب.. هي فقط لأولئك الذين غدت الكتابة بالنسبة إليهم/ لهم تساوي الحياة/ حياتهم.. كروح ودم وأنفاس وبموتها يخسر دمه وروحه وأنفاسه..!

«ما من موهبة تمر دون عقاب..!»

يوم طولب بجلد الشاعر «والت ويتمان» أمام جمهرة الناس عقاباً له على ديوانه «أوراق العشب» اكتفى ويتمان بالقول: **«توقعت الجحيم ونلته»**..!

وعلى هذا.. فإن كل كاتب سيجر ضريبة عباراته خلفه

إن صدقاً أو كذباً.. ووحدها الحياة هي الحكم..

ويحجم كلمات الكاتب تقدر حجم محاكمته.. وهذا أساس الاختلاف بين كل كاتب وكاتب عبر الحياة..

ألم تكلف رواية «آيات شيطانية» لسليمان رشدي رقبته في حقبة ما.. كما فعلت الكلمات مع الروائي الايطالي «روبيرتو سافيانو».. ليكون مطارداً من المافيا في كل بقعة من العالم.. ؟!

وفي القرن التاسع عشر للموهبة كانت ضرائبها على المبدع وشخوصه..!

وقد أبدع «غوستاف فلوبير» في خلق شخصية «إيما بوفاري» تلك المرأة التي انتحرت في النهاية وخلّفت قضية انتحارها ضجة هائلة في عصر سعى فيه «فلوبير» إلى صهر الأدب الخيالي بالواقع وإلى إلغاء التراتبية في مجتمع طبقي لا يسمح فيه للبسطاء والمعدمين بحق التمتع بالمتع الذهنية.. لهذا كان على بطل «فلوبير» المرأة المدعوة «إيما» وهي ابنة فلاح فقير أن تدفع ثمـــن سعي إدماجها تلك الروايات الخيالية المفرطـــة التي قرأتهـــا في الدير وسعت إلى خلق تكافئها في الحياة التي تعيشها مع زوج بائس يعمل طبيباً في قرية بائسة..!

لعل الرواية وظّفت أسباب الانتحار للقارئ في كونها لم تعد قادرة على تسديد ديونها بسبب مغامراتها خارج العلاقة الزوجية وفي المغامرات في ذاتها أحبطت «إيما» عن ذاك البون الشاسع ما بين الحياة التي حلمت بها وصيرتها في النهاية مع زوج بائس.. هذه الأسباب المنطقية الموظفة ولكن الشقاء الحقيقي لبطلة «فلوبير» باعثه أنها غالت في خيالاتها في الخلط ما بين الأدب والحياة في عصر نبذ بشدة تمتع بالمتع الذهنية للطبقات الدونية وحصر الأحلام والخيالات للطبقات الرفيعة وفصل ما بين الأدب الراقي والمبتذل والشخصيات الرفيعة والسوقية.

كان عقاب الشخصيات الورقية سمة بارزة في ذاك العصر حيث «بلزاك» و«بروست» كانا يسعيان إلى معاقبة شخصياتهم لجرائمهم في حق الأدب والفن؛ ففي رواية «البحث عن الزمن الضائع» يبتدع «بروست» عقوبات في حق شخوصه الذين همّشوا كل من الفن والأدب كمعالم تزيينية تتصدر صالوناتهم وينظم فوضى حيواتهم الفارغة من الحب ففي الرواية يقوم بتزويج «سوان» بامرأة غبية «دون مستواه يحبها لأنها تشبه إحدى شخصيات الرسام «بوتيشيللي» ويرسل «سان لو» إلى حتفه في ساحة الوغى ليدفع ثمن أحلامه بملحمة جديدة.. ويقيّد «شارلو» الذي يتعامل مع

الأعمال الفنية كذكريات لمجد نبيل في مبغى جوبيان..!

كان في ذاك العصر على الجميع أن يدفع ضريبة إبداعه واستحداث أفكاره.. والعقاب المجتمعي كان على أشده و«فلوبير» دفعها من نفسه أولاً حين أقيمت عليه دعوة أمام المحكمة بتهمة الإساءة إلى الأخلاق وإلى الدين بعد صدور روايته «إيما بوفاري» التي جعلها تدفع هي الأخرى ثمن الغلو في التخييل بين الواقع والخيال وكان يفترض حصره في عالم الكتاب فقط..!

الكتابة صراع جبار يا هنري.. لا يطيقه إلا المؤمنون بحرية أنفسهم قبل إيمانهم بحرية الكتابة.. فلا إيمان حقيقياً إن لم ينبثق من تربته الأصلية.. نحن لا نستعيد الإيمان من الآخرين كما الحرية تماماً..

الحرية

الحرية

الحرية

آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه... كم من جرااااائم اقترفت باسمك أيتها الفاتنة.. الدهشة.. الساحرة يا من يطلقون عليك «حرية»..!

هذه اللفظة المُعذّبة التي شقي في سبيلها جميع الفرسان النبلاء تذكرني بـ«غالا» حبيبة المجنونين «بول إيلوار» و«سلفادور دالي»..

«ايلوار» هذا الشاعر المرهف الذي سبق «دالي» إلى قلب هذه المرأة وتزوجها... «ايلوار» الذي أفنى عمره عاشقاً وما قوله عبارة: «**وهل ولدت إلا لأعرفك واسميك حرية**»... سوى تسمية أخرى لحبيبة قلبه «غالا» التي كان يدعوها «حرية»..!

ولكن «إيلوار» طلّق حريته.. ربما لأنه كما كان يوقن أن «**ليس لليأس أجنحة ولا للحب أيضاً. لكنني حيّ مثل حبيّ مثل يأسي**» كما كان يردد في قصائد حبه... للشعراء مذاهبهم يا حبيبي.. طلقها ليستولى عليها السوريالي النحيف «دالي» المهووس في حبها والمدين لها بعبقرية فنّه حتى قال عنها: «**إن كل رسام يريد أن يكون مبدعاً وينجز لوحات رائعة عليه أولاً أن يتزوج زوجتي**»..!

لذيذ قدر هذه المرأة «غالا» التي صمدت كعاشقة في وجه طوفان عاشقين عبقريين مع وصمة جنون.. عاشقين من وزن ثقيل كـ«بول ايلوار» و«سلفادور دالي»..!

من مدونة هنري ميللر: رجل أناني مرغوب فيه..!

(4)

حكايتي مع الأحلام..

لم تكن لي أحلام.. ولم أتعب يوماً خيالي المغرور كي أتبحر فيها.. رجل مثلي «نرجسي» في تطلعاته.. تسجد النساء تحت قدميه بلا أدنى كرامة.. يتلذذ بتعذيبهن، لعل ذلك كان من أوحش تطلعاتي إليهن.. وأوفى خضوعي لهن.. عندما كنت أجدني أمام أنثى غضة كالخزامى.. نقية من التدنيس.. حينها فقط! تركبني خسة ما.. وضاعة لست أدري من أين واتتني جسارتها..؟! فانهال عليها قذفاً.. شتماً لاذعاً.. ركلات وصفعات لا تهدأ عن الغليان.. وعندما أشفي غليل سياط منها.. احملها بين ذراعي قطة خنوعة كمد الرعب مواءها حتى الإعياء.. اتركها حيث هي قشة لا تملك حراكاً.. أحمل كلي والأرض مفترشاً حواليها أضعاف الأجر المتفق عليه.. وفي اليوم الذي يليه.. أسبح في ملكوتها رجلاً آخر لم تألفه.. رجلاً غادر ذاته.. متلبساً وجهاً وديعاً كحمل.. كطفل..

وإن أضحت لي أحلام في عهد ما.. فإنها قطعاً ستتأرجح بين باهت وواهن.. أشبه بمنظر جميل مصوّر على الحرير.. ولن تلد عن نطاقها شيئاً ذا بال.. فرجل يحيا في زريبة همجيته.. ماذا يمكن أن يخرج من صلبه لمن حوله..؟! ما الحياة التي يمكن أن يتطلع إليها؟! وأي أفلاذ أكباد سيحملون على أكتاف تاريخهم اسمه..؟! اسم لم يرد سوى في عتمات الكون.. في حدود جغرافية على مقاس عجرفته.. خائر كالثـور.. تستفزه غواية ملطخة بحمرة ماجنة.. هي حدود رؤياه..؟!

ففي الختام كل المفاهيم تغيب في حضرة شرشف حار.. بعيداً عن وشاية الشمس.. بعيداً عن أعين مثقوبة فضولاً..!

هكذا كنت دائماً أمجّ دماغي.. أؤثثه بتلكم التخريفات الملوثة.. كل أحلام البشرية بالنسبة إلي كانت ساذجة ومقصلة للوقت ونقصاناً للعمر في الوقت الذي كنت أفضل أن أمسّد فيه ساقي الحياة المثيرة التي تغرينا بوعود مغلفة كالهدايا أعتى بأضعاف من اللهاث خلف تخريفات يشكّلونها على هيئة أحلام..!

تلك الأحلام الحمقاء هي لأولئك المغفلين الذين

تخذلهم حيواتهم عن امتطاء لذة الواقع فيغدو لهم الحلم كسرة الإنقاذ التي تبعثهم أحياء.. كنت أخالني خارجاً عن نطاقها.. فأحلامي هي وقائعي.. أصنعها في لحظتها واردمها في اللحظة ذاتها كيفما رغبت خمرة أفكاري.. أحلامي تلك التي تسير بإرادتي بل هي إرادتي تجاه ما أريد وما أشتهي.. وكل الذي كنت أرغب فيه كان كائناً لي حيثما كان وكيفما كان.. فكانت الأحلام مصيدة سهامي أقتنص بها غنائمي سهماً قوساً.. وربما يفنيها ذاك السهم بمزاج طيشي.. وربما يلعقها جرحاً تستعذب حتى الموت.. وربما تكون بين يدي عبثاً سرعان ما أضجرها..!

لكنني وعلى امتدادي بك.. أدركت أهمية أن يكون الإنسان حالماً.. روعة أن تطال يد أمنياتها في جوف خيالها بينما يقظتها عاجزة حتى عن شمّها.. تلك الحاجة التي تدفع البشرية المفقودة إلى مادية الإنسانية أن يجعلوا من الأحلام مبعثاً للفرح يدثرون به كفيف شتائهم القاسي.. ليال عريضة وربما سنون ممتدة يتسلقونها بفضل حلم ضئيل يُسكب قطرة قطرة.. والمدهش حقاً أن تلكم القطرات الشحيحة كانت تمدهم بوقود الأمل وتراكض خطواتهم إلى الأمام بهمّة مدهشة رغم خواء ما حولهم.

لكن ما أنذله ذاك الصقيع حين لا يكيل دفئه على إنسان ملك الحياة كلها سوى دفئها يستغيثها يستميلها لكنها لا تأبه له.. وهو مريض.. ولهان بها..!

وكنت أنت ذاك الحلم الذي رماني في سبيلك عليلاً لم تفلح أدوية العالم في شفائه.. في استئصالك من أعماقه.. وكنت أنت الحلم النيزكي البعيد القريب الذي بذلت فيه جل سبلي لنيله بمجرد العبور من دربه فأعياني هيكلاً من لا شيء..!

يتبع...

34

أنانيسي..

ربما جاء الأوان.. كي نكسر قيم المجتمع المنمطّ..!

أي تخطي القيم التقليدية.. فعالم اليوم ليس كعالم الأمس.. عالم جيمس جويس وفوكنر وفرجينيا وولف.. أولئك الذين كانت المحبرة تمتص أحزان قلوبهم على أوراق مقدسة.. وجاء جيل يترجم خياله وعواطفه على الآلة الكاتبة ثم خلفه جيل يتكتك بأصابعه الرشيقة على شاشة تدعى الحاسوب..

استغناء الكاتب عن أداة الكتابة الأولية التي قدست «القلم» ولجوؤه إلى الكتابة بحروف الكترونية يكون قد كسر نمطاً ما.. كان عنيفاً واستبدله بنمط بديل متحضّر متماهياً مع تحضّر المجتمع..

وكل جديد يُنجب توجّسه معه..!

فالكتاب القدماء توجسوا من مسألة «الآلة الكاتبة» عندما هبط عليهم هذا الشيء باعتباره اختراعاً.. كونها أداة تصدر ضجيجاً والكاتب كما هو معروف له علاقة وثيقة ونفسية بالدرجة الأولى مع العزلة والهدوء؛ ليغري تأمله الكتابي الذي يهطـــل عليه كإلهام في حالة سكون.. لكن القرن العشرين فرض اختراعه عليهم.. وكثير من الكتاب تخلوا عن أقلامهم واستلهمتهم الآلة الكاتبة وضجيجها روايات صاخبة..

ويعد الكاتب «مارك توين» في روايته «حياة على المسيسيبي» وهو أول كاتب تحسست علاقته مع الآلة الكاتبة حينما تعطلت آلته القديمة التي اعتاد صوتها حين كان يملي نصوصه على سكرتيرته.. مما جعله يعاني أزمة كتابة حتى قام بإصلاحها..!

لكن الفيلسوف الألماني «نيتشه» تأقلم مع وضع الآلة الكاتبة وكان مضطراً؛ نتيجة لمرض في عينيه..

تحطيم الأنماط ليس قاصراً في فعل الاستخدام تجاه الأشياء بل الأهم من كل ذلك.. هو تبديل نمط الأفكار وهذا يخلّف تبديلات متخالطة.. فتبديل فكر يعوّل عليه تبديل كل الأنماط الباقية.. وتبديل نمط يقابله تبديل حياة.. تبديل إنسانية.. تبديل كل شيء..!

أليس من الممل أن يحمل المرء نمط حياته كما تحمل الحلزونة بيتها..؟!

ما أعنيه أن لا شيء مقدساً.. كل ما حولنا عابر **«فكل شيء يتحرك، وكل شيء يسافر.. وكل شيء قابل للتبادل: البشر والأشياء والموسيقى والصور والأفكار»**.. هكذا صرّح الكاتب الصحفي «غي سورمان» في كتابه «عالم مدهش» وعالمنا كم هو فاغر الدهشة..!

لهذا على البشرية أن تخلق إبداعها في كل شيء.. كي تخلق من دهشة واحدة دهشات متكاثرة لا يترهل وميضها.. حدّقي إلى الأطفال يا أناييس.. كم أرواحهم مرنة.. كم هم مسكونون بالمرح ودائمو الدهشة والانسجام مع كل شيء تسقطهم فيها الحياة.. كتفاحة «نيوتن» تغدو جاذبيتهم تجاه متغيرات الكون..!

فإن عجز الإنسان العادي عن تحويل حياته إلى سلسلة من الدهشات كالأطفال فهو عذر يغفر له.. إذ ليس ثمة قاض يحاكمه ويجبره على غير ما هو عليه.. لكن الكاتب أمام مجابهة حقيقية ولن يغفر له العالم بقاءه على نمطه..؟!

إنه محاسب ليس على الشكل الكتابي فقط بل يتعدى ثقلها إلى مدى تفاعل الكاتب باعتباره إنساناً للزحف العولمي الرهيب..

لنتأمل على سبيل المثال اليابان.. ثمة موجة هائلة للمطبوعات الالكترونية يتنافس فيها أدباء اليابانيون.. فمعظم كتابهم رموا بالكتاب الورقي وراء ظهورهم؛ لأن ثمة دهشات أخرى خطفت لبهم.. كخطوة الكاتب الياباني «رايو موراكامي» الذي فسخ عقده مع أحد الناشرين التقليديين ونجح في الوصول إلى قاعدة أوسع من القراءة عبر «آي باد».. فسحب معه في هذه الموجة الصاعقة كتاب آخرين..

تغيير الأنماط عبر مرور الحقب لا يعني إلغاء ما سبق فتاريخ اليوم لم يلغ تاريخ أمس لكنها ترتيب أولويات.. فمازلنا نشرب نخب «هوميروس» بين فينة وفينة.. ومازالت «ماما تيريزا» في ذاكرتنا هي «ماما تيريزا» التي بذلت روحها في سبيل خير الإنسانية.. هم بدؤوا بحمل الشعلة وجاء آخرون من بعدهم ليعكفوا على اشتعالها ما بقيت الحياة.. لكن طريقة إشعالها في الأولى يختلف قطعاً عن طريقة إشعالها في الثانية أو الثالثة أو العاشرة..

وهكذا هي الأنماط.. إنها تؤمن بضرورة التغيير.. وعلينا نحن - البشر - مسايرتها شئنا أم أبينا.. لئلا نغدو في موقف آخر أشبه بحمالي ساعات تشير عقاربها إلى زمن آخر ليس إلى الزمن المعني الذي نحن فيه..!

وتغيير الأنماط لا ينظر إلى الأشياء من حيث قيمتها . .

فالمخطوطات القديمة اليوم غدت تقدر بالملايين مثلها مثل معظم الأشياء ضاعف تغيير الأنماط قيمتها المادية والمعنوية.. لقد ظهر بعد ملك الروك «الفيس بريسلي» آلاف من المغنيين.. لكن مازال «بريسلي» هو ملك الروك وخصلة من شعره تقدر بأكثر من مليوني دولار أميركي في المزادات..!

لم يقتصر هذا الكسح الهجومي على الأنماط في المجال الكتابي فقط بل اكتسحت موجتها مستقبل الفن السابع.. اليوم أصبحنا نشاهد أفلام تعرض بتقنية «D3» فمن خلال هذه التقنية الثلاثية الأبعاد.. يشعر المرء وكأنه بين الممثلين أو في الشارع بينما تتطاير على وجوههم قطرات المياه وذرات التراب.. خصوصاً إن كنت تتابعين إحدى رقصات «الهيب هوب» بحماستهم المفرطة سرعان ما ينتقل عدواها إليك..! بل «الهيب هوب» في ذاته شقلب عالم الرقص في مصلحته..!

«كالعادة الأدب يسبق الحياة» يا أنابيس.. كما اعترف بذلك الكاتب التركي «أورهان باموق»..!

35

هنري..

تعال وعلمني الحب..!

تناهى إلي مرة قول مأثور يقول: تعلموا الحب من الهنود..!

لعل الذي نطق بهذه العبارة.. استقاها كواقع باعتبار الهنود من الشعوب التي تتمتع بحاسة حب مضاعفة.. وبوليوود تؤكد اعتباري هذا..

هنري.. لا تصدق أن هذا القول مأثور.. ففي هذه اللحظة نبهتني ذاكرتي التي تتصف بالوفاء الساحق أن أناي هي من كانت تدحرج هذا القول ما بينها و جدرانها..!

لكن التساؤل المهم: هل يعوز الحب تعلم كي نتقن أبجدياته..؟!

هل علي أن أتعلّم الحب.. كي أتعاطاه مع الآخرين..

مع نفسي أو معك أو مع أي إنسي ما بين قوسين أو أدنى في هذا البعد الشاسع الذي سمي الكون..؟!

ما يأتي عفواً.. يكتسب لذته من عفويته الآنية..

ما أراه.. وما أؤمن به.. أن كل سير الحب يستحيل أن تكون مكررة وإن تكررت.. أجل قد تكون متلاقية في نهاياتها في حيثيات بداياتها.. لكن يظل لكل عاشقين خصوصية في كل علاقة حب.. استثناء في الألفاظ.. في الأماكن.. في الروائح.. في المأكولات.. في تسمية الأشياء.. في التحديق إلى مرآة الآخر وعينه وفؤاده.

هـذا التصور يرضي غرور كل عاشقين وقعا في الحب.. لأن كـل منهما يؤمن بتوحد علاقتهما وتخلقها على مبدأ الاستثنائية.. الكل يحلم بأسطورته الخاصة غير القابلة للتكرار.

لهذا لم تفلح كل تجارب الحب الفاشلة طوال تلك القرون في أن تخذل قلوب البشرية عن تجريب الحب مرة بعد مرة..!

فما زال الحب متعبدهم.. مازال نصير ثقتهم.. مازال الكثير منهم يردد ما بينه وبين خفايا نفسه قول طاغور: «**آمن بالحب، ولو كان مصدراً للألم، ولا تغلق قلبك**»..

لأن إيمانهم به هو ما يضخّ الهواء في رئاتهم المصابة بالربو سلفاً ليس من الحياة وحدها بل من مجموع البشرية..!

إنهم في أمس الحاجة إلى مثل هذا الاحساس المتسامي بالحب.. لأن الحب غدا بمثابة صلاة.. لا في قدسيتها بل في اعتياديتها.. ولكنها حين وضعت في قائمة الاعتيادية كفت البشرية عن شعور الامتلاء بطاقة الحب.. وهذه هي المأساة الحقيقية لم تكتشفها البشرية بعد..!

كففنا عن الشعور بالحب.. لأنه غدا عادة.. كففنا عن الشعور بالصلاة.. لأنها غدت عادة.. كففنا عن الشعور بالعمل.. لأنه غدا عادة.. ويلاااااه.. نحن نخضّ في محيط متلاطم بالعادات..!

كيف السبيل إلى العتق..؟!

أي درب وجب أن نسلكه.. أي فعل علينا الاحتذاء بطقوسه.. كي لا نتواطأ مع العادة في ممارسة أفعالنا..؟!

إنني يا هنري... لا أكفّ عن قضم هذا السؤال بين كل آهة حب وحرقة شوق ..!

36

ملهمتي أناييس..

الحب فعل ثوري كحب «باريس» و«هيلينا» الذي أحيا حرب طروادة. . !

هذا الحب يبقى وامضاً في قلوب شجعانه.. أولئك الذين لديهم من القوة الهائلة والاستعداد الكلي للتنازل عن كل شيء في سبيل إحياء جذوته الأبدية.

ولا أرى أن الحب بين قلبين عاشقين يتمايز عن طبيعة لعبة بهلوانية تجري في السيرك يا أنايسي.. وتدعى هذه اللعبة «قُبلة الموت» حيث لاعبان من رجل وامرأة يتلاحمان في فضاء شاهق بعدما يتحرران من الحبل الذي يربطهما في آماد تلك السماء من أجل التحام في عناق قُبلة.. باندفاع قوي مغموس بتحد مغامر وخطير يكلفهما حياتهما.. فتلك القُبلة قد تخذلهما في سقوط مدوٍّ لا تحمد عقباه..!

الحب المطلق يعشق تدليل نفسه.. يريد أن يدرك عظمته في قلوب عشاقه.. يجسّ وفاءه فيهم.. سعة حجمه من حيز أحلامهم الفضفاضة.. يريد أن يكون الأول والأخير.. المحظي في ذاكرة العقول والقلوب.. والأبدي في مقاعد الأمكنة والأزمنة.. والمرافق الأوحد في سفرهم الممتد عبر الحياة.. فكم من إنسي على وجه الأرض على استعداد تام أن ينفقئ حباً على هذا النحو..؟!

حين تفقد أرواحنا قيمة الأشياء يبهت ألقها في حضور هذه الأشياء..!

الجميع يتوق إلى الحب ويرغبون فيه مقيماً أبدياً لا ضيفاً عابراً.. لكنهم على غير استعداد للتضحية من أجله.. والحب لا يمنح نفسه دون فدية إنه يختبر مريديه.. يختبر فيهم عطاءهم ووفاءهم ومدى الصبر الذي يضج في أعماقهم من أجله ولا مفر من ذلك لأي كائن محب..!

من هنا يترهل الحب كقيمة نفيسة في حيواتنا.. ويبقى ضيقاً في حيز العبارات الرنانة وشعارات التغني فقط.. أما كممارسة يومية بما يحويه الحب من معنى مقدس.. فقد أشهر اعتزاله عن ساحة الكثيرين منذ قرون..!

سيكف الحب عن كونه عادة.. حين نطلق قيده من

الحبس.. حين نخليه من مسؤولية الشروط.. حين يكون مطلقاً من كل غاية.. فالحب غيمة ليس لها وطن مسّور الحدود.. ببغاء يلهج بطلاقة بكل لغات العالم الأجمع.. وحين يمنح لا يستثني منحه قلباً دون آخر.. الحب ألف نفسه في الكون متحرراً من كل قيد.. حيويًا في كل حضور حي.. في تلك الفسح تعامد ظله كشأن مقدس.. كعبادة... لكن جاء من لم يحفل به كما هو.. جاء من استنصره رفيقاً محبوباً ومن عاداه كشرّ وجب إجهاضه إن لم يحبل بشروطهم.. فشاخ الحب واعتزل ركنه.. وتلك البقية الباقية منه ما هي إلا ذكريات شيخ على مشارف الاحتضار..!

الحب ضد الثوابت كما الصلاة تماماً.. فكلاهما يستدعي حضور الروح.. دون شعلة الروح يستحيلان إلى أفعال جسدية بحته.. غياب الروح هو ما يدليهما على أسلاخ معرضين أمام الرائح والغــــادي كلحوم ميتة قابلة للالتهام فقط كوليمة موقتة سرعــــان ما تترهل بعدها أمعاؤنا من عطب الجوع..!

ما يمنح الحب قيمة هائلة في الفعل البشري وليست عرضية هو استدعاؤه المستمر كربق روحي بوجوده نبقى وبرحيله نفنى.. هذا الحضور يبصم أبديته في أحاسيسنا الإنسانية.. في صلواتنا.. في أطعمتنا.. في أشربتنا.. في

نومنا.. وفي الهواء الذي تتشربه أرواحنا بطلاقة مذهلة.. في زخم تلك اللذات اليومية يكون الحب القائد والمقيد وما علينا نحن - البشر - سوى مباركة حضوره اليومي.

وتتفاوت متطلبات القلوب في الحياة طبقاً لتعدد أنماطها.. فهناك قلوب معلّقة على غصينات الانتظار وأخرى محاصرة في حديقة الكون في بحث دائم عن ظلال لها رغم أشجار القلوب الكثيفة.. وقلوب لديها ما لديها؛ لكنها وحدها ساقطة في قاع بئر خاوية.. وآخرون لا يهمهم سوى القد المياس الحامل تلك القلوب.. وهناك من اختار أن يسد كل الدروب المفضية إلى قلبه ويهب مفتاحها وليمة لبطن الحوت.. لأن القلوب خذلته.. وثمة من غرس قلبه في تربة مقدسة لإيمانها أن وحده من يستحق قلبه كما قلوب العالمين.. طوّعوها لوجه «الرب»..!

هذا التفاوت عائد بالدرجة الأولى إلى تفاوت مفاهيم الحب حسب وظائف المخ واهتمام فكر الإنسان العاشق على مستوى الشخصنة وتناوله مفهوم الحياة والآخر.. فمن قال إن الحب عاطفة فقط..؟! بل عاطفة وفكر ممتزجان في خليط مدهش وفلسفي..!

وقد سئل البروفيسور «هنري بوديتش» أول علماء

الفسيولوجيا بجامعة هارفارد في أواخر القرن قبل الماضي عن الحب فعرّفه بقوله: «**استثارة الجهاز العصبي السمبثاوي تؤدي إلى تحفيز الغدة الكلوية لإفراز كمية أكبر من الأدرينالين لزيادة عدد ضربات القلب لضخ الدم إلى أجزاء الجسم المختلفة، كما أنها وظيفة أساسية تختص بالفص الأمامي من المخ كما ترجع بعض الأبحاث..**»

وهذا يختلف عن تفسير البروفيسور «فرويد» مؤسس علم النفس الحديث.. فهو يرى أن الحب: «**هو الترجمة المقبولة للغريزة في العقل الباطن؛ فالرغبات والدوافع الحسية تظهر على السطح في صورة مقبولة اجتماعية لوظيفة محددة تتعلق بالحفاظ على النوع**»..

بينما الهندي «جواتاما بوذا» يقول ناصحاً عن الحب: «**الحب يا بني هو المعاناة، الحياة سلسلة من الألم الذي يجب التنزه عنه والسمو فوقه، أن تتسامى وتتصالح مع الحياة حتى تصل إلى أعلى درجات السمو والارتقاء «النرفانا»...**
«وعندما سأله أحد تلاميذه عن النساء رد عليه قائلاً: «**لا تقربوهن يا أناندا، لا تلمسوهن يا أناندا، وإذا كلمتك إحداهن فلا تردن عليها يا أناندا..**».!

وعلى خلاف كل تلك الآراء.. كان للحب مذاق لذيذ

علــى لسان «الحلاج»: «الحب يا بني هو أن يذوب المحـــبوب في ذات محبوبه وأن تصبح الروحان روحاً واحدة لا اثنتين. . ».

وفي عالم الصغار للحب شأن مختلف من التفاسير.. حب عفوي طليق كعصفور في فضفاض الكون وقد أجري تقرير عن رأي بعض الأطفال في الحب.. فعلّق طفل في الخامسة من عمره قائلاً: «عندما يحبك شخص ينطق اسمك بشكل مختلف، تشعر أن اسمك في أمان في فمه».. وطفل في الرابعة من عمره عرّفه: «الحب هو ما يجعلك تبتسم عندمــا تكون مرهقاً».. بينما فسّر طفل في السابعة الحب من سلوك والديه: «الحب هو عندما ترى أمي أن أبي غارق بالعرق كريه الرائحة، لكنها تؤكد له أنه أجمل من براد بيت». . !

إننا بحاجة ماسة إلى شقلبة مفاهيمنا في الكثير من الأحيان كي يكون لوجودنا غاية تدفعنا إلى مزيد من الوجود.. فليس كل وجود بشري يمكن وصفه وجوداً حقيقياً.. فالمعنى أعمق من ذلك بكثير.. لعل الحب هو الشاهد الذي يؤكد افتراضي هذا..!

ما أروع وجودك كحب في حياتي يا أنابيسي. . بل ما أغرزه. . !

37

"يومية نن"

لا أدري أي نوع من الهذيان زلزل استقراري الداخلي ليحيله فوضى.. فانتابني شعور غريب كأن أعضائي تعصر كقطع من الأقمشة في غسالة تدوّرها بسرعة قصوى..!

وحده صوت د. رانك.. كان يتخبط بي على نحو وشوشة غائرة في العمق.. إن كلماته تضغط على ذاكرتي.. تفجّرها أكاد أرى شظايا ململمة كجثث هنا وهناك.. في كل مكان.. ذاكرتي ها هي متحررة من رأسي.. تثقب خطواتها بثقة في زمني.. في مكاني.. لا بل في أزمنتي وأمكنتي كلها مذ كنت طفلة صغيرة متشبثة بنهد أمي أرضع الحياة إلى الآن.. حيث أنا امرأة تتسلق عوالمها الغريبة على سلم لولبي من الخيال.. وكل درجة منها تحكي عن خطواتي الثابتة.. المترددة.. الفزعة.. البائسة.. المدهشة وتلك التي نادرة الفرح وتلك التي لا خطوات.. بل قدمان متراوحتان فقط بين خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف..!

أريد أن أنسى أنني كنت طفلة.. لأن طفولتي كانت نقية جداً.. أريد أن أتلاشى عن ذاك النقاء الذي يذكرني على الدوام ببشاعة هذا الزمن المهول بالقذارة..!

وحيــــث الذاكرة لا تنسى سوى ما لا نريد نسيانه.. ويالـ هول ما تذكرت طوال تلك الأعوام..!

فليس ثمة ما لا أريد نسيانه.. ليس ثمة سوى ذاكرة مشرعة في وجه الحياة تفاخر بوفائها الأبدي وكأنها لن تفارق جسدها يوماً..!

بقدر ما يبهجني قوتها يضاعف من بؤسي؛ فليس من السهل أن تغدو ذاكرتك آلة مهما أثث داخلياً تظل كما هي طيّعة.. معطاء.. لا تتعب من التذكر المستمر بل في كل مرة تدهشك بطاقة منح أكبر..!

ربما من الخير ألا أنسى؛ لأن في نسياني وحده يكمن إلغائي.. أليست الذاكرة التي نرغب في أحيان كثيرة في وأدها هي ما تحيينا حقاً كبشر لم يعبروا الحياة فقط.. بل بصموا فيها تاريخهم الشخصي كدليل على وجودهم..؟!

أجل.. أنا بحاجة إلى دليل كالذاكرة تنبهني إلى وجودي.. تؤكد أنني حفرت لي تاريخاً لا هامشاً مرمياً كحفنة من البشر ومضوا على حين غرة ورحلوا بغفلة أخرى.. وفي

كلا الحالتين لا آثار أقدام ولا أصوات ولا ذاكرة... لا شيء سوى هباء ..!

صوت «د. رانك».. يتخلّل ذاكرتي.. إنه يطلبها حثيثاً بالنسيان.. يولم منطقه لتفصيل إقناعه.. بلغته الخاصة.. لغة العلم والمنطق.. لكن ذاكرتي لا تفهم شيئاً عنها.. إنها تفهم لغة الحياة.. القاسية.. المعتّقة.. السّاذجة.. العاديّة.. المملّة.. السّاخرة.. إنها تعي الأشخاص والانفعالات والأماكن والأزمنة.. لكنها لا تعي ما يعنيه «د. رانك» على وجه التحديد..!

لهذا لا نسيان حقيقياً. . نحن فقط نغادر الذاكرة النابضة بأشخاص معينين إلى ذاكرة بأشخاص آخرين. . نجري عملية احتيال بسيطة. . نضخ ذاكرتنا الجديدة بمكملات حياتية يومية جديدة؛ كي تنشغل بنفسها الجديدة وتغادر نفسها العتيقة. . فيحتل الجديد المقعد الأول بينما العتيق خلفه. . إنها فقط ترتيب أولويات والذاكرة بينهما مشتعلة. . !

ولكن الذاكرة عندما تشيخ تهفو إلى مقاعدها المتأخرة... لهذا يستعيد رجل المائة ذاكرته العشرينية تتأجج في كيانه بلذة مفرطة.. لأنها تذيب تجاعيد قلبه رغم أنه ظل طوال تلك السنوات عينها وهو يخلعها من جذورها بفأس حادة لأنها كانت كالدبابيس تؤلمه.. لكن الفرق أنها الآن تحييه..!

إذن لماذا نقضي بقوة غامضة سنوات عمرنا الأولى على ذاكرتنا وكأنها قنبلة نووية تشوّهنا في وهلة.. بينما نعود لاستعادتها بالقوة نفسها حين يزن فقدها الحياة بعينها..؟!

لهذا لا أريد أن أنسى يا «د. رانك».. هكذا صرخت ذاكرتي في وجه هسيس صوته..

لا أريد أن أشوّه ذاكرتي بالنسيان. . !

لا أريد..

لا أريد..

لا أريد..

أضعها هنا - كطلقات ثلاث قاتلات - لا يستردن..!

38

يا شهد ذاكرتي الوحيد، أنابيسي..

«ما ينس كأنه لم يحدث قط».. يوم قرأت هذه العبارة لـ «إيزابيل الليندي» وأنا أخضّ فكري بسؤال مؤرق لم يفارقني قط: هل الذاكرة وحدها هي المسؤولة عن إلغاء كل ما سبق..؟!

ماذا عن شواهد الزمان والمكان.. ماذا عن لغة أجسادنا وهي ترتمي في حضن ذاكرتها..؟!

فالساعة موقتة عقاربها على أجندة أولئك الذين يملكوننا.. والريح تجرفنا إلى أمكنتهم.. إلى المقاعد والمصاطب وإشارات مرورية استوقفتنا معهم.. العين انطبعت على وجوههم.. والأنف لا يشتم سوى رائحة جلودهم.. والفم يهذي بأسمائهم.. واليد إنها تجس تقاطيعهم.. والأقدام إلى حيث هم تطأ آثارهم.. والقلب هو

موسيقاهم الأبدية.. عن أي نسيان نثرثر.. عن أي نسيان..؟!

إن كان ثمة نسيان حقيقي لما ارتمى هذا الكم الهائل من البشر على النسيان لنيل ربقه.. لما قابلنا أطباء نفسيين وهم يعصرون سنوات تفكيرهم؛ كي يبتكروا لنا عقاقير عن النسيان.. لما ألفنا تلك الكتب المكومة كالجثث فوق بعضها البعض بأعدادها المهولة وهي تحرّضنا على النسيان.. كل هؤلاء يدركون جيداً أن لا درب حقيقياً يفضي إلى النسيان.. فوحدها الذاكرة الإنسانية هي التي تقرر نسيانها وما من سبيل نتحمّله سوى أن نتعاطى معها بذكاء خارق كي نخفف على أنفسنا أعباءها..!

متى يحلّ النسيان..؟!

عندما نستعيد كل أشلاء الماضي حتى تلك التي بحجم إبرة رفيعة.. ولا نكتفي بتذكر تفاصيلهم بل نضيف إليها من مخزون خيالنا روائع مذهلة.. في كل الأوقات نستحضرهم.. نستدعيهم في مناسباتنا جلها.. نستبقيهم بيننا وكأنهم وقائع حية متحركة ضمن يومياتنا.. تعرفين ماذا سيحدث بعدئذ..؟!

ببساطة سوف ننساهم بارتياح عميق دون شعور منا بثقل النسيان؛ لأننا أخضعنا العقل بأثقال تفاصيلهم حتى أعلن اعتزاله الكلي.. تحرر منهم ضجراً بحثاً عن تفاصيل

أخرى أكثر تشويقاً وتحريضاً لذاكرة الذاكرة.. ألم أخبرك يوماً أن الذاكرة من هول التفكير في الأمور نفسها تحفر قبرها..؟!

الذاكرة في تفتيش أبدي عما يغويها.. عن أولئك الذين يفرطون مقامها بالمطاردة والخضوع ودونها ما هم سوى دمى بأعين جميلة فقط.. ولكن حينما تكفّ عن إغوائها وتعاملها بلامبالاة ستعافيك هي الأخرى..!

كالأفعـــى تجيـد رقص عزفها بإتقان.. لذا وجب علينا قياس مسافة تواصلنـــا معها بحذر وإلا أردتنا قتلى جثة.. جثة..!

لا تخذلني يا نسياني..

فإن غادرتني يوماً.. فغادرني دونها فهي ذاكرتي الوحيدة عن الحياة..!

39

حبيبي هنري..

من الحب ما يقتل. . !

البارحة حكت لي إحدى رفيقات الحياة حكاية غريبة عن أقوام تلتهم محبيها بلذة.. فيكفي أن تكون محبوباً من قبلهم أو أن تكون فرداً ضمن أفراد قبيلتهم المتوحدة؛ كي يلتهموك بقضمة حب ما بعدها حب..!

وهذه الأقوام تمارس فعلها هذا؛ كي ينصهروا في توحد أبدي واحد مكوناته دم واحد وجسد واحد وروح واحدة مع مجموع توابل العقل والقلب والأعين والشفاه والأحشاء حتى أصابع القدمين وتقام طقوس هائلة بالطبول والرقص والبخور لاحتفالهم الكرنفالي..!

لكن وجه الغرابة الكبرى حين تأسر عدواً. . !

فمن عادة هذه القبائل إذا أسرت عدواً أن تكرمه.. فتتخير له من الطعام ما يجعله أسمن بل تقدم له بنات

القبيلة؛ ليكوّن عائلة وينجب أطفالاً يجري في شرايينهم دم ممزوج بدم القبيلة.. أما الذكور فلأنهم أولاد الرجل العدو فهم وليمة مستساغة لبطونهم خشية الانتقام.. وأما الإناث فلأنهن بنات المرأة يمتنعن عن شي لحومهن..!

يبدو أن هذه القبائل يا هنري.. تكرّم الأنثى لأنها شرنقة بريئة من تاريخ الأذى..!

لكن ما فات هذه القبائل أن قوة المرأة تكمن في ضعفها.. على نقيض الرجل يكمن ضعفه في قوته..!

ليست وحدها الأفلام الأميركية تؤكد اعتقادي هذا بل واقع الحياة البشرية.. ففي الأفلام في معظم المغامرات الجسيمة يكون النجاة من حليف المرأة.. بينما الرجل في الموقف عينه يوكل بالهزيمة عادة.. أما في واقع الحال.. فالمرأة تطيق مهمات شاقة كالحمل والإنجاب هذا إلى جانب وظيفتها التي تكون كوظيفة الرجل وربما أشق بكثير..!

المرأة لا تهزم في معظم تجاربها وتتجاوزها بسهولة أكبر من الرجل؛ لأنها غير مضطرة مطلقاً أن تلعب دور البطولة.. فهي تتصرف وفق طبيعتها.. ليست مطالبة أن تبرز عضلات قوتها على نقيض الرجل الذي يطالبه المجتمع أن يثبت رجولته بالقوة وحدها..!

وعلى هذا الاعتقاد السائد في أعتى مواقف الحياة إذا ما تعرضت المرأة للخطر على يد أحدهم.. يعتقد هذا الشخص – حسبما ضخت فيه بيئته عن خنوع المرأة - أن الكائنة الواقعة في فخّه ضعيفة ومقاومتها هشة وهذا ما يجعله بدوره ليناً معها ومتسامحاً.. وهنا التحدي وحده يشحن المرأة بطاقة هائلة وقودها الحيلة والذكاء قبل قدرتها الجسدية للخروج من المأزق..!

بينما الرجل في موقف مثيل فإن غروره الرجولي يدفعه إلى التسرع.. ليصب جام قوته في أول جولة.. مما يجعل الآخر يدرك حجم خصمه الشديد.. فيضيف الصاع صاعين..!

وهذا ما أكده عالم النفس الشهير «ويلي كارنجي» حين نافح عن عزيمة المرأة وذهب إلى أن المرأة لو وضعت داخل زنزانة بها عشرة رجال من عتاة المجرمين لوجدت المرأة قد تحكمت في كل الرجال الذين أصبحوا ببساطة في وداعة طفل صغير.. أما إذا وضعنا رجلاً فإنه إما يصبح مجرماً مثلهم وإما يطردونه إلى عرض الطريق..!

وهذا بدوره يضعنا أمام حقيقة ثابتة هي حين يكّف الرجل عن ادعاءاته ويتصرف بحكمة أكبر وفق ما يزن حجمه الحقيقي.. فإنه سيتغلب على معظم تجاربه القاسية والمواقف العنيفة في الحياة.

الادّعاء وحده هو ما يحطم إنسانيته.. فليس من العار أن يعترف الرجل بضعفه في موقف ما.. وحين يقرّ بصدق بعدم قدرته في موقف آخر خير من أن تضعه الحياة في اختبارات عنيفة يفقد فيها أضعاف ما هو مفقود فيه..!

الرجل الحقيقي ليس ذاك الذي يصعد على أكتاف أكاذيبه يا هنري، فالمرأة مازالت تعد الرجل الصادق شيئاً نفيساً لن تقايضه بكل كنوز الأرض..!

40

أنابيسي..

غدت المرأة اليوم تهفو على الحياة والتجريب ما لم يكن جزءاً من عالمها..!

هي الآن مثارة للتجريب.. ثمة فضول ما يتسرّب إلى أعماقها السحيقة لتمارس ما لم يكن من فطرتها.. في الأزمنة العتيقة كانت المرأة مؤطرة في وظيفة واحدة وتندرج هذه الوظيفة بين جدران أربعة هي عالمها الوحيد ولا منفذ آخر وكانت تمنع من الاقتراب من الأماكن التي يناقش فيها الرجال والفتيان مسائل عقلية أو شؤوناً مدنية كالملاعب والأسواق ودور القضاء والموائد.. وعندما لمحت الباب مواربأ ولا حارس منتصباً أمام بوابتها.. هذا ما حفزها على تخطي مستودع حياتها بعد أن تم عزلها في ركن كان يدعى «ركن الحريم» يفصله عن الجزء الخاص بالرجال باب مغلق.. إنها بذلك تعدت على فطرتها بجسارة خارقة..!

انفتاح المرأة يعارض آراء كثير من الفلاسفة نقضوا حقها سوى في تربية الأبناء وغزل الصوف طوال حياتها حتى يذكر أن «بنلوبي» زوجة «أوليس» القائد اليوناني الكبير في حرب طروادة الذي ضل طريقه في العودة ما يقرب من عشرين عاماً وعندما تجمهر حولها الخطاب وعدتهم أنها ستقوم باختيار واحد منهم بعد أن تنتهي من غزل ثوب كانت تنسجه لكنها كانت تنقض في المساء ما غزلته طوال النهار.. هذه المرأة الموصوفة بالوفاء الساحق والحكمة النادرة كان لديها ابن يدعى «تليماك» ينهرها ويأمرها كما لو كانت عبداً أن تعود إلى أعمالها المنزلية التي تناسبها كلما صادفها في عمل آخر..!

المرأة كانت مُقولبة في شرنقة الأعمال المنزلية فقط وهذا ما آمن به كثير من فلاسفة الحكمة والحرية وعلى رأسهم الفيلسوف «روسو» - الذي كان يعيش بين أحضان النساء حتى ليصعب على المرء إحصاء أعدادهن ويغتذي بهن جسداً وروحاً - ذهب إلى أن المرأة عاجزة عن الانخراط في عمل خارج الأعمال المنزلية وبدلاً من ذلك نراه يرسم صورة غير معقولة لامرأة كما عبر في كتابه «إميل»:

«لم تخضع قط للمشي ويندر أن تعرف كيف تمشي بعد خمسين سنة من التراخي والكسل»..!

وفي حديث آخر له يحدد ما يلائم كل جنس من الجنسين أي ما هو للذكر وما هو يصلح للأنثى حسبما قررت لهما الطبيعة و«روسو» وغيره من الفلاسفة كانوا يقدسون كل ما أنجبته «الطبيعة» من قوانين فطرية لكل من المرأة والرجل «**فالطبيعة لا تفعل شيئاً باطلاً**» كما أكد «أرسطو».. والطبيعة كما يرى «روسو» هي التي جعلت الأولاد يبحثون عن الحركة والضجيج بينما قدمت دمية بأعين جميلة وقد ميّاس للطفلة الصغيرة؛ وهذه الدمية بالتحديد هي من حددت بوضوح غرضها في الحياة..!

لكن «روسو» نفسه وكأنه عارض آراءه ليعود فيؤكد قائلاً: «**أنا أكرر أن المرأة إذا سمحت ظروفها سوف تبدي نماذج عالية من عظمة الروح وحب الفضيلة بأعداد غفيرة أكثر مما فعل الرجال إذا لم يذهب ظلمنا بحريتهن كل الفرص التي يمكن أن يظهرن فيها في أعين العالم**».!

وحده «جون استيوارت ميل» كان يعارض كل من سبقوه «أفلاطون» و«أرسطو» و«روسو» ليؤكد أنه لا يمكن الحكم على المرأة قبل أن تمنح قدراً من الحرية والتجريب؛ ليقرر المجتمع من بعد ذلك ويخضع قدراتها خاصة العقلية من خلال التجريب وممارسة الحياة خارج نطاق الهودج المقدس؛ لأن معظم الفلاسفة السابقين وضعوا يقينهم في أن

قدرات المرأة العقلية ناقصة وأقل قدراً من قدرات الرجل الفكرية في عالم ذكوري كانت فيه المرأة شأناً مملوكاً كالعبيد بل شجب بعضهم مهمات عقلها كليا حين قرر أن وظيفة المرأة هي الإنجاب فقط وهذه المهمة لا تستدعي من المرأة سوى تغذية جيدة لجسد قوي مادام نمو الجنين يستمد غذاءه من جسمها أما العقل فليظل عاطلاً أو فليلغ تماماً؛ لفناء دوره في عملية الإنجاب..!

لكن وحده مرور الزمن أنصف المرأة.. ففي معظم الوظائف الحديثة التي أوكلت إلى المرأة نجد فيها طاقة هائلة للعمل والإبداع كـ «قاضية.. سائقة تاكسي.. كابتن طائرة.. وسائق ميترو» وهي وظائف مارسها الرجل حتى تبلدت في بعضهم القدرة على الإبداع.

بينما من جانب آخر الرجل الذي كان يلج ويخرج من البوابة المشرعة أمامه بحرية مطلقة.. اعتاد وضعه حتى انتابه شعور بالإشباع.. مبعث هذه الاعتيادية دفعه إلى البحث عن مهمات جديدة.. عن أمور كانت المرأة وحدها تقوم بها ويعاب الرجل باقترافها..!

لكن رجل اليوم يمارسها بحفاوة كبيرة؛ لأنها ممارسات ذات طابع مختلف.. والجديد دائماً ينجب إثارته معه.. كـ طاه .. مزيّن للنساء.. ومصمم أزياء.. رجال اليوم

غدوا مهرة أكثر براعة من المرأة نفسها في تلك المجالات..!

مثلما هو فضول المرأة في التجريب متنامٍ كذلك الرجل.. ولعل هذا ما أظهر «مثليين» في الواجهة.. وهذا ما جعل المرأة تحول جنسها إلى رجل والرجل بدوره إلى امرأة.. وهذا أيضاً ما حدا بالرجل الذي استضافته «أوبرا وينفري» في برنامجها الشهير يعرض تجربة حبله كالمرأة أمام الملأ والسعادة تطرز وجهه..!

أحياناً يكون التغيير من باب التمرد على القوانين السائدة فالكاتبة الفرنسية «جورج صاند» اختارت لنفسها اسماً رجولياً وارتدت السروال للتأكيد على مساواتها مع الرجل..!

وقد يكون الرغبة في التجريب نفسياً كالفنان الذي ينتهي من لوحته ويعرضها للعالم بفرط حماسة قائلاً: لقد أنجبت لوحتي هذه..!

لفظة «الإنجاب» في ذاتها هي رمز مضمر لرغبة مكبوتة في صفة «الخلق» التي استودعها -الله- للأنثى وحدها.. وتمنيها رغبات الرجل ولكن بسبل أخرى..!

أولئك الفلاسفة لم يدركوا يوماً أن جميع الحقوق والحاجات التي اعتبرت بشرية ـ أي شأن خاص بالرجال وحدهم – أنه يمكن تطبيقها على النصف الأنثوي من الجنس البشري.. وقد هالتهم حقيقة ذلك حقاً..!

41

حبيبي هنري..

مازلت أنا الحالمة بالتقاء الشمس والغيم في أفق واحد..!

في زمن واحد.. في مكان واحد.. في جسد سماوي واحد.. في روحين يتعانقان لبرهة.. لحقبة.. لقرون عديدة.. ثم تهدأ ثائرة الأمور وتعود إلى عاديتها وكأن بركاناً ثار ولم يثر؛ كي أظل حالمة أبداً.. فنحن بلا أحلام تخضّ شراييننا لن نطيق صبراً لبرهة الحياة..!

لذة الأحلام لا تكمن في احتوائنا لها كحقيقة.. إن سحرها يكمن في عنفواننا معها.. في جموحنا اللامعقول نحوها.. في مدى أملنا.. يأسنا لبلوغ مرادها..!

أن تحلم يعني أنك تحيا بكامل حواسك كإنسي.. يعني أن ثمة مسافة حافلة بأشياء استثنائية تحبها.. ثمة ما يضعضع انتباهك في الكون وهذا أروع اختراع..!

كثيرون تخلوا عن الحياة لمجرد كفهم عن الحلم.. لمجرد أن مجموع أحلامهم وجدت سبيلها إلى نقطة البلوغ.. مسكين هو هذا الإنسان.. معدم.. بائس..!

الأحلام هي زاد المعدمين . . !

فما الذي يجعل هذا المعدم مطيقاً حرارة الشمس في صهد الصيف وهزال العطش والجوع والخيبات سوى كومة أحلامه..!

إنه كثيف الأحلام.. تواق.. ظمئ.. لهذا روحه أرواح مؤتلقة.. لديه مؤونة أحلام تسدّ رمقه للصمود دهوراً متعاقبة بينما تُؤخذ المفاجأة برقاب أولئك الممتلئين من كل شيء سوى حفنة أحلام عن مبعث تحمّل تلك الجوقة حيواتهم بذاك الصمود الرهيب..!

والأحلام وحدها هي التي أمدت «باي» في رواية «يان مارتل» القدرة على الصمود في فراغ لازوردي ممتد لا بداية له ولا نهاية.. كان طوال رحلته الشاقة يحلم فقط.. يحلم بقدر واف من الطعام ومياه عذبة وأرض صلبة تحمله.. وكلما تفاقمت شهيته في الأحلام تفاقمت معها فرص النجاة في روحه الهزيلة.. بالأحلام صنع معجزة نجاته المستحيلة..

ذاك الشعور الضوئي حين يتكهرب في أعماق أحلامنا

هو طوق نجاتنا على الأرض كما لو أننا نملك الأرض وجلّ ما تزخره لنا. . !

فكم من رغبة تملكنا حين نشتهي بنفاذ حواسنا أحلاماً.. نقتنصها من حولنا وهي تغرينا.. وكلما وقعت في قبضة إشباعنا فتشنا عن غيرها.. متى نتنفس سياسة الكفاف..؟!

متى تطبق رغباتنا على حناجر أحلامنا صارخة بها: يكفي.. يكفي.. يكفي..!

لتهمس لنا أحلامنا - بلهفة عاشق -: كلما أقصيتني اشتهيتك أكثر.. كلما نفيتني عن عالمك استوليت عليك بإغراء خيالي ..!

حقاً. .

إن كان ثمة حياة تستحقنا فهي تلك التي تغدو فيها الأحلام كما لو أنها لن تأفل أبداً. . !

42

حبيبتي أنابيس..

أتوق إلى الأحلام بقدر توقك.. فما الذي كفل كلاً من الرقة والعنف متراصين على رصيف واحد بكل ألفة الكون.. لولا تلك الإبرة المقدسة التي خاطت أحلامهما على قماش متوحد من الأمنيات..؟

صامدان كلانا في وجه العاصفة الحقود ومفجراتها من أشواك الخوف ولعنات الخيانة والغدر والدناءة ما دامت أحلامنا تتجاذب بإخلاص.

ثمة بشر متخاذلون حتى مع أحلامهم.. تزن الحياة أرطالاً على أكتافهم كما لو أن الموت وجد كي ينقض عليهم.. متفرغ فقط لهم دون سواهم..!

هؤلاء سر مأساتهم أنهم متشبثون بفكرة الفناء أكثر من

تشبثهم بالحياة.. لذا تغدو الأحلام بالنسبة إليهم مبالغة مفرطة الترف لا ينبغي للعقل أن يشغل نفسه بترهاتها..!

يا حبي.. الأحلام كالبالونات..!

فكم من حلم ترهل في آخر رمق.. كم من حلم سقط من أعيننا.. كم من حلم ضخّ أكسجين الحياة في شراييننا البالية.. كم من حلم انفقأ في لحظة غباوة أو إهمال أو خوف أو بلا ذنب منا.. كم من حلم ما يزال في كرّ وفرّ.. كم من حلم أنجب أفراحاً.. فتتابع من بعد أفراحه إنجاب حلم بعد حلم.. كم من حلم يتيم وحيد.. كم.. وكم..؟!

الإنسان الذي يملك زخماً من الأحلام في حيّز حياته ليس ضيقاً كأنبوب مص.. إن شساعة الكون بكل أبعادها تزن مساحاتها بقدر ما تطوقه أحلامه وقدر ما يتشبث بها.. لهذا يتدفق إحساس الشبع في دمه.. وكلما طفت أحلامه إلى السطح علت روحه بأحلامها وهي تنتشي ببذخ.. فلا لذة تضاهي شعور المرء لحظة أحلامه بين يديه يداعبها كطفل أنجبه.. تلك اللحظة التي توجعت من قبل بقدر أحلامها النطف إلى أن استطالت كقامة ممتلئة بالحياة.

أجمل الأحلام ثقلاً في الفرح.. هي تلك التي تم قطافها وهي ناضجة كصبية متوردة الخدين.

أجل.. ثمة أحلام يعوزها أجنحة كي تهبط في أرواحنا الخاوية فتزهرها.. تلك الأحلام المستعصية التي خطفت آمالنا المترقبة على انتظار مديد كطائرة ورقية انسلت من يد غافلة ونحن منها ما بين متلهفين إلى استعادتها يوماً وما بين يائسين.. ووحدهما هذان الشعوران يتعاقبان بامتداد النهار والليل هما ما يضخّان الدم في أرواح قلوبنا..!

لا أشق على النفس يا أناييس.. من أن يتخلى المرء عن أحلامه حين لا تفصله عنها سوى مسافة بُرهة.. في ذاك التوقيت الفاصل يديره يأسه بعد جلّ ما كابده حتى أوان وصوله إلى حيث ترهّل..!

أحبك أكثر من أي وقت مضى يا حلمي الأبدي..

هنري

من مدونة هنري ميللر: رجل أناني مرغوب فيه..!

(5)
النـهد المفقود

كوني لي أماً.. المرأة التي غادرتني بلا أثر يدل عليها.. قذفتني إلى غيهب مطبق الغموض.. دون أن تلقمني من رائحتها شيئاً أو حتى تلثمني بحنان.. يدل على كيانها.. يدل على شخصها.. على حيزها في كوني..!

ولدت هكذا مشاعاً.. طفلاً تداولته أيد كثيرة.. صغيرة.. كبيرة.. واسعة.. ضيقة.. موجعة.. طيبة.. طفلاً افتقد إحساسه بالتخصيص.. فلكل طفل مهما كان وضعه الاجتماعي وفي أي بيئة قذف سواء في قصر ولد أم في قنّ له حيز من التخصيص.. فالمرأة التي تحمل لقب الأم سرعان ما تلقفه إلى صدرها وذاك الضخ النهري ينساب بامتنان ليختلج في فمه فيشعرها بحجم الأمومة التي تتوله لها كل أنثى.. اللحظة المقدسة تتماهى فيها الأنثى إلهة قادرة على دفق الحياة إلى حياة أخرى ضئيلة. عاجزة. جائعة إليها.. هذا التخصيص الاستثنائي يلتذ بها الطفل كمتعة تسبرُ شهوته

المرحلية الأولى ليبدو كأنه وتلك الشهوة جزء من بدنه وليس منفصلاً عنها ويظل يتنعم في أحراشها حتى تؤرقه صدمة الانفصال التي لم يحسب لها بالاً.. ذاك التفطيم المعذّب الذي يسترق منه خصوصية علنية لن يمتلكها سوى صغير بريء لم يتذوق خبث اللذة بعد.. فوعيه بها يعهر تلك العلنية الساترة.. المكاشفة بخبث آخر.. أعمق انتشاءً من الأولى..!

وحين أعييت بعد مروري بتلك المرحلة التي لم أخرج منها لأني لم ألجها إلا عن وجه مقنّع.. لأن نهري كان يضخ ويجف.. يضخ ويجف كنت على ذاك التأرجح المضني حتى أسدلت الخدعة على نقابها ووجدتني أتشبث برضاعة صناعية لم تكلف المربية التي كانت تضخه في فمي عسراً في تفطيمي..!

كنت أسمع بحنين مكتوم عن حنان الأمومة.. عن توجسها حين يخدش الإعياء طرفاً من فلذة كبدها.. وآه، كم كانت شرارات حقدي تلتف حول أصدقائي حين كانت الحمى تلفقهم طوال الليل في هذيانات متواصلة وكانت صدور أمهاتهم تحتويهم بتوجس قلق، حميمي، محموم بقلب وجل وكف مسترسلة بحنجرة صلاة.. نعم كنت أحقد عليهم حين كانوا يصفون لي ذلك.. يسترسلون بإغاظة عن عطائها الماجن.. عن حنانها الباذخ كمحيط لا يعرف

للنضوب مصدراً.. بل كانت تلك الأيام أبشعها اسودادية حين كنت أرى طفلاً في مثل أعوامي يتأبط ذراع أمه بحنان رائق.. حين كانت إحداهن ترين بعينيها المسكونتين حباً لتضخان الأما على ذاك الصغير الغض بدفق أبدي.. وكنت مستعداً أن أفدي عمري كله للحمى فترميني حيثما تشاء في ملكوت الداء مقابل لذة قلق من عيني أمي البهيتين، ولكن..........؟!

من هنا بدأ عويل بحثي عن أم بديل لي.. في كل امرأة عاشرتها.. في كل مربية عبرت سنوات طفولتي حتى شبابي كنت أبحث فيهن عن رائحة الأمومة المحروم منها.. عن ذاك الربق السري.. تلك الشراهة المتعطشة التي ترضي رضيعاً لم يفطم بعد من نهد الحياة الأبدية.. لكنني لم أجد بل لعلي أوهمت داخلي بذاك الأمر البغيض التافه بأنه يمكن أن يكون للمرء أم بديلة.. فهل لذاك الرواء الفردوسي من عوض..؟!

فأعييت بعد ذاك التوهان في صحراء بحثي أني كنت أتولّه لعاطفة الأم.. ذاك الفوران العجائبي.. الغامض.. الذي تواكبه عرصات الدهر والوجع والويل لكن سرعان ما يدفأ بقبلة من شفتي وليدها الحبيب على جبينها الوضاء.. ذاك أصالة غبطتها.. حتى من امتلاك الحياة بكل كنوزها.. بكل فورانها وعذريتها..

فانتصبت جذعاً بلا فروع حول تلك الشجيرات المثمرة بالعطاء.. أنا بيتمي.. بهشاشتي.. كائن منسي.. كل المشاعر التي كانت تغدق عليّ كانت تهيل بدافع مادي بحت.. وكان ثرائي هو من يبقيهم قربي كاتمين غيظهم وحقدهم رغم الشرارات التي كانت تتراشقها خفية أعينهم المنكسرة رعباً مني .. تلك الشرارات البغيضة لطفل كان يبصق عليهم بذل.. لطفل كان يطلقهم بنفخة من فمه فقاقيع سرعان ما تنفقئ بمزاجه اللامبالي في سبيل الحصول على متعه الداخلية.. في سبيل إرضاء ذاك الوحش القابع في أعماقه للثأر من لحوم بشرية.. لذاك النقصان الفج الذي يتخبط به..

أمي.. التي غادرتني مع تاريخها العريض.. أورثتني عن غير قصد وجهاً يشبه جمال نرسيس.. كان يتناهى إليّ همهمات المربيات اللاتي خصصهن أبي لخدمتي عن المرأة التـي أخـذت منهـا وجهها وكأني صورة طبق الأصل عنها.. بل أذكر جيداً أن إحداهن كانت امرأة كبيرة بعض الشيء تعصرني إلى صدرها وكانت تداعبني بقولها فتتلو عليّ مع كل عناق العبارة إياها: «آه يا أيها الصغير الوسيم كم تشبه والدتك..»..

مذ حوّطني قولها ذاك وأنا أجمد أمام المرآة.. أحرك وجهي يميناً.. شمالاً.. أديره في كل اتجاه لعلي أراها.. بل

لعلي أرى شيئاً من المرأة التي أورثتني - دون شك - وجهاً مفرط الإبداع.. وكانت استفهاماتي تكبر مع وجهي.. تكبر مع جسدي.. كل شيء حولي كان يتمدد.. يتضخم.. حتى خوائي الداخلي.. قلقي الخفي من أشياء يقطنها الانتظار الدائم.. كنت أشبه بشخص مرتاب.. يدقق في كل أمر يعترض سبيله في مشوار الحياة بوسواس غريب يرافقه كحارس شخصي.. كتابع.. لكن شيئاً ما.. هنا في الداخل.. كان يفتش عنها.. عن مكمنها السري الذي تخفّى بمهارة طوال تلك الأعوام حتى قضى وجودها عن محيطي شيئاً فشيئاً وكأنها لم تكن سوى سراب.. لكنها خلّفت آثاراً جامحة.. تنهشني كالجذام.. والذاكرة تحاصرها كقلعة تحصنها وجوه شتى..

وفي كل تلك الأوجه كان ثمة حكايا عنها.. وعن وضعها كتابو لا يمكن اختراق عالمه قط.. هُمِّشت ذكراها في العرض الذي كنت فيه.. تهميشاً ورثته أنا عنها.. رغما عن أنفي.. شئت ذلك أم أبيت.. قدري الذي ترعرعت فيه.. وبلغت به مبلغ رجولتي..

هذا ما أذكره عن سيرة أمي التي يتمتني حتى من لفظ هذه الأحرف التي يكبر معها الإنسان كائناً ذا معنى..!

يتبع...

43

هنري..

أحياناً تكون الحياة سوداء كجلد عقرب سام.. وكأن ثمة حزناً بحجم فيل ضخم جاثم على صدرك.. في هذه اللحظة لا تغدو الحياة وحدها ضبابية بل حتى وجودك عبر الآخرين يكون عبثــاً.. لأنك كائن بجسدك فقط.. لكن روحك ثمة جلاد اسمه الوجع ما انفك يجلده وأنت ما بين متوجع وميت..!

ميت متمدد في قبره.. تاركاً خلفه الشمس والهواء وأصوات العصافير.. يترقب بعين كآبة لحظة هبائه.. منثوراً مع الريح.. فلا شيء يستحق الذكر لا شيء..!

خلال تمدده يبعث ما مات حقاً في تاريخه الشخصي.. طفولة شاقة.. مراهقة رطبة بمناخاتها الغامضة.. وحين يتراءى له شاب منتصب في عمق الثلوج تتساقط زخاته على هامة مظلته.. لا يبصر حينها سوى خيباته المتناثرة مع كل زخة وزخة..!

وفي لحظة ما من تلكم اللحظات اليائسة بنزف حزين يدرك كم كان ساذجاً..؟! بل أكبر ساذج في الكون؛ لأن عواءه الباكي ينتحب على أشياء أعلنت حدادها منذ دهر طويل وهو لم يغادر بعد مجلس عزائه.. في مثل هذه اللحظة بكل أحاسيسها العميقة يدرك أن لا مكان له سوى حيث هو متمدد في قبر مظلم مسوّر عن الشمس والهواء وأصوات العصافير..!

تستشعر أن ثمة اختلالاً ما في إنسانيتك.. ثم على حين غرة يخطف لبّك لفظة «إنسانية».. ويخنق حنجرتك سؤال هجين: هل أنا إنسان حقاً..؟!

فيهولك الجواب الفظيع الذي من هول رعبه يفرّ هارباً.. ليستبقيك كمجنون منتصب أمام المرآة وهو يتهاوى مع صدى صوته في مكان ما من حوله ولكن لا جواب..!

خضّني هذا السؤال.. وما زلت أتساءل: ما هي إنسانيتي..؟! وكيف نصنّف نحن إنسانيتنا..؟! لماذا يتفاوت البشر في إنسانيتهم..؟!

من هو الإنساني الحقيقي.. هل هو من مرتبة الملائكة أم أمهات قلوبهن كدلو فائض الحنان..؟!

هل يحق لي أن أدّعي شعور الإنسانية وثمة جمهرة من

البشر تمزقوا أو مازالوا يتمزقون بسببي.. أليس الإنساني فرداً لا يؤذي.. لديه دفقة من الإحساسات المفرطة تشمل الآخرين كما نفسه..؟!

لكن ما الماثل اليوم..؟!

اليوم تذوب صدمتي مع إنسانيين مهرة في القتل والغدر والنهب والخيانة وكأن شيئاً لم يجتث بفأس قسوتهم..!

أليس الضمير الإنساني هذا الذي يختبئ في وجيب صدورنا هو جرس إنذارنا على إنسانيتنا . . فكم من ضمير حيّ غداً يوقظ النائمين من سباتهم الكهف الذي تاه عن نهايته . . ؟!

آآآآآه... يا هنري.. كم يوجعني ضميري.. كم يثقبني..؟!

أليس من الأفضل أن يتمدد المرء في قبره وحيث هناك مترقباً لحظة إنسانية تنتشله مما فيه كطلقة رحمة..؟!

كم تستغيث أمنياتي هذه الطلقة في انقباضات خانقة.. ثم أعود وأعنّف نفسي بتأنيب حار: ثمة هناك من يستحق كي تنبضي من أجله.. هذا الشعور يرخي وجعي أميالاً..

تعرف يا قلبي هنري.. إن لم يكن في حياة المرء شيء ما.. أي شيء مهما غدت ضآلته يضخّ الهواء في خناق رئتيه بين فسحة وفسحة.. لتبلّد وجوده الإنساني.. «لا» و«لن» تقوده معرفته الهائلة مهما فاقت حينئذ إلى كائنيته المجهولة..؟!

44

أنابيسي..

أحتاج إليك أيتها المفرطة في إنسانيتها. . أشتهيك قربي. . ما هذه الحياة دون أنابيسي. . ؟!

أجل.. طلقة الرحمة..!

كلنا في لحظة ما من حيواتنا نترقب وقد عيل صبرنا تلك الطلقة التي طالب بها البطل «بوكاتسكي» في «طلقة الرحمة» بنبرة التوجع عينها التي حكاها الكاتب «يجي بوترامنت».. «بوكاتسكي» وهو متمخط في وحل من الجثث والضابط الألماني الحقود كان يتفانى في التلاعب به حتى آخر رمق تعذيب.. بينما «بوكاتسكي» يكرر بيأس.. بتوسل.. بصوت بشري خنوع : يا طلقة الرحمة، يا طلقة الرحمة..!

كلنا في حالة يأس وخنوع شبيه طالبنا بحقنا في طلقة الرحمة.. فإذا كان «بوكاتسكي» وارته طلقته في رحمة أبدية

بعد عذاب غدا أعمق أبدية في ختام القصة.. فإن نهايتنا على ما يبدو ما يزال مصيرها من التمدد حتى أن رائحة البارود لم يتسرب إلى أرنبة أنوفنا.. كي نطمئن بدنو طلقتنا المحررة..!

بل من منا لم تبهره جرأة «الكابتن نيمو» بطل «جول فيرن» إحدى روائعه في «عشرون ألف فرسخ تحت الماء» الرجل الذي سئم قسوة السلطات الاستغلالية وسئم اضطهاد الشعوب والأفراد من البشر من قبل العتاة والظالمين الذين فرغت قلوبهم من الرحمة.. كل هذه الفظائع في حق البشرية حفــرت في قلبه نفقاً من اليأس الكلي من الإنسانية الجمعاء؛ فعزم على أن يحيا في عالمه السري الخاص.. هناك تحت المحيطات منزوٍ في أعماقها المنعزلة مع غواصته.. عالم وهمي صغير في المحيطات.. علها تشفيه من جرم البشرية وآثامها..!

حبيبتي أناييس.. حين يقبضني اليأس تكونين أنت عزائي الوحيد.. أنت وحدك تعرفين كيف تنتشلين كل وجع من قلبي.. تعرفين كيف تخضّبين دمي.. فأغدو في حضرتك أسداً تربع على عرش مملكته ولا شيء ثمة ما يثقل.. كل شيء على أفضل ما يكون..

حين تكونين بقربي بينما صوتك الشهي يسحب فزعي

من أعماقي.. يسبرني.. يقلبني.. ينجبني طفلاً صغيراً ما بارح وميض الفرح قلبه يوماً.. ما غادره..!

يا حبي.. أشعر أحياناً أن الأرض من تحتي زجاج.. وأن قدمي ما عادتا تتقنان لغة المشي سوى على أرضها الهشة لهول هشاشة داخلية تكهربني كسلك ممرد في الماء.. وحين ذاك كل شيء يضحي وكأنه جبل من الجليد سينهار آجلاً أم عاجلاً بصرخة.. صرخة واحدة فقط أشبه بعويل..!

لعل الراحة تكمن في سر تلك الصرخة الواحدة الشبيهة بعويل.. لندرك مدى أبعاد تلك الهشاشة فينا.. عميقة كجرح غائر أم سطحية كقارب طاف على صفحة نهر.. وأين كياننا منهما..؟!

إن أقصى صوت أملكه في وجيبي الآن ويسع كياني كله بصلابته وهشاشته متخبطاً في داخلي كبرق وامض هي لفظة : أحبك..

كم أحبك...

آآآآآه يا أناييسي.. كم أنني متولّه في ملكوت حبك..!

من مدونة هنري ميللر: رجل أناني مرغوب فيه..!

(6)
سيرة مكان

ما تزال تلك الذكرى تزلزل بعنفها داخلي الهش.. كنت حينذاك مراهقاً تتسلقه أعوامه الخمسة عشر.. أتبع الظلال كما يتبعها غيري ويتخذها مسرحاً سرياً يتمايل بها كما يشاء عن دروب يفغرها الشمس.. وكمراهق مثلي يمتلك والده أرتالاً من الأموال لا يعرف في أي جهة يحشوها.. وضع تحت إمرتي سيارة فاخرة مع سائق خاص الذي كنت وحسبما يقتضيه مزاجي استبدلهما في السنة الواحدة عشرات المرات.. أجني عليهما دون سبب واضح سوى متعة داخلية كانت تنعش كياني كله دون أن يحيطني سر تلك النشوة أو كنهها.. لهذا لم أجد غضاضة في اقترافها مع سبق الرغبة معهم ومع أي شيء آخر بالحماسة والافتنان نفسه..!

كان هذا السائق آخرهم كنت أنعته بأسماء كثيرة وأكثر ما يعجبني فيه مذ قابلته لأول مرة نظرته التي تشي بالبلادة.. ولا سحر ألذ من أن تحرك شخصاً بليداً كما تحرك حماراً

بليداً بالضبط وهو يطلق في وجهك نهيق استغاثة ليضاعف ذلك من كمية المتعة التي تأخذها على شكل دفعات لا توصف.. تلك البلادة التي سمت على كينونته لم تكن سوى قناع.. مع الأيام أدركت جيداً أنها سبب احتفاظه بوظيفته معي حتى الآن بعدما تخليت عنه أنا بنفسي وتركته لعمتي العانس التي لم تشم رائحة الرجال قط.

تلك البلادة تكشفت لي عن الحقيقة التي جعلت مني عبيطاً بحق.. لكن لم يكن لدي الوقت والمزاج الكافيان لمعاقبة بليد مثله قدّم لي حقيقة أخرى أعمق من الأولى بوزن أربعة وعشرين قيراطاً..

ذاك اليوم حين أمرته أن يدلني على مكان أشم فيه رائحة النساء.. أن أدنو منهن بطريقتي وبكلي هذه المرة واتخذهن مغامرات أفتت حكايتهن في وجه أصدقائي الأغبياء أولئك الذين لم تتسع خيالات رؤاهم لهن سوى في أحيائهن الفاخرة بفتياتهن اللاتي ينمن على تدليك الخادمات لأجسادهن بالحليب وتغميس أصابع أيديهن وأرجلهن في قدر من زهور الربيع من شتى الألوان والأنواع ومن ثم يسترخين ملفوفات ببطانيات من الحرير.. ويل إحداهن إن أطلقت حنجرتها شخيراً وإن غدا ناعماً.. ذاك النمط التافه من النساء

لا يجد المرء في أعطافهن سوى مزيد من السذاجة.. ويبدو المرء أمامهن أشبه بكلب لا شغل له سوى أن يتباهى بمدى وفائه ويستعرض خبراته في إخراج لسان الطاعة والتدليل..!

نعم كنت أتوجس أملاً وإن كان ضئيلاً ضوؤه لكنه كان يكفي لأن أسابقه إليه.. كنت أريد أن أعرف كيف هن..؟! لعلي أجد من أبحث عنها مذ كنت طفلاً.. أشم رائحتها التي سلبت مني وهن متكتلات في تلك البقعة التي انطبعت بكل تفاصيلها الكبيرة وحتى أحقرها في خيالي.

كلفنا الوصول إليه عناء ليس يسيراً بعدما تجاوز السائق البليد ممرات ضيقة ومعبدة بالصخور التي كانت تهتز منها السيارة وهي تتأرجح كرجل مخمور.. حين وقفت السيارة في البقعة المحددة كان الوقت مبهماً لا ليل ولا نهار.. لعل الإضاءة التي كانت تتماوض ما بين اشتعال وانطفاء هي من ألبس المكان لباس الضبابية.. عندما فتح لي السائق البليد الباب ارتسمت على وجهه لأول مرة غمزة ذات معنى بددت أثرها فيّ روائح مختلطة احتشدت دفعة واحدة متخللة في جيوبي الأنفية دون أن يتعرف عليها حاسة شمّي الذي كان وقتذاك غضاً بمقاييس الشم والذي كان متعوداً استنشاق أفخر الروائح العطرية.. وأستطيع أن أقر اليوم بأن تلك الروائح هي

أكثر الروائح التي التصقت بأنفي على مدى تلك السنين التي قضيت حياتي فيها.

قادني السائق البليد إلى أجواء عالم أتعرف إلى مكامنه لأول وطأة وكان علي أن أتبعه هذه المرة كعبد.. أسير خلفه في بيئة لا يليق إلا بمستوى سيد مثله.. نعم هي المرة الوحيدة التي شعرت فيها بنزول حقيقي أن تكون تابعاً لا متبوعاً.. عبداً لا سيداً.. صمتاً لا صوتاً..!

وعلى عكس انطباعي كان المكان هادئاً جداً وكأنه مأتم.. رجال محتشدون على طاولات متناثرة هنا وهناك يفصل بينها مسافات تكاد تضيق من ضخامة بعض الأجساد.. كان الجميع يصغون بهوس عميق لامرأة لا يستر بدنها سوى أسمال قليلة تظهر أكثر مما تخفي.. تطلق عبارات رنانة دون أن أعي منها شيئاً.. وحين بهتت الأضواء حتى خنق الظلام كل الوجوه في غياب ضبابي دخل حشد مرتب من الفتيات بقوائم سامقة كالرمح كل واحدة منهن كانت ترتدي ملابس تغطيها من كتفيها حتى أخمص قدميها.. أجلسني السائق على مقعد قريب من مسرح العرض بينما ظل واقفاً يشخّص بصره إلى الفتيات اللاتي على ما يبدو بدأن العرض.. فكانت كل واحدة منهن وعلى التوالي تقوم بخلع مما تلبسه وترميه بخبث مبطن على الأرض حيث يتبارى الرجال المحتشدون

بالتقاطه وتقريبه من أنوفهم لشمه ومعارك تشتد وطيسها ولا تنتهي يطلقها جوقة من السكارى وهم يتنافسون على تلك القطع البالية وكأنها أموال.. بينما ترتسم على وجوه الفتيات ابتسامات نشوة تلهب حماستهم لمزيد من الاشتعال.. فتختلط الأصوات بعضها ببعض في موسيقى صاخبة وبعضهم يطلق قبلات في الهواء رغم أن الظلام كان حاجزاً رؤية الوجوه بدقة ولكنها وحدها الأصوات كانت تدل على أن ثمة أنفاساً حية تتدفق بالحرارة وتموء وتصخب.. كان عرضاً غريباً بالنسبة إلي.. بل كان كل الحاضرين والمكان والروائح والأصوات كلها امتزجت في خليط مدهش لم أكن أعرف بوجود مثله قط.. وكأن الحياة كلها اختصرت وجودها الكلي هنا في هذه البقعة من الكون وما عدا ذلك سراب.. وحينما ألقت الفتيات آخر قطعة على الأرض وغدون كما ولدتهن أمهاتهن امتدت الأصوات من حناجر مختلفة لا يشوبها سوى تصفيق حار على الفتن التي لا يمكن للمرء أن يقف حيالها مكتوف الأيدي.

وحينما أسدل الستار فغر الضوء وظهرت الوجوه التي عجنها العرض فكانت أشبه بلحم مشوي بمهارة خارجة تواً من الفرن.

والتفت في الوقت ذاته إلى وجه السائق البليد الذي

كان هو الآخر مطبوخاً ومحمراً بطريقته وسرعان ما لانت ملامحه بإشارة تومئ لي بأنه يستطيع أن يجعلهن تحت تصرفي إن أردت ذلك.. ويبدو أنه كان على علاقة وثيقة بصاحبة المكان التي بدورها ترحب بحفاوة كبيرة جداً بأصحاب الجيوب الثقيلة.. فتزعم الأسد في داخلي وزأرت له عن رغبتي في الحصول على أجمل واحدة في البقعة التي كن فيها.. ونقدته مبلغاً يقدمه لصاحبة المحل التي لم تكن تحلم في الحصول عليه.. وأدركت تأثير ذلك من نظرتها التي كادت تنهش جيوبي نهشاً من حدته.. ومن فورها قادتني إلى دهليز حلزوني على امتداد جوانبه غرف متراصة تكتظ منها أصوات من الصعب التعرف من أي غرف تبث همسها الماكر وضحكها الخبيث.. وقفنا في طرف ممر يحدوه على جانبيه ثلاث غرف وواحدة منفصلة عنهما على مسافة عشر خطوات.. كانت تنادي بصوتها المترجرج فتاة لا يحضرني اسمها بالتحديد ولكن حين تمثلت أمامي كانت تسيل فتنة يزينها نظرة تقطر عذوبة وبالنظرة إياها شعرت وكأنها تستصغر مراهقاً مثلي يحركها بين يديه ولكن حين أمرتها صاحبة المحل أن تخلو معي في إحدى الغرف الخاصة غدت أشبه بلبوة جائعة وقعت على وليمة لم تحلم بها قط.. قادتني والرغبة تهطل منها بجسارة متمرسة وعلى امتداد الخطوات

التي تأبطتها أقدامنا تعامد ظلان من أقصى الممر حيث كنا نهم كلانا بدخول الغرفة المخصصة لكلينا وعندما التفت فضولي إلى الظلين في وسط تلك الإضاءة الخافتة للممر كذبت رؤية عيني.. فما وقع بصري عليه كان كافياً كي يسمم رؤيتي للأشياء من حولي ووجدتني أشبه بناظر إلى مرآة مكسورة يستجدي من خلالها رؤية شاملة تعيد بقايا وجهه المتناثرة هنا وهناك.. كان أبي... هو بلحمه وشحمه. بطوله الفارع.. هكذا تهاجس داخلي وكانت الفتاة هي إحداهن من أولئك اللاتي قدمن عرض العري.. كان غائباً عما حوله فيها، ذائباً، ضائعاً، فجًّا حد العري..!

وهنا من تلك البقعة المتعفنة كبر أنا الآخر في أعماقي أؤججه باشتعال دائم.. بحقد متجدد يحرق أواره نساء الكون.. كل امرأة عبرت خلالها أو رماها القدر في طريقي كانت سبباً لحرماني من أمي.. كل واحدة فيهن كانت بالنسبة إلي عاهة لابد من اجتثاثها وتعذيبها ولعنها.. تلك اللحوم الناعمة السافرة كن سبيلاً لتكون أمي عابرة في كوني الخاص.. لتكون لا شيء في كون أبي.

أبي الذي أورثني قلبه الميت وبقايا طول فارع.. كبرت بهما على نفسي وعلى العالم من حولي.

هذا الرجل ما كانت امرأة واحدة تكفيه..!

بعض نماذج ذكرية لا تشبعهم امرأة واحدة ليس على المستوى البيولوجي بل على المستوى النفسي.

والبعض منهم يقسم نسوته إلى أقسام منها للفراش ومنها للإنجاب ومنها لتبادل صداقة ومنها كزميلة عابرة يتحفها بهداياه القيمة بين فسحة وأخرى ليظهر أمامها كرمه المفرط.. وامرأة يستثنيها للكلام العذب ذاك النوع من النسوة اللاتي يحفلن باللذة من خلال السماع بل تثيرهن أكثر من اللمس نفسه..! كان أبي يحشدهن حوله كفراشات ملونات بالفتنة كل واحدة منهن كان يدرك حدها الفاصل في حياته وإن تجاسرت على خطوة عن تلك المسافة فاللهب كفيل بإبادتها..! وكنت أراهن بطريقتي الخاصة من منظار حقدي وكمدي... أراهن أوبئة هن للسحق والفناء الكلي.. كائنات ضارة لا يجوز أن يتنفسن في هذا الكون بل لا يستحقن الحياة بتاتاً..!

يتبع..

45

هنري..

البارحة فقط أدركت مدى جبني..!

طوال تلك الأعوام وأنا أحفر في نفسي والآخرين نفقاً لجس العوالم الغامضة.. أتعرّف من خلالها على مكمن قوتي أو لسبر الدهشة أو كي أضاعف من خلالها حصص التجارب ومخزون الذكريات في سجل حياتي.. بمعنىً عاطفي أسلّط شمس الحقيقة على عتمات نفسي الحائرة..!

لكن البارحة حينما ألفتني أمام تحد حقيقي.. جبن خاطري عن قبوله وبعناد غريب كافحت في وجه ذاك التغيير..!

وانتصبت بخوفي ذاك أمام حقيقة واحدة: هي أننا نطالب بالتغيير بحناجرنا ولكن مهمة تحويله إلى فعل يحيلنا إلى مجرد مهرجين عاجزين حتى عن الإضحاك..!

منذ أنضج العمر وأنا أنافح ذوداً عن التغيير.. وأنا

أراكض خلفه وأحفز الآخرين على ملاحقته.. وفي النهاية أراني عاجزة عن تغيير يخصني..!

أي تناقض يزعزع مبادئي على هذا النحو الرهيب..؟!
أو لست أناي هي من كانت تهتف من قبل بتفاؤل مدهش: فلنخضع أنفسنا لتغييرات الحياة كي ننتشل أعمارنا من حياة رتيبة مخطط لها سلفاً باستقامة مريبة؛ فبعض من فوضى الحواس تجاه محسوسات الكون ينجب الدهشات..!

إنني غاطسة في الخجل من نفسي.. هذا المبعث يتفاقم في أعماقي.. أحياناً لا أفهمني ثمة قوة ما في هذه الأعماق الغامضة.. لا يمكنني نكران فضل هذه القوة السحرية في تحدي معظم الأوجاع التي شتتتني في زمن ما.. جعلتني أستعيد روحي التي تحطمت خيبة تلو خيبة وأعيد لصق أعضائي المبتورة؛ كي أحيا بسلام كما يحيا أي آدمي على وجه الأرض.. إنني مدينة لهذه القوة في وجيبي.. في مكان ما لا أعرفه بالتحديد.. لكنني أحسها كما لو كانت هالة ضوء تبرق على حين غرة.. تمدد النور في أعماقي المعتمة ثم تختفي.. تتركني مكتملة وحائرة في الآن..!

مازال فهمي قاصراً..!

ما ألذ تلك القوة الخارقة يا عزيزي هنري.. إن تأثيرها

شبيه بفعل غرامنا فيا له من شعور ثمل هو هذا..!

لكن كل ما سبق لا يلغي توجعي على انفعال الخوف الذي يستعبدني في كل موقف تغيير.. أتوق بقوة إلى تغيير أشياء كثيفة في حياتي ولا أدري متى سأملك جسارة الخوض فيها..؟! وهل سوف يدنو مني كي يوازن شتات حيرتي..؟!

«أريد أن تكون لي إرادة وهذه الإرادة أرغب في أن أصاحبها في طرق الفعل».. هكذا اعترف «ريلكه» في إحدى قصائده... لربما تنقصني إرادة كإرادته تماماً..!

46

اميرة قلبي أنابيس..

ما ألذ تأثير تلك القوة الكامنة في قاعك..!

ما أقوى مفاصل إرادتك التي استكانت رغم فورانها في هيئة اعتراف كلي للوضع النفسي..!

مثلك يعلم أن وضع حلقات دائرية باللون الأحمر على بعض المحسسات الشعورية في حياتنا ليست جسارة فقط بل فضيلة خارقة. . !

أنا الهش الذي يسحب قوته منك.. أجل يا روح قلب حبيبك.. الرجل يعيد شحن قوته من المرأة التي يحبها.. ويا له من سلوك متناقض فهو ضعيف وقوي أمامها بالانسحاق نفسه.. هذان الشعوران يفوران فيه أمام التي لم تكتف بالاستيلاء عليه وقلبه بل تسلقته حتى أنهار أمام ملكوتها ..!

يأتي التغير على هذا النحو: متناقض.. هش.. قوي.. مستبد.. هزيل.. تحتشد فيه انفعالات كثيرة تكابد كلها الدور عينه..

التغيير أمنية.. نتوق إلى عبوره.. لكنه يخيفنا.. لعل الخشية تكمن بأن لا تتكيف أنفسنا مع هذا التغيير كما لا تتكيف بعض الحيوانات سوى مع بيئاتها الطبيعية التي نشأت عليها.. التغيير يضخ تأثيره في كل شيء عادة.. وقد يحولنا إلى أشخاص آخرين تماماً.. قد يكون معنا أو ضدنا هذه الفكرة هي ما توقظ غول الخوف في قاعنا.. فتجعلنا مشلولي التردد أمام كل تغيير..!

ما يستنهض زوابع الرعب أكثر حين لا نستعيد أنفسنا مع التغيير الطارئ.. حين نضيع في التغيير فلا نكون أنفسنا بل أشخاصا آخرين يملكون الجسد نفسه والاسم نفسه والتقاطيع نفسها.. لكن ثمة شيء ما تاه فينا.. غادرنا.. وربما موجود في حيز ما في حدود أطرافنا.. لكن يكاد يبدو غريباً منا وعنا.. هذا ما يحدث غالباً مع تغيير يفاجئنا على حين غرّة.. نجدنا مضطرين نحوه.. كأنها نتاج قوة دفع وما من حيلة سوى القناعة بالوضع على ما هو عليه..!

التغيير الذي يصعقنا كصدمة هو ذاته التغيير الذي كان في زمن ما يطرق مستأذنا كمضيف.. لكننا عوضاً عن ضيافته

أقفلنا الباب في وجهه؛ لأننا لا نحبذ فكرة استقبال زائر يأتينا على غير موعد..!

لكن في قانون التغيير ليس ثمة ما هو موعد مسبق.. إنه يباغتنا طارقاً على حين استغفال.. تتفاوت الطَرَقَات أجل.. لكن الغاية واحدة.. فجميعنا سيعبره فيضان التغيير.. سوف يسيل معه شاء أم أبى.. وما علينا سوى أن نهيئ أنفسنا لكل مرحلة تغيير تصادفنا في عبور ما.. علينا أن نكون في تصالح مع طارئ التغيير.. نهيئ طوق إنقاذنا قبل أن يأتي.. نجاري فورانه قبل أن يجرفنا وقصور أحلامنا.. أي كوني أنت والتغيير جنباً إلى جنب لهندسة تاريخك الشخصي..!

سترين أن معظم البشر سائرون مترددين في طريقهم إلى الحياة وكأن الأرض ملغمة.. وبين كل خطوة وخطوة نترقب حذرين.. مرتجفين.. فاقدي الأمان لنصل إلى الضفة الأخرى.. ألم يئن الأوان كي نكسر حواجز الخوف ونمضي بثقة.. اعتقد أن حيواتنا تستحق ذلك..؟!

سأختم قولي يا حبيبتي بعبارة «دانييل وبستر»: «لا داعي للخوف، لكن تحلّ بالفضول، لأنك، ربما، لن تعلم أبداً من أين تأتيك القوة»..

47

حبيبي هنري..

أخط إليك حروفي بينما تقاطيعي تحدق بنهم في المرآة التي وضعتها في مقابل حاسوبي.. أحدق إلى تقاطيعي وهي في حالة كتابة رسالة حب إلى رجل تعشقه بطريقة هزلية ومضحكة.. يخيّل إليّ أن الحياة جلبتك لي؛ كي أقيس مدى الافتتان الخالص للحب حين يلوح عن ذاته بعفوية وبراءة أطفال.. لكنها الحياة بقدر ما تمارس فيك فيض عطائها تستولي على حصتها منك بالقدر نفسه بل كثيراً على أضعاف.. فثمة عقد لا يمكنك أن تحلها بسهولة لا بيديك ولا بأسنانك؛ لأنها مشدودة بشدة..!

أتأملني في المرآة وخواطري يتسلل بريقها مني إليك.. أجس في وجهي هضاباً مقفرة وثمة غيمة في أعلى الجبين حبلى برواء قد يعلل ظمأ تلك الصحارى وهي تنوء من حمى الجدب..

لكن صورة وجهي بالمجمل العام وهي تسيح بألوانها على المرآة.. تمنحني انطباعاً حياً عن كوني مازلت متشبثة بالعالم الخارجي.. رغم ما تحفزه عوالمي الأخرى من الأحلام والأوهام والكلمات في كياني الشخصي.

لذا يمكنني الاعتراف أن وضعي للمرآة في مواجهة ما أطارده وأحيا فيه كطقس يومي.. كلهاث على صهوة بوحي ليست من النرجسية في شيء بقدر ما هي ضرورة لكل كاتب؛ ربما لأن الكاتب المنغمس في عالمه التأليفي لشخصيات مفترضة يضيع.. يبهت حضوره ليسكب دم الحياة في روح شخوصه.

في الكتابة يكون البيدق لاعب شطرنج.. لكن المتعة هي أن قطع الشطرنج لكل منها دور محدد وتتبدل أدوارها تبعاً لتحريك مواقعها من «هامشي» إلى «بطولي» تقوم بأدوار إضافية «محركة» على أدوارها الأساسية «الثابتة» المحددة سلفاً والفعل الكتابي يمضي في المراحل إياها.. فلكل شخصية دور منوط محدد بمسافة يقدرها النص.. فيحركها الكاتب بما تحمله الشخصية المخلوقة من مؤهلات طبقاً لخياله.. ضمن خطة معينة ويضيف إليها دفقة من الحيوات لتغدو وكأنها واقعة متحركة مثرثرة في حضرته.

المرآة تجعل الكاتب على توافق مع ذاته. . تخلّصه من انطباع الضياع. . توثق صلته بوجوده على رباط أقرب بعدما ضيّق واقعيته بشخصياته الخيالية. . تعيد إليه وعيه الذي تشتت في أكثر من خبرة ولسان وعقل وكيان وملمح إنساني. . !

إنني أتيه في ممرات الضياع حينما أطبع حروفي إليك.. وضياعي هذا يكمن في انغراقي الكلي المحبب في كيانك الإنساني.. فأنسى شخصي لأذوب فيك.. وهذا الذوبان الكلي حين يقع يتشل مني شخصيتي الفعلية لتضع عوضاً عنها شخصية مفترضة.. عاشقة ترصف الحب من طوب الكلمات ومن طين الحروف.. والمرآة وحدها هي محررتي من حالات الضياع والتيه في ذات الآخر إن غدا حقيقيًّا أو افتراضياً.

أحبك...

أدوّن هذه اللفظة بينما مرآتي تحدجني بابتسامة ماكرة مفعمة بالحب وحده. . !

48

حبيبتي أنابيس..

تفاصيل مراياك المثيرة تعيد ذاكرتي إلى «بورخيس» وهو منغمس في مراياه مفرزاً بذلك عالمه المعاكس على صورة مفاهيم وأشكال وتهويمات ما تزال ملغزة في عقل قرائه.. بينما أطلقها هو في حزم ككاهن ضجر رهانه ليردد: **«تعبت كثيراً من المتاهات، النمور، المرآة، خصوصاً عندما يرنو الآخرون إليها»**. . !

للمرايا تأثير جمّ في حيوات البشر.. لعل أسطورة «نيرسيس» حينما أخذته أعجوبة رؤية وجه بشري في صفحة الماء الرقراق هي التي أدانت المرآة بتهمة «النرجسية» ليغدو كل رجل وامرأة شريكاً في جرم المرآة.

تعرفين ما يرعب حقاً يا أنابيس في الحديث عن المرايا.. حين يسحبك صباحك من فراشك الوثير وبعد حمام دافئ.. فطور شهي تقفين بكامل أناقتك أمام مرآتك كما كل يوم فتنكرك..!

تنكر سحنة داعبتها بتحديقها طوال أعوام.. ليغدو هذا التنكر هو إنكار جاحد ليس في حق الألفة وحدها بل في حق الوفاء والثقة الكبيرين اللذين أسقطناهما عليها على عماء طوال سنواتنا السالفة.. تكون المرآة هنا موسومة بجرم الخيانة.. لكن من الغريب أنها تنفذ من جرمها كل مرة وكأن جرماً قد غفر.. بينما يوسم صاحبه بعار الجنون الفعلي..!

المجنون حينما يحدق في تقاطيعه العاكسة على المرآة فإنه لا يرى شجرة نفسه بل بتلاتها حيث أعمق نقطة في فصيلة البذرة..!

فالخارج مغيب عن عقله المفقود أصلاً ولا يبقى له سوى الكيان الداخلي الذي يغدو مهزوزاً هو الآخر في مرايا أعين الآخرين.. لهذا وإن نطق لسانه نبوءة حقائق فإنها تظل أسيرة لسانه فقط.. فهو الغائب في مرآة الحقائق كما أنه ملغى عند الآخرين.. ما أريد قوله هنا هو أن المرآة غدت بمجمل مكانتها هي الحاكم والمحكوم ولهذا خيانة المرايا لأصحابها في لحظة عابرة تكلفهم حياتهم..!

ولعل هذا هو مبعث حرص الجدات والأمهات على إبعاد الطفل الصغير الذي لم يتعدّ الثالثة أو الرابعة من عمره عن التلاعب مع المرآة؛ لئلا تتلاعب مع عقله فتستولي عليه.. لتعيد تكراره في خفة.. في طيش.. في جنون.. لافظة كيانه في «خبَل»..!

حبي... سوف أتتبع مقطعاً إسبانياً يقول:

«فإن شئت أن تسأل صورتك،

في ليلة دافئة،

بعينين غامضتين، والسؤال على الشفتين،

فلا تبحث عن ذاتك في المرآة:

إنه حوار مخنوق، لا تسمع منه شيئاً..

بل انزل إلى الشارع في بطء، وابحث عن ذاتك

بين الآخرين؛ هنا تجد الجميع

وأنت بينهم»..

لهذا المحبب لي دائماً أن تكوني أنتِ مرآتي التي أرى في عينيها الشاسعتين كبحر لا مدى لهما «أناي» فمرآة الحب وحدها صادقة.. وحدها شهية بحقائق نعشقها..

محبك الذي يسكن في مرفأ عينيك..

هنري..

49

حبيبي هنري..

أحياناً تكون الكتابة في ذاتها حقنة انتقام ضد السموم التي تبثها الحياة الحقود. . !

هذا الانتقام ينبثق بذرته في نفس الكاتب.. ينمو مع مرور عبء الزمن لتتشكل على عدة هيئات وتلك الهيئات بعينها تتباين من إنسان إلى إنسان.. لكنهم متوحدون في شهوة انتقامهم بساطور الكتابة..!

ومهما أنجبت مضامين الانتقام.. فإنها تظل متراوحة في تناقضات انفعالية التي تعلو النفوس البشرية في معترك حيواتهم.. فالحب والكراهية والغضب والجبن والشجاعة كلها متفجرات تعشقها الكتابة بل تشحن همتها ولهاثها اللامعتاد.

ويجد أنفار من البشر الواقع بمجموعه وسيلة ماتعة لطرح شهواته الانتقامية.. أداة لتصفية حساباته.. على سبيل المثال الكاتب «غوستاف فلوبير» كان يكرر على الدوام بسحنته النافرة أنه يكتب؛ كي ينتقم من الواقع حتى أن «سارتر» في

كتابه «ما الأدب؟» جعل من «فلوبير» بطلاً هجومياً أرستقراطياً على الطبيعة الديمقراطية للغة النثرية وقد قال عنه: «**إن فلوبير يكتب ليتخلص من البشر ومن الأشياء**»..!

ولا تدري أي جرم اقترفه واقعه معه لدرجة تنحيه عن الزواج من حبيبته مدام «كوليه»..! وقد قيل عنه: «**إنه ليس هذا الشخص الذي يصلح بحال من الأحوال أن يعيش مع أحد، وأنه لن يتزوج بها أو بغيرها في أي يوم من الأيام**»..!

لكن الطرافة حين تقودنا الانتقامات التي تفرزها الحياة إلى الكتابة.. وهنا الكتابة تكون تنفيساً حقيقياً وصحياً.. كطرافة قصة امرأة استرالية كما قرأت عنها في إحدى الصحف.. وكانت هذه المرأة تعمل في مطبخ بأحد المطاعم ورئيسها في العمل كان أحمق مما فجرها كتابياً.. فعكفت تكتب عنه بتوالي الأيام قصصاً مريعة حتى قتلته كلياً في رواية.. دون أن تدفع ضريبة قتله.. والأكثر روعة هو تحولها مذ تلك اللحظة من عاملة في مطعم إلى كاتبة..!

الكتابة لا تستدعي فقط إنساناً لديه رصيد من الأحلام.. من الهزائم.. من شهوات متعددة وانفعالات ضاجة.. بل أحياناً تكون ثمة ثغرة ممددة على سرير الكيان لا يملأه سوى بياض أخاذ.. امتداد آخر لمعالجة آفة الفراغ..!

قريب هذا المعنى من قول الشاعر السريالي الكبير «ستانيلاس رودانسكي»: «**لا حيلة أخرى للسجين إلا القراءة والكتابة والتأمل**»..

50

حبيبتي أناييس..

شهوة الانتقام على ورق تضع ذاكرتي السينمائية أمام الممثلة الأمريكية «أوما ثورمان» وهي تنتقم بضراوة حافلة بالإعجاب بحق في فيلمها «قتل بيل».. هذه المرأة عرفت جيداً كيف تشفي غليل انتقامها ليس في حقدها فقط بل انتقلت عدواها إلى المشاهد كذلك..!

ليست الكتابة وحدها هي ربق شهوات الانتقام. . !

كل الفنون باختلاف أنواعها هِي رغبات مدفونة في ذات المبدع وتبعاً لهذا تتفجر ابتداء من بيتهوفن وانتهاء بآينشتاين..!

لكن أن يصب فراغ ما في قاع المبدع عملاً إبداعياً.. فهذا في اعتقادي شيء قابل للدهشة بحق..!

هنا الفراغ يقابل الحياة كلها بالنسبة إلى المبدع.. فهو

عاكف عليها بهمّة؛ كي يطرد السموم التي يبثها ليس في كيانه الإنساني فقط بل تتعدى أجواء الحياة التي يفتعلها.. لتغدو كتلة من الفراغ يطاردها المبدع حتى تتضاءل شيئاً فشيئاً مع الأيام.. وحينما تختفي كتلة الفراغ من حياته تماماً.. سيجد نفسه في مواجهة فراغ من نوع آخر.. ممتلئ بالآخرين لكنه فارغ من نفسه..!

وهذا ما يشكل خطراً جسيماً على إبداعه.. إن كان مبدعاً حقيقياً بغيته في الحياة هي الإبداع فقط ولا شيء آخر.

أرأيت يا أناييس.. كيف تشكل أي قشة في حياة المبدع تحوراً كبيراً ومرعباً في حياته..؟!

المبدع لا يستحق حاسة الإبداع إلا لكونه مجموع انفعالات إنسانية سامقة في صدقها لا تنطلق من عالمه وحده بل هي خليط معاناة الآخرين وهو جزء منها.. الجزء الأهم... فالبشر المنكوبون لا وقت لديهم لنقل خيباتهم إلى العوالم الأخرى.. إنهم منشغلون بترقيع جراحاتهم.. والمبدع وحده هو كبريت الشعلة والآخرون يحملونها.. تلك التي تبرق في غياهب السماوات كلها فجراحات الآخرين هي جراحاته.

إنها رسالة كل الفنون يا حبيبتي.. والمبدع رسول..

تحياتي لـ «رودانسكي»..

من مدونة هنري ميللر: رجل أناني مرغوب فيه..!

(7)
عبء في طاقة الكون

مهزوز الكيان.. مترهل الثقة.. هو ذاك العالم الذي وجدت نفسي فيه أو ربما صنعته أنا بإرادتي..!

يقيم الرجل علاقات كثيرة.. هائماً.. في صحاريه الشاسعة.. لاهثاً.. متخبطاً وشهوة مغامراته مع أي جيفة يصادفها في ضياعه.

تترهل ثقته بكلِ جنس ناعم.. سقفه مهزوز بهن.. قطعا لا يفكر أن يتخذ بيتاً لإحداهن.. كيف يمكن أن يؤثث بيتاً دخل فيه قبل أوانه.. بيتاً نوافذه مفضوضة في وجه الريح.. عتبته مكسورة.. يلجه النائي والداني.. الرائح والغادي.. بلا أدنى حرمه.. عاشرت ذاك الغث.. ملأ جوفي حتى التقيؤ.. وأضحت المرأة التي لم أعرف منها أماً ولا أختاً.. أضحت كياناً لا يستحق سوى التدنيس..!

لا أشد تعاسة من أن يغدو المرء مقيداً مشدوداً بسلاسل في قفص.. سجيناً ولكن ليس من قبل جهة ما أو

بأمر من أحد ما بل سجين بإرادته.. سجين نفسه وأفكاره..! شيء ما في أعماقه يجره إلى أسفل الانحطاط النفسي إلى قن.. العالم كله على اتساعه لمن حوله يضيق به.. يتقلص معه.. يعتصر كينونته حتى يغدو نملة حقيرة ملعونة بالموت في شتى الظروف.. فالأقدام الثقيلة لا ترحم ولا عين لها لتحدق من أعاليها السامقة إلى حيث حشرة لا يلمحها بالعين المجردة إلا حشرة أخرى من بني جنسها..!

أن تكون سجين روحك.. أن تلقّن أفكارك تعاليمك الخاصة.. أن تحفظها وترتلها ليل نهار كصلاة بل تتمثلها في مسرح نفسك يوماً بعد يوم.. كل حياتك منفوخ فيها والآخرون سراب والحقيقة هي أنت.. أنت فقط.. وما عداك فناء وأنت النبض والحياة والروح.

كل من حولي كانوا أراجيز.. أحركهم على هواي.. أعزف أفكارهم على قيثارة أوامري.. أصخبهم.. أبكيهم.. أضحكهم.. أقطع أوتارهم ثم أعيد شدّهم من جديد.. لم يكن لي دافع حقيقي في الحياة كنت أراني أحياناً مطرقة وكل ما حولي مسامير أغرسها في جدار هواي.. نعم أنا مطرقة والبشر من حولي مسامير أو أنا منشار وهم أشجار لابد من تفتيت نشارتها وليمة لدودة الأرض.. تتغذى بها وتكوّن أسطورتها.. كما يكوّن كل إنسان أسطورته الشخصية.

لكن ثمة وقت في حياة كل رجل يجعله في مجابهة حقيقية مع الواقع.. مواجهة عنيفة كصفعة.. كغيبوبة.. كبعث.. ذاك الزمن يهطل عليه كمعجزة في زمن لا يتوالد من حواليه سوى إحباطات وخيبات تقصيه عن الارتباط بأي حفنة من الأمل كإبرة عاقر دون خيط..!

زمن يجعل الماضي من حياته متدلياً على مشجب التيه.. كل خطواته إلى الوراء لم تكن سوى تفاهة.. تلك الأعوام التي قضاها في زنزانة نفسه والتي ترعرعت منها سذاجة طفولته.. غباء مراهقته.. تيه شبابه.. ماضيه أشبه بمسرحية بطلها هزلي يدير حواره مؤلف لم يكن يعلم أنه يصف سيرة حياته.. يقتطعها من روحه. يغذيها بدمه. كل قطرة من دمه كانت الرمق وكانت الروح.. الهواء.. هراء.. هراء.. ولا شيء آخر يستحق الذكر والأنكى من ذلك حين يكتشف المرء أنه كان يتفرج على هراء حياته..!

فهل لي الآن أن أحشو ذاك التيه.. ذاك التاريخ القابع هناك منكس الرأس هو تاريخي.. هل لي بدبوس صغير كي يفقأ تلك الحياة الهزلية المنفوخة بضغطة واحدة ؟!

هل يمكننا حقاً إلغاء كل ما كان بكبسة زر.. بدفعة يد.. بإيماءة رأس..؟!

أم علينا أن نأخذ تلك الحياة والهراء يزحف خلفها باعتباره يقيناً لا بد من الإيمان به شئنا أم أبينا كجزء من تاريخنا الشخصي.. مفاجأة القدر لنا ونحن رممناه بحماقاتنا اللاحقة..؟!

ويأتي ذاك الشيطان الآخر يمد رأسه في هيئة ضمير وتبدأ سلسلة عذابات تنهض من غفلتها ولا تنام وصوته يبح فينا متوعداً: تلك الانهيارات ما هي إلا حماقة من عقيلة رجل فارغ ولا يمكن أن يكون غير ذلك.. رجل محشو بالغباء.. طافح بالرذيلة..!

لا أمرّ من هذه اللحظة: حين تضعنا الحياة في حساباتها وتومئ إلينا بغطرسة لتعلن بملء حقدها الشيطاني بأن حياتنا ما كانت سوى عبء عليها وآن أوان إفراغ الحمولة..!

تلك الحياة العنكبوت.. ترسم البلادة في هيئة ملك متنعم والضياع تجسّده في هيئة ثور فحل..!

تلك الحياة التي تتغنج في فحش أنثى مضمخة بالدلال تتسرّب في أعماقنا وهناك تقلّبنا من جنون إلى دلال إلى حب إلى أمومة إلى رفاهية إلى بهرجة.. حتى تطبقنا هائمين فيها حد الغفلة وحين تملنا تبصقنا في قارعة الهلاك.. حين تملنا تتقوّل ألاعيب لإلغائنا.. وتزفر لعنتها في وجه آخر لم نألفه..

وجه تستدعيه الحياة.. تحرره من نقابها.. ذاك الوجه البشع.. هو الهراء.. هراؤنا نحن.. هراء مشاعرنا.. أفكارنا.. منهجنا.. هو العبء الكلي.. طافح بالآثام والحماقات والجهل والتيه إلى آخر انبثاقات التشرذم..!

ذاك العبء هو أنا ولا أحد غيري..!

يتبع...

51

«إلى حيث قلبي برغ

يتكاثف الغيم، يتموج،

يغطي الفجر الوردي

أواه، لا أحد يريد أن يختبر

كم أنا حزينة جداً. .؟»

أتصور يا هنري.. أن الفيلسوف فارط الجنون «نيتشه» نظم هذه العبارات الشعرية الحافلة بمرارة حزن مكثف كغيمة حبلى بفيضان.. حينما صدّته أكثر النساء إثارة في تاريخ الفلسفة إن لم يكن في تاريخ العالم «لو سالومي».. التي حولت تركيبة العملاق «نيتشه» من مرهف الإنسانية والحس والقلب إلى رجل محطّم.. هش.. مصيدة شر لنساء الكون..!

حتى أن أمه قالت عنها: «لم تترك هذه المرأة أمام ابني

سوى اختيار من ثلاثة: إما أن يتزوجها أو ينتحر أو يصبح مجنوناً» ولقد وقع اختياره على ما يبدو على البديل الأخير..!

إلى اليوم كلما حدقت في تقاطيع هذه المرأة أجدني عاجزة عن إتيان تفسير يقنع حيرتي عن هذه المرأة / الأنثى التي جعلت ثلاثة عمالقة من أمثال «نيتشه» و«فرويد» و«ريلكه» صرعى حبها دون غيرها..!

تعرف هذا يجعل خيالي يعكف بطرافة على أن يتخيل هؤلاء العشاق الثلاثة المتنافسين على قلب «سالومي» وهم متراصون في قبورهم بينما «لو سالومي» تبعث برسائل من قبرها إلى «نيتشه» الذي لم تعره اهتماماً يذكر يوم كانت أنفاسهما الضاجة بالحياة.. فيغتاظ بذلك «ريلكه» وهو في مبيته الأبدي.. فلم تسقطه «لو سالومي» من حساباتها؛ فنقلت له بمكر أن «نيتشه» المجنون يزعجها حتى في مرقدها الأخير.. فينظم «ريلكه» هذا الشاعر مرهف الحساسية في حواف قبره قصائد رائقة الحزن تحكي مآسي «سالومي» في بيت الموت.. بينما العالم «فرويد» حين وشت إليه «سالومي» خبرهما دأب على نظرية جديدة ينسل منها فلسفة ما تقضي على الاثنين معاً وتخلي الساحة له..!

لكن التاريخ اليوم ممتن جداً لـ«لو سالومي».. أليست

هي وراء الأفكار العبقرية التي أبدعها أولئك العمالقة.. أليست هي الملهمة التي أفرغت عقولهم من نزاهة العقل في كل شيء سوى في خلق مزيد من الإبداع في عوالم الفكر والفلسفة والشعر والإنسانية..؟!

هذا صنيع لا تتقنه سوى امرأة متوحدة.. لا تجرؤ عليه سوى «المعشوقة»..!

المرأة الحبيبة هي وطن الرجل الحقيقي.. كيانه.. إنسانيته.. رجولته المكتملة الناقصة دونها..

وحده هذا النمط النسوي يتقن بجدارة تدوير العالم.. وقلبه بعاطفة رجل يدعى «عاشق».. وليس أي عاشق يطيق مثل هذه المرأة النادرة التي لم يصنع تكرارها في الأخريات كأن رحم الكون لم تنجب سواها..!

إنها كيان معجون.. صلصة من إغراء أنثوي وعقلنة امرأة فصّل جسدها كأيقونة..!

وثمة فرق حاد كحاجبين أحدهما مقوس والآخر مستقيم بين لفظتي «أنثى» و«امرأة»..!

فـ«الأنوثة» إغراء قائم على صفة الجنس تحبسها في قارورة الرغبة وتسده بإحكام كي لا تذوبها أي صفة أخرى..!

بينما لفظة «امرأة» هي دلالة عقل شامل مكهرب بشحنات عاطفية..!

«لعل سيمون دي بوفوار» شخصت العلاقة بينهما.. بين «أنثى كاتبة» وبين «امرأة كاتبة» فالصيغة الأولى تراكم اهتمامها على خاصرة جسدها والنهدين المثمرين والشفاه المضمومة والشعر المنسدل على ظهرها المغري ما يدعى بـ«الأنوثة» وتلخص كيانها البشري في صفتها الجنسية..!

أما «امرأة كاتبة» فإنها جامعة لتفاصيل الجنس والكيان والشخصية القائمة على البناء الثقافي باعتبارها مكملة لجنس الرجل في الحياة والمجتمع..!

بل لفظة «امرأة» منغلقة على وجعها. . كأنها لهاث من «آه» متبلة بـ «المرارة» كورته على تاء مربوطة بإحكام. . بينما لفظة «أنثى» فهي فتنة مفتوحة على ألف مقصورة تغازل الهواء بطلق الإغراء. . !

لهذا يفضّل الرجل الأنوثة على المرارة يهيم في تلك التي تستحيله من كائن بشري إلى كائن مطري.. مائي النزعة.. شلالي.. نهري.. لا صحراوي.. مستوحش كغابة لا كهفي..!

المرأة بوصفها أنثى. . والمرأة بوصفها إنساناً. . !

ليست ثقافة مجتمع بقدر ما هي ثقافة أفراد.. فردية طاغية نحتت من جسد المرأة تمثالا قابلا للتعدد والتدوير والتحطيم والأهم للتداول حسبما الأهواء والشرائع والوجدان والأنا المتجبرة في كل كيان ذكوري..!

في قاع كل رجل «تمثال» أنثوي النبض.. يصلصلها على هوى غرائزه.. على شريعة فكره..

فلتسأل «المرأة» كل رجل عن تمثالها المحفور فيه: ما أزخم طقوسها يثيره.. كلها أم نقصانها... وباب الخيارات مفتوح..؟!

والحاذق وحده يجامعها في لفظة : نقصانك. . !

فالناقص في الأشياء يستفزنا لمزيد من التخيل ورعدة الذات من أجل لحظة اكتمال نتوق إليها.

الأشياء المكتملة بالية وبالأدق محكومة بالفناء تسحرنا لوهلة ساحقة سرعان ما تخبو في الدرك الأسفل من الروح.

لا مستقبل في اكتمال خامل وكل المستحيلات تلهث جراء نقصان الأشياء...!

«كأنه البحر قلبي شاسع

ووجهك فيه

مبلل بالشمس يبتسم

للأعماق، للوحدة العذبة

حيث في رقة

تتحطم الموجة فوق موجة»

هنيئاً لك يا «لو سالومي».. إن كانت تلك العبارات المهيجة بالمشاعر التي أنجبها «نيتشه» من معين غموضه وغرابته وفرط حساسيته وجنونه تحكي أسطورة وجهك المبلل بالشمس.

52

أنابيسي..

«لو سالومي» نمط من النساء يقع الرجل في حبها بإفراط.. لكنها تستعذبه كلما ألغى المسافات نحوها.. فـ «لو» تبهرها تلك الأشياء التي تصون مسافتها الخاصة من جرم التعدي..!

ومن هنا قبع تأثيرها في العمالقة «نيتشه».. «ريلكه».. «فرويد» فهؤلاء الثلاثة كانوا على تضحية تامة لجر عربة تحمل فوقها «لو» وبيدها سوط تجلد به ظهور سائسيها..!

ولعل حكايتها لا تختلف في تفاصيلها عن حكاية «أسباسيا» التي أغرم بها «بيركليس» ونافح عنها بكل جسارة حين وجدت في قاعة بها ألف خمسائة رجل يحاكمها بتهمة ازدراء الآلهة ولكن حبيبها «بيركليس» أنقذ رقبتها من الموت ليقتادها إلى فراشه متخلياً لأجلها عن زوجته.

«أسباسيا» كانت ملهمة.. وفاتنة الجميع؛ فـ«سقراط» يقطع دروسه من أجل الاستماع لها وكان «أناكساغورس» يستشهد بآرائها.. تلك الهالة الفاتنة التي أحيطت بها «أسباسيا» جعل حبيبها «بيركليس» يتساءل: أي فن أو سلطة استحوذت «أسباسيا» لتخلب لب ألمع السياسيين والفلاسفة..؟!

أيضاً عشيقة «أرسطو» المدعوة «الكسندرا» الملقبة بـ«الحسناء الهندية» اتخذته دابة تركبه معاقبة إياه على إنكاره حبها فأقسمت أن تنتقم منه.. فنزلت إلى الحديقة في زي شفاف وكان المناخ الحار قد سوغ لباسها، فشاهدها «أرسطو» وهي تقطف الزهور وسمعها تنشد أغاني في غاية الإغراء.. فتن بها واختلجت جميع حواسه فاهتاج ونزل إلى الحديقة يبحث وينظـر ثم أطلق زفرة واقتربت الهندية وسمعت تنهداته وما باح به ولكنها لم توافق على الإصغاء إليه إلا بشرط أن ينحني على قوائمه الأربع وأن يوضع على ظهره سرج وحول رأسه لجام وأن يجعلها تركبه كما لو كان دابة ذلولاً..!

لقد بدد الفيلسوف فلسفته وانصاع وهكذا سعدت الحسناء بأن عرضت على الملك وأعوانه المشددين إلى فرادة المشهد.. وانتقمت من الفيلسوف عدو المرأة ساعياً إلى اللذة

الحسية وقد مسخ دابة وختم المثل الفلسفي بالقول: **حقاً إن الحب يولد سريعاً وينتصر سريعاً على مدى الوجود..!**

هذا حدّ المرأة العاشقة في الرجل.. لكن ماذا عن حدود المرأة الأخرى في حياة الرجل «الأم» الأنثى الأولى في حياته.. يرضع من حلمتها الدكناء رجولته.. تعجن تفاصيله الداخلية وتشكّل أطراف نفسيته والتأثير يكون أشد حين تغدو هذه المرأة أماً لمبدع..!

تعرفين يا حبيبتي..

ثمة جوقة من الكتاب المبدعين عبر التاريخ عانوا على أيدي أمهاتهم.. كن بمثابة هدم.. مطرقة لا تكف عن الطرق حتى قضت عليه نهائياً كإنسان سويّ..!

فـ«بلزاك» هذا الكاتب العبقري عاش أسوأ طفولة عاناها أي إنسان على ظهر الأرض وذلك بسبب سوء معاملة أمه له وقسوتها عليه وهو ما جعله يقرّ بأسى: «**إن أمي تكرهني، وهي تكرهني حتى قبل مولدي، وأمي هذه هي سبب كل ما حل بي من مآسي الحياة**».. وطفولة الشاعر الملعون «رامبو» كطفولة «بلزاك» فهو الآخر كانت أمه قاسية جداً ومتسلطة وقد ذاق مرارة قسوتها.. فاستعاض «رامبو» عن قسوة طفولته بحب الشعر والكتابة.

ولا تقل قساوة أم الفيلسوف «شوبنهاور» التي تجاهلت عبقريته المبكرة وقد كانت تسعى إلى إهانته بين الضيوف.. فعبّر عن بؤسه في مذكراته قائلاً: «**كنت أشعر أنني كائن تافه لا أهمية له في المنزل، وما أعرف من هذا المنزل هو شقاء أبي وعار أمي**»..!

على نقيضهما تماماً الشاعر «بودلير» الذي كانت أمه تغدق دلالاً مفرطاً عليه حتى تعلق بها أيّما تعلق.. وحينما تزوجت أمه رجلاً آخر.. كان هذا الزواج بمثابة كارثة له أفقدته الأم التي كانت جل حياته وقتئذ.

بينما طفولة «ريلكه» لا تتفاوت إلا بقدر ضئيل عن طفولة «سلفادور دالي» فالأول أمه ألزمته بمحاكاة شقيقته المتوفاة في صغرها.. لتتلبّس فيه متسببة لهويته الشخصية باحتجاج صامت.. بينما «دالي» أعدّه أهله كي يكون نسخة عن شقيقه الذي فارقه قبل ولادته بعامين..!

من جانب آخر ثمة مبدعون كانت أمهاتهم رواء عظمتهم.. فمبدعة قصص الجرائم والرعب «أجاثا كريستي» أقرت بأن أمها هي التي طلبت منها ذات يوم وهي متوعكة على سرير الحمى والمرض أن تشغل وقتها بكتابة قصة وحينما تذمرت بعدم قدرتها.. شحنتها بالمحاولة.. ومن هنا

كان صفير إبداعاتها مع قطار الكتابة.. ففاز قراؤها بأروع قصص الجرائم التي أمتعتهم بها أجاثا عبر مشوارها الكتابي.

وكذلك «شارلي شابلن» الذي كان لصيق أمه تلك التي جمهرت المسرح بغناء صوتها الجميل وكان شارلي لصيق مسرحها.. كي يهجر وحدة جدران البيت ويبدو أن الصبي تأثر بها.. فطفق يقلدها حتى أعجبت موهبته مدير المسرح.. ليجد بذلك مأوى نكاته الساخرة وهو ما يزال في سن صغيرة.

ولعل أغرب علاقة أمومية على وجه الكون.. هي حكاية «أوديب» مع أمه؛ فـ«أوديب» الملك في مسرحية «سوفوكليس» الشهيرة تسقط عنف مأساته حين يكتشف إثم زواجه من أمه.. فيوقع بنفسه العقاب ويفقأ عينيه.. يسير في العالم تدمعان دماً لتقوده بنت صغيرة هي ابنته وشقيقته في الوقت نفسه ويظل سائحاً في العالم تائهاً ضائعاً خنوعاً مثقوباً بالحزن..!

«أعطِ المرأة وسوف تحتل الكلمات موقعها المناسب».. هذا ما أؤمن به أنا المدعو «هنري ميللر» حبيبك الأبدي..

(8)
جرائم الحرية

وهكذا.. هكذا.. هكذا.. في زمن ما.. تلك النفس التي كانت بالنسبة إليه موبوءة يدهشها كينونة حية.. كتلة من المشاعر والأحاسيس.. لحم دافق بالنقاء والصدق والبراءة والوفاء والحرية.. تخترق أنانيته وجشعه وغروره.. «امرأة واحدة».. كأن الله وضع كل نقاء الكون فيها.. كأنها مخلوقته الوحيدة التي لم يخلق قط دونها.. لتوقف مجراه عن التيه.. لتضع حداً لدورانه حول لا شيء.. امرأة خارقة.. محال أن تكون غير ذلك.. محال.. محال..!

المرأة الحقيقة.. تلك التي تُشعر الرجل بالحرية في مساقها الصحيح.. الحرية الحقة لا المنفلتة..!

الرجل يعيش على هامش فوضى مؤمناً أنها حريته التي لن يجد بعدها حدوداً دون أن يخوضها.. بلا أدنى التفات لمفاهيم فطم عليها مذ شبّ عوده.. لمعتقدات أسلافه الأصيلة.. ديدنه ميكافيلي النزعة وشعاره يشق دربه الملتوي

فغايته تبرر وسائله كلها معتقداً بغفوة طاغية أنها الحرية التي كان ينشدها وما هي في حقيقتها إلا قناع برر بها تيهه اللامشبع.. فما أعتى الجرائم التي تلطّخ باسم الحرية..؟!

يتبع..

حوار افتراضي مع هنري ميللر..(*)

س 1 : في روايتك «مدار السرطان» عبرت بقولك معترفاً بأن الكاتب لا يحتاج إلى ذراعيه وساقيه في الكتابة بل يحتاج إلى الأمان والهدوء والحماية، هل مازلت تؤمن باعترافك هذا..؟

ج 1 : أجل أؤمن بكل حواسي التي وهبها الله لي بأن الهدوء والحماية مهمان جداً لكل كاتب والأهم هو الشعور بالأمان.. فالأمان هو صمام الإنسان كي يتقي شر العالم والبشر من حوله، ولا يستدعي أهمية الأمان في حياة الكاتب فقط بل هو شعور حيوي نافذ على جميع صعد العلاقات الإنسانية في الحب.. وفي الأمومة.. وفي التعليم.. في التعامل مع الآخرين..

(*) هذا الحوار افتراضي بأسئلته وأجوبته سوى ما استشهد به من عبارات من روايات الكاتب نفسه، وقد وضعت ما بين القوسين.

ببساطة الحياة بلا أمان أشبه بمشاطرة استنشاق الهواء مع أسد شرس في قفص واحد..!

يمكن اعتبار الأمان في حياة الكاتب بأنه أداة مهمة من أدوات الكتابة التي لا يمكن له الاستغناء عنها بأي شكل من الأشكال؛ ولأنه باهظ الثمن.. لهذا أنا مطارد له ولاهث خلفه كما الآخرون.. كلنا نكتب من أجل لحظة أمان باهرة تغمرنا.. تنتشلنا من عاهات متفاقمة.. امممم.. دعيني أستشهد بشعر قاله «انغيليوس زيليسيوس»: **«لست أدري ما أنا / لست ما أدري/ شيء ولا شيء/ نقطة أم دائرة»**.. وأنا بدوري أقوله له: لست أدري ما أنا ومن أنا. لولبي.. طولي.. عرضي.. دائري.. اسطواني.. مستقيم.. مربع أو مثلث.. نقطة أم دائرة وكثيراً ما أعتقد أني متوازي الأضلاع وأحياناً قليلة مخروط.. كأنما عقدتي أكبر وأكثف من عقدتك يا «انغيليوس زيليسيوس»..؟!

تلك العاهات مهما بدت وتنوعت هي فاقعة في عالمنا الوجودي رغم سعينا الدؤوب والأبدي لإخفائها كالخوف والخذلان والفشل بأنواعه العاطفي النفسي الاجتماعي العملي الفكري الديني الأبوي

والأممي ناهيك عن الاكتئاب والقلق والتوتر إلى بلوغنا مرحلة الاكتفاء من الحياة برمتها..!

فالأمان وحده هو الحل الفتاك والسلاح النووي الذي يدّمر كل ما سبق من ترسبات عاهاتنا.. الأمان يصفّي الروح ويسمو بها نحو أعلى.. ومن هنا - باعتقادي - نشأت فكرة الكتابة.. إنه الإحساس المدهش بالخفّة وغبطة العلو..!

س 2 : هل أنت رجل حر..؟

ج2 : سأقول كما قلت في «مدار السرطان»: «أنا رجل حر وبحاجة إلى حريتي، بحاجة إلى وحدتي، بحاجة إلى التأمل في عاري ويأسي في معتزلي، أحتاج إلى أشعة الشمس وحجارة رصيف الشوارع بلا رفاق، بلا حديث وجهاً لوجه مع نفسي، ليس لي إلا موسيقى قلبي رفيقة لي.. ماذا تريدون مني..؟ حين يكون لدي ما أقول..! أقول الكتابة، وإذا كان لدي ما أهب.. أهبه.. فضولكم الوقح يثير غثياني..! إطراءاتكم تذلني..! شايكم يسممني..! لا أدين لأي إنسان، لست مسؤولاً إلا أمام الله وحده..»

س 3 : أين هي المرأة من رفقة قلبك..؟

ج 3 : آه من المرأة.. إن كل ويلاتي في الحياة كانت على يد المرأة.. كانت بسبب المرأة.. بسبب كذبها وغطرستها.. بسبب إغرائها الغامض المحرّض للقلب... إنها تستفزك كهدية ملفوفة بمغلّف مثير تتوق إلى فتحها لتشبع فضولك المجنون فيما يحوي جوفها من كنوز مخفية.. وعند هذه النقطة بالتحديد ستقف قليلاً.. وقد يتراجع فضولك النهم.. فليس كل النساء يحوين بداخلهن كنوزاً.. إن منهن من تحوي في جوفها قلباً لن تشفى منه أبداً وأخريات خاويات لا قلوب لهن أشبه بغرف فنادق رخيصة تنساها بمجرد رحيلك عنها..!

في اعتقادي هذا ما يفرق بين كل امرأة وامرأة.. ثمة نساء يعشش في قلوب الذاكرة كلاصق قوي لا تبرأ الذاكرة منهن مطلقاً.

وأنا أعشق المرأة التي لا أملكها ولا أنساها والتي تملكني بدورها كأمنية أتوق إليها طوال عمري..!

س4 : وصفت الروائية «إيزابيل الليندي» في إحدى رواياتها العاهرات بأنهن «حمامات مدنسات» ما رأيك بهذا التصنيف وأنت المولع بالمومسات..؟

ج 4 : أنا لست مولعاً بالمومسات رغم اعترافي بهذا.. أنا رجل يعشق المرأة التي تمنح بلا حدود.. ولا يوجد رجل عاقل على سطح هذه الكرة الأرضية لا تخطف لبّه امرأة تمنح بطاقة هائلة..!

المومسات يقمن بأدوارهن على أنبل عطاء وهذا ما يحبب الرجال فيهن.. كشخصية «جيرمن» في روايتي «مدار السرطان» فـ «جيرمن» هي نوع من المومسات التي تمنحك حتى أعماق قلبها الطيب.. قلبها العاهر.. المترهل غير المبالي.. هو قلب لا علاقة له بأي نقطة داخلية ثابتة.. قلب عاهرة يمكن أن ينفصل لحظة عن مركزه الحقيقي.. ومهما كان العالم الذي خلقته لنفسها وضيعاً ومقيداً فهي تؤدي عملها بشكل رائع.

إن وصف إيزابيل الليندي لا شك يقارب واقعهن جداً وهذا مؤلم ووضيع، لكن لا مهرب من الواقع؛ فالمومس تظل وضيعة بحكم التاريخ والزمن رغم كل ما تهبه بعطاء كبير..!

دعني أعبر بالمعنى الأعمق على المرأة المتزوجة أن تكون راهبة وبغياً في آن واحد كما ذهب «روسو»..!

س 5 : حياتك أشبه بكتاب مفتوح، بعد كل ما كتبته طوال تلك السنوات، هل عرضت جميع أحشائك كما كنت ترغب..؟

ج 5 : يبدو أن حياتي كانت كتاباً مفتوحاً.. لكنه بقدر ما كان مفتوحاً للعالم كان مغلقاً لنفسي..! في كل كتابة أنا أتيه في دروبي ثمة حيوات عديدة طافحة في داخلي.. إنني لم أتعرّف على كل أحشائي بعد ولعل هذه الأحشاء المجهولة هي التي تضخني بهيجان أنبوب ماء نحو نار الكتابة المشتعل فأزيدها تأججاً.. والكاتب ليس ذاك الإنسان الذي يتقلب في حياة واحدة ويكتفي بها.. إنه مجموع حيوات وتلك الحيوات هي التي تخلق عالمه الكتابي الصاخب..

س 6 : من هي «أنابيس نن» في حياتك..؟

ج6 : أنا عاجز أمام هذا السؤال..! من هي أنابيس نن لهنري ميللر..؟!

إنني أدين لهذه المرأة بكل شيء باهر في حياتي.. هي المرأة التي غرست في جلدي الأمان.. لم أملكها

بالمطلق الكلي وهذا ما كان يؤجج زلزال حبي نحوها.. هي المرأة التي كنت أعشق أن أثرثر في حضرتها بأريحية ساحقة.. هي نمط نسوي لا يتكرر.. وكأن الله خلقها قالباً واحداً منفرداً لا شبيه له..!

باختصار: هي ملهمتي وقارئتي وحبيبتي وروحي المتفجرة بالحياة ورفيقة انفعالاتي كلها بصخبها وترحها واحتفالاتها وسكونها وكرنفالات جنوني.. إنها أنابيسي..!

س 7 : ماذا عن حزمة أحلامك..؟

ج 7 : لي حزمة من الأحلام هي غذائي الروحي كما للمعدم.. إنني كائن هش بالمعنى الفعلي.. وهذه الأحلام هي التي تصلّب وجودي في الكون.. إنني لا أستغني عن أحلامي.. لي كثير منها.. أكثر من عدد السنوات التي اعتمرها.. أكثر من عدد النساء اللاتي كنت رهين إغوائهن.. أكثر من عدد النجوم المثقوبة في عتمة الليل وهذا ما يجعل حياتي مثيرة بمعنى صاخب..

أن تكون خالياً من الأحلام يعني خلو حياتك كلها من دسم اللذائذ.. إنني طريح أحلامي أطاردها حيثما كنت.. في كثير من الأحيان يقبضني شعور راعش من

أن أستيقظ يوماً ما على محقق للأمنيات يقول لي: شبيك لبيك أحلامك كلها واقعة بين يديك..!

يااااويلي.. كم يقتلني هذا الشعور..!

أجل قد أطمع في محقق للأمنيات كما كل انسي ولكني أعود وأراجع نفسي بتعقّل: هيه هنري.. إن رأيت أحلامك فراشات ترفرف في فضاء غرفتك وأنت تقبض عليها واحدة بعد أخرى بسهولة مطلقة.. فماذا بعد آخر فراشة.. ما الذي تطارده بعد فنائها.. فناء أحلامك جلّها..؟!

إن تحققت جُلّ أحلامي ستموت الإثارة من حياتي وأغدو شخصاً لا مبالياً.. خاوياً من الحياة.. سأغدو قطعة لحم منفوخة من الرتابة بالمعنى المخيف وهذا ما لا أرغب فيه.. لهذا أنا عبد لأحلامي لا سيدها..!

وفي الحديث عن أهمية الأحلام كان اللاعب الأوكراني «شيفشنكو» يلعب المباريات بلا كلل.. ولم يكن يهتم إن كان المدرج به 100 ألف متفرج أو وحده يلعب مع أحلامه..!

س 8 : كيف حال طفلك الصغير في أعماقك . . ؟

ج 8 : طفلي الصغير في أعماقي شقي، دائم الطلب.. ويبدو أنه لا يعي تخبّطه كسمكة طازجة في قلب رجل مسن ما عاد قلبه الوجل يتحمل خوض المخاطر.. وأقصى ما يتمناه هو أن يقضي البقية الباقية من حياته في أمان.. لكن طفلي لا يفهم هذا؛ إنه شقي ويعشق الحياة بكل ألوانها الفاقعة.. مأخوذ الحواس مع موسيقاها واستعراضاتها الراقصة والحبو تحت المطر والقفز من حب إلى وله إلى عشق إلى غرااااام... تحت زخات الصقيع وحمم البراكين هناك يكن طفلي..!

إن طفلي حيّ وخالد ولا عمر له..!

س 9 : القراءة. . أينها من الحياة. . ؟

ج 9 : الحياة في ذاتها بكل أبعادها الشاسعة. بكل أصواتها. صمتها. زلازلها. براكينها. مستنقعاتها. صحاريها... هي حالات قراءة.. كما الحب هو فعل قراءة مشاعر إنسانية.. كما مشاهدة فيلم في السينما.. كما التمشي على الشاطئ.. كما أن تطبق عينيك كل ليلة لتشرعهما الشمس على خيال حبيبتك الرطب.. كما أن تلاعب

طفلاً غضًّا.. كما أن ترشف فنجان شايك بهدوء راهب.. كل ما سبق هي أفعال قراءة.. القراءة ببساطة هي التمتع بالحياة واستنشاقها حتى الأعماق.. ووحدهم العاجزون عن تقبل الحياة بكل طقوسها هم الذين لا يجيدون القراءة وأراه أمراً مؤسياً بحق..!

س 10 : متى تغدو الحياة مسرحاً مقنعاً بالزيف . . ؟

ج 10 : عندما لا نكف عن زيف مشاعرنا وأحاسيسنا الحقيقية تجاه الآخرين وتجاه أنفسنا، غدت حيواتنا في حالة انتقالات مزيفة من مسرح إلى مسرح.. مسرحيات مستمرة حتى أمام ذواتنا.. مسرحيات تفوق بزيف وجوهنا فيها وزيف كلماتنا ما يدور على أي مسرح خشبي..!

وإذا ما استمر الحال على ما هو عليه من زيف وخداع وغدر للمشاعر فإن البشرية في طريقها إلى الفناء.. وأعني بالفناء هنا هو الموت الروحي ويبقى الجسد وحده في واجهة الحياة الخادعة..!

س 11 : ما آخر ما كتب عنك . . ؟

ج 11 : حوارك وهذا الكتاب الافتراضي يا عزيزتي.. كم تدهشني الافتراضات..!

خصوصاً تلك التي تلصق على لسانك اعترافات وفضائح لم تتفوه بها يوماً، إنه شعور جنوني مثير للاهتمام وهو متعتي المفضلة في الحياة ولهذا افسحي في المجال لـهنري ميللر هذا الرجل الذي رافقك في افتراضات خيالك في هذا الكتاب يستوقف جنونك لبرهة في سؤال :

- متى ستفرغين من استعارتنا أنا وحبيبتي أناييس. .؟!

ليلى: بقيت فقط مقالتي.. تلك التي خصصتها لمحبوبتك الخالدة أناييس نن ومن بعدها فأنتما طليقان من سجن سطوري ولن أتلصص عليكما أكثر مما اقترفت..!

هنري: واااااه.. «محبوبتي الخالدة»... أحببت هذه الانجراف منك.. أحببته جداً لأنابيسي..!

ليلى: «محبوبتي الخالدة» خطّها «بتهوفن» في رسالة غرامية لامرأة مجهولة ولم يشبع نهم فضولنا للتعرف إليها..!

هنري: لا خوف عليك.. اخترعي هذه الحبيبة.. اخترعي له محبوبته الخالدة.. فها أنت على وشك الفراغ مني وأنابيسي..

ليلى: الخيال مشروع اختراع مسيو هنري.. لكن

أخشى من أن المسيو «بتهوفن» هو الآخر
يحرّضني على اختراع حبيبة مجهولة لشخصية
ما.. وعلى هذا سأكون أشبه بـ«برنارد شو»
الذي ظلت مراسلته العاطفية على مرّ السنين
مع السيدة «باتريك كامبل»..!

هنري: هههههههه.. سير الحب لا تنضب يا شقيّة..!
لكن علي الاعتراف بأن الحرية في سطور
افتراضاتك مذاقه مختلف.. هل يهمك معرفة
السبب..؟!

ليلى: يهمني جداً مسيو هنري..

هنري: لأنك حررتني وأناييس من مغبة التهمة.. أن يأتي
أحدهم ويستلم عقلك.. فيحقن فيه أفكاره
ويسبغ على كيانك عواطف.. فيفترضها عنك..
في هذا حرية مطلقة يطلق سراحنا عن مطاردة
ما نقترفه.. ما كنا اقترفناه.. ما سوف نقترفه في
المستقبل...!

ليلى: هذا يعني أن الكاتب الأخير هو المُدان..!

هنري: أنت مدين لي وأناييس ومدانة من قبل الآخرين..!

ليلى: سيظل الكاتب مطارداً بلعنة ما يترسب في خياله وإن كان ما يسرده عجين من الافتراض خبزته كفكرة ..!

هنري: واللعنة تلك هي سرّ بريقنا يا غيمة متنفّسه بهدوء.. وسوف أظل على امتداد عمري الافتراضي أقهقه على هدوء أنفاسك..!

ليلى: لماذا يا مسيو هنري.. هل تنفّسي مهرج في سيرك..؟!

هنري : هههههه.. بل لأننا في زمن الاحتراق..!

ليلى: إذن من الممكن أن أحرقك ويغدو هذا الافتراض وليمة لفم تنين معدته فارغة..؟!

هنري: ومن قال إننا لم نتعرض للاحتراق..؟ الحب هو أعنف احتراق يا ليلى..!

ليلى: ممممممممم.. غلبتني مسيو هنري.. ارفع قبعة هزيمتي..!

هنري: بل اتخذي معولاً وباشري الحفر..!

ليلى: وما حاجتي لمعول وحفر مسيو هنري..!

هنري: لتحفري تقاسيم حياتك في جسد هذا الكون..!

ليلى: بل أفضل الدبوس والمسمار..!

هنري: (................)..؟!

ليلى: كي أشجب الذاكرة المريرة وهذا شأن يتحمله المسمار الذي لن يطيق ثقل ذاكرتنا مع شيخوخة صدأ تتغلغل إلى أطرافه.. فنحن مجرد ذاكرة وأسماء وفقدانهما يوازي فقدان أنا الكل... فـ«أنا» = ذاكرة + اسم..!

هنري: والدبوس..!

ليلى: اغرسه في دمي؛ كي لا أجني على الإثم مرتين..!

هنري: ليلى...

ليلى: مسيو هنري.. نعم.....

هنري: هل لي باستعارة فكرة مسمارك ودبوسك..؟!

ليلى: للآخرين ولك..

هنري: الحياة دبوس ومسمار.. أما المعاول والجرافات والملاعق والأشواك والسهام فإلى مزبلة الماضي.

(9)
عاشق فيلسوف

ولما امتلكت استقلاليتي باعتباري رجلاً مسؤولاً.. تمدن «الحب» في قاموسي معنىً آخر.. ولا أدري كيف هو الحب عند المرأة؛ لأنها خلقت تواً في سجل حياتي الجديد..!

لكن الحب يجعل الرجل حائراً.. هشاً.. سريع التعطيب حيناً وفي داخله ثوران لا يهدأ حيناً آخر.. ناره مشتعلة.. صيفه شتاء وشتاؤه صيف.. ليله نهار ونهاره ليل.. أقصى مناه قربها.. غايته رضاها.. والأهم من ذلك يحيل الرجل فيلسوفاً يقطر حكماً لا يحيط علماً من أين واتته جسارتها..!

كل حيرته وهشاشته تنجلي حين تشاطره المرأة التي يعبدها مشاعره ودفق أحاسيسه وقد يموت هالكاً في سبيل نفيها له..!

وقد ذهب أحد الحكماء سارداً عن فلسفة الحب: الناس في هذا العالم كالفراشات الثلاث أمام شعلة الشمعة. .

الأولى ذهبت وقالت: أنا أعرف الحب. .

والثانية مسّت اللهب بأجنحتها وقالت : أنا أعلم كيف لهيب الحب يُحرق..

الثالثة رمت بنفسها إلى النار واحترقت بها هي فقط تعلم الحب الحقيقي..!

مقالتي عن يوميات أناييس نن..

أناييس نن الأنثى المخاتلة.. الراقصة الاسبانية وعارضة الأزياء وموديلا للفنانين والنحاتين احترفتها ريشتهم وخليط ألوانهم.. لتخلق منها أنثى أخرى مليئة بشهوة الحب والحياة والجنون والجمال.. الكاتبة الشغوف بربق الحروف المبرعمة على الجرأة والتصريح فكلماتها مرايا تعكس لواعج النفس الإنسانية.. تتلاقى مع الأرواح لتعري غموضها وتكاشف خفاياها المتأصلة في هيئة علاقات تشتفي آدميتها في كل لحظة كتابة.

تقول بجسارة عاشقة متولهة : **«كنت أشعر بأني يجب أن أحضّر لحب قادم، كأن أفتح مظلات وأمد السجاد الرسمي، وكأني يجب أن أخلق أولاً عالماً رائعاً يضمه، لكي أستقبل ضيف الشرف هذا استقبالاً يليق به»** . .

فوحده الحب هو الأيقونة التي نسجت منها عالم

يومياتها الشهير.. تدفقت منها حتى الارتواء ووجدت في توقه الحرية التي كانت حلماً منشوداً في قلب كل امرأة.. فأي امرأة هي تحضّر مراسيم الحب في عالمها إيذاناً لاستقبال ضيف شرف مترقب قدومه كزخات الثلج.. كقدوم الربيع.. كارتشاف قهوة الصباح في كل يوم.. استقبال يخوّله الحب ولا شيء غير الحب.

رغم شقاوتها المحببة كانت جيوبها مشرعة لأيدي أصحابها أولئك الذين ضمتها معهم علاقات دفء وصداقة إنسانية وحب أبدي آسر كبريق الماس.

ولدت هذه المرأة بتقاسيمها الساحرة في ضواحي باريس لأب إسباني كان عازف بيانو وأم ألمانية.. توفيت وهي مواطنة أميركية.. حياتها عبارة عن محطات قطار ومن رصيف إلى آخر كانت أنابيس السندباد المتنقلة من كوبا وأميركا وباريس.. لكن باريس وحدها هي مدينة الحظ والأضواء الساطعة.. هي الغيمة التي حبلت شهرتها الأدبية الساحقة وفي أزقة مدينة الضوء المحتشدة بألوان الحياة والبشر وجدت نفسها مغمضة العينين منتصبة بتلهف أمام «هنري ميللر» الرجل البائس الذي انتشلته من أيدي المومسات وقطاع الطرق إلى أضواء باريس الصاخبة برفاهية الفكر والثقافة في علاقة حب وصداقة خالدة.. وقد قال فيها بامتنان

كبير: «**أناييس هي فرنسا، هل تفهم..؟! كانت أناييس نن بالنسبة إلي هي فرنسا، لقد فتحت عيني، علمتني.. شيء غريب أنايس هي التي أدخلتني إلى الأدب الفرنسي، وفي الواقع أنا مدين لها بكل شيء إذ من دونها لا أعتقد أنه كان من المتيسر علي أن أصير شيئاً مذكوراً ككاتب**»..

هي علاقة حب استثنائية وأعمق ما التهبت حرارتها في المناقشات الأدبية والكتابية التي أفرزتها الثقافات الهائلة والخبرات المتعددة التي شهدتها تلك الفترة المتأصلة من ذاك العصر.. عصر السيرة الذاتية واليوميات.. تلك الكتابات التي استقت جرأتها من خبرات الكاتب ومعايشته الدائمة للخيبات والهزائم النفسية المتأصلة تحت الجلد وخارجها في الآن معاً باعتراف هنري ميللر: «**نكتب ونعلم أننا مهزومون قبل أن نباشر الكتابة، وفي كل يوم نتوسّل لنحصل على عذاب جديد**»..

لتكون الكتابة هي الحبل المشدود يسير عليه بهلوان تدفع خطواته المترنحة ما بين السماء والأرض مغاور النفس البائسة قبل أن تدفعه كل خطوة مغامرة بالحياة إلى الأمام. إلى أسطورة الأحلام تلك التي تتولد حزمها من شهوة الحياة الماتعة بوجهيها المتناقضين أبداً الأبيض والأسود.. فالأحلام وحدها تغني الواقع المرير.

«أريد أن أكون كاتبة تذكر الآخرين بأن أناييس نن، هذه اللحظات موجودة حقاً، أريد أن أثبت أن هناك فضاء غير متناهٍ، معنى لا حدود له، بعداً لا حصر له». .

حمّلت كتابتها عدة رؤى.. كانت بحق شهادة عن عصرها الذي كان زاخماً على عدة صعد نفسية وعاطفية وإبداعية وفنية ولغة سيكولوجية مستبطنة لعوالم الداخل وايروتيكية مشتعلة نحت وصفها عن السوقية والابتذال.. فخلفت يومياتها بمجلداتها السبعة رؤية بانورامية صادقة وجريئة حد الصدمة.. دافئة ومدهشة ومغامرة وهي نعات بعينها مثلت كيانها الأنثوي كإنسانة صادقت الحياة قبل أن تصادق بشرها الأحياء.. وباعتبارها مثقفة وجدت نبل أهدافها في الكتابة المسترسلة عن شخصها وشخوص أولئك الذين عاصروها.

«الحيـــاة العادية لا تثيرني، إنني لا أنشد سوى اللحظات المفعمة بالإثارة، إني أتفق مع السرياليين، أبحث عن الشيء الرائع».

ورغم أن السرطان نهش البقية الباقية من سنواتها إلا أنها ظلت المرأة التي عرفت جيداً كيف تصمد كسهم حاد في وجه الحياة بهالة تحد كثيف بحثاً عن الأشياء الرائعة كما تاقت تماماً.

رسالة عابرة رميت في صندوق بريدي الالكتروني

«لو شاء الله.. أن يهبني شيئاً من حياة أخرى فسوف استثمرها بكل قواي.. ربما لن أقول كل ما أفكر فيه لكني حتماً سأفكر في كل ما سأقوله.. سأمنح الأشياء قيمتها، لا لما تمثله، بل لما تعنيه.. سأنام قليلاً، وأحلم كثيراً، مدركاً أن كل لحظة نغلق فيها أعيننا تعني خسارة ستين ثانية من النور.. سأسير فيما يتوقف الآخرون، وسأصحو فيما الكل نيام.. لو شاء ربي أن يهبني حياة أخرى، فسأرتدي ملابس بسيطة وأستلقي على الأرض، لا عاري الجسد فحسب، وإنما عاري الروح أيضاً.. سأبرهن للناس كم يخطئون عندما يعتقدون أنهم لن يكونوا عشاقاً متى شاخوا، دون أن يدروا أنهم يشيخون إذا توقفوا عن العشق.. وتابع يقول: «للطفل

سأعطي الأجنحة، لكني سأدعه يتعلم التحليق وحده، وللكهول سأعلمهم أن الموت لا يأتي مع الشيخوخة بل بفعل النسيان، لقد تعلمت منكم الكثير أيها البشر.. تعلمت أن الجميع يريد العيش في قمة الجبل غير مدركين أن سر السعادة تكمن في تسلقه.. تعلمت أن المولود الجديد حين يشد على إصبع أبيه للمرة الأولى فذلك يعني أنه أمسك بها إلى الأبد.. تعلمت أن الإنسان يحق له أن ينظر من فوق إلى الآخر فقط حين يجب أن يساعده على الوقوف، تعلمت منكم أشياء كثيرة..! لكن قلة منها ستفيدني، لأنها عندما ستوضع في حقيبتي أكون أودع الحياة.. قل دائماً ما تشعر به وأفعل ما تفكر فيه... لو كنت أعرف أنها المرة الأخيرة التي أراك فيها نائمة لضممتك بقوة بين ذراعي ولتضرعت إلى الله أن يجعلني حارساً لروحك.. لو كنت أعرف أنها الدقائق الأخيرة التي أراك فيها لقلت «أحبك» ولتجاهلت - بخجل - أنك تعرفين ذلك.. واستطرد: «هناك دوماً غداً، والحياة تمنحنا الفرصة لنفعل الأفضل، لكن لو أني مخطئ وهذا هو يومي الأخير، أحب أن أقول كم أحبك.. وأنني لن أنساك أبداً.. لأن الغد ليس مضموناً، لا للشاب ولا للعجوز.. ربما تكون في هذا اليوم المرة الأخيرة التي ترى فيها أولئك الذين

تحبهم.. فلا تنتظر أكثر، تصرف اليوم لأن الغد قد لا يأتي، ولابد أن تندم على اليوم الذي لم تجد فيه الوقت من أجل ابتسامة أو عناق أو قبلة أو أنك كنت مشغولاً كي ترسل لهم أمنية أخيرة.. حافظ بقربك على من تحب، اهمس في أذنهم بأنك بحاجة إليهم، أحببهم واهتم بهم، وخذ ما يكفي من الوقت لتقول لهم عبارات مثل: أفهمك، سامحني، من فضلك، شكراً، وكل كلمات الحب التي تعرفها.. لن يتذكرك أحد من أجل ما تضمر من أفكار، فأطلب من الرب القوة والحكمة للتعبير عنها.. وبرهن لأصدقائك ولأحبائك كم هم مهمون لديك»..

نص رسالة ماركيز الأخيرة

«........»..

مذ رحيلك تمددت المسافة بيني وهذه الرسائل التي لم أجزؤ على فضّها..!

الرسائل التي شهدت كتابة بعضها بنظراتك المتلهفة.. بعناقك الفائض.. كنت دائماً تمارس السلوك عينه.. كل مرة تلقي علي بدلو حنانك كامل الدسم.. تختصرها في ابتسامة وفي ألفة صمتك عرفت معنى أن يغدو الصمت أروع معزوفة أبدية يستكين بها القلب الإنساني..

«.........»..

لم يكن رحيلك سهلاً البتة لكنه كان بخفّة فراشة على الروح..!

هل أعترف بأني منذ أعوام وأنا أدرّب عالمي على رحيلك «كم أخشى الأشياء التي أحبها لأن رحيلها حاد كدبوس

نحفره في قلب بالون فيفنى بغمضة عين في ترهل أبدي»..!

ربما لهذا روّضت نفسي على وضع مسافات.. مسافات بيني وبين الآخرين.. بيني وبين الأشياء.. بيني وبين الأمنيات والأحلام والحياة..!

لماذا دائماً كنت أتنبأ أن تعبئني بوداعك في ليل شتوي.. هل لأن ولادتي كانت في ليلة شتوية..؟!

كم نحن - أنانيون - حين يتعلق الأمر بكائن نحبه.. ليس أي حب.. حب من نوع متمدد.. كثيف.. هائل.. لا أجسر على الوصف.. حقاً لا أجرؤ.. فقط خذ بقلبي الصغير بين يديك واسمع نبضه العنيف..!

«.........»..

ثمة رسالة ضمن رسائلي الافتراضية.. رسالة تعاقب ذاكرتي وتسحبها إلى الوراء.. إلى حيث أنا وأنت وليل ثقيل طويل.. استرجع بكثافة تلك الليلة.. اذكر جيداً ظلمتها الموحشة كنت أثقب الحاسوب بتكتكات أصابعي منكمشة في زاويتي الخافتة؛ حيث كان هذا الفتيل الخافت يضيء بشراسة بنات أفكاري فلا توجعني الظلمة ولا أكاد أحس بها في حيّزي.. في تلك الليلة الموغلة في الثقل وكأنما أنين ما سحب ظلك من فراشك في انتصاف تلك الليلة.. مزق

المسافات حيث أنا.. ساندني بابتسامة مطلقة.. وظل رابضاً خلفي وأنا أطارد روحاً هزيلة أكتبها وتكتبني.. رباه.. كانت رسالة مثقوبة والوجع يقطر منها بحرارة..!

ربااااه.. بعد أقل من أسبوعين من كتابتها رحل الظل على حين غرة لنا نحن - البشر -العاديين.. نحن الذين نوقن على وهم أبدية الظلال.. يااااه كم تخدعنا الشمس..! كم خدعتنا وهي تقبض على حيز أعمارنا حيث لا فرار سوى إلى ظلال منكمشة في زوايا مظلمة.. نسند أجسادنا هناك ونحن لا نعي أو لا ندري أو وعينا مقبوض بوهم الحضور المبلل بالحياة أن هذا الانكماش في أمان الظل هو ما يباغتنا إلى رحيل غير مهيأ له..! رحيل يباغتنا كنوبة اختناق أو كعطسة لم تكد تلتقطها آذاننا من هول سرعة تفلّت الروح..!

ولكن وحده الحكم السماوي يسندنا بتعقل بعد صدمة الرحيل بأن ثمة شجرة مورقة بأسماء كل بني آدم وحواء.. شجرة حين تهضم روحنا تجعل الريح تكنّس تحتها ..!

ومرقت الأيام.. بلون جلد متقشّر من سمنة الحنين..!

كان كتاب الكاتب «رسول حمزاتوف» يتوسط مكتبي منذ تاريخ رحيلك.. كم بغضت هذا الكتاب وصفحاته..! حتى أنني تركته رهينة بيد الغبار زاحفاً إليه بامتنان كبير وفي

كل مرة تقع عيناي عليه أحدجه بنظرة آثمة كأنه خطفك مني.. وهو بريء من تاريخ الإثم سوى كونه صودف وقوعه بين يدي في زمن وداعك..!

كأن هذا الإسقاط الفارغ عن الحق الذي نثقل به كاهل الآخرين يعيد ما نفقده أو فقدناه..!

هو شعور طفولي نزق نلوم الحجر الذي تعثرنا به لا انتباهنا الغافل.. رغم أنه فعل يريحنا كثيراً بل يسكت ضجة نحيبنا ويخفف أنين ألمنا المفرط... كم أخشى على تلك «الطفلة» في قاعي أن تكبر يوماً وأنت وحدك كنت ترعى شجرة وجودها كنت ترعى أحلامها، مخاوفها، شقاوتها، وأسراراً أخرى لا يسبر غورها سوى رجل واحد فقط مغادرته تترك فراغاً مهولاً ويظل فارغاً باستثناء فطري..!

«.........»..

في يوم فتحت صندوق بريدي وكما في كل مرة رسائل مكدسة.. أعرفها وتعرفني.. وأخرى تعرفني ولا أعرفها.. من ذاك الحشد الالكتروني المتراكم عملت «ديليت» سوى لرسائل الأصدقاء ورسائل مهمة وأخرى نقية ومحبة ولرسالة واحدة كانت مرفقة بملف نجح عنوانها في أن يحرك رتابة فضولي وقتئذ.. رسالة من كائن لا أعرفه كما غاب عن

معرفتي جنسه أذكراً كان أم أنثى..؟! كل ما أذكره هو أنني حمّلت الرسالة ومن ثم نسيتها على سطح مكتب حاسوبي.

وفي ليلة ثقيلة طفت تلك الرسالة إلى مزاجي الغائم. فتحتها.. التهمتها كما لو أنها مخطوطة مقدسة وأنفاسي متلاحقة ومن ثم أعدت قراءتها بتمعن شديد.. كتبها «ماركيز» هكذا قالت الرسالة.. «ماركيز في رسالته الأخيرة»..!

هذه الرسالة نفخت ضوءاً في نفقي المظلم حتى أنني أعدت قراءتها بأرواح وأمزجة عديدة ونشرتها في مدونتي «أتنفّس بهدوء»..

«ماركيز» الذي كان يحلم في أن يكون عازف بيانو في حانة للعشاق ليتقارب المحبون على عزف أنامله..

قيل بعد - رصّها في كل حيّز - أن كاتبها ليس «ماركيز» بل هي لكاتب مغمور..!

كل هذا لم يضعضع تأثري ..لأنها وشمت في أعماقي تأثيرها؛ وحدها الكتابة التي تفلح في مداعبة تأثرنا أو جسّ نبض في شريان حواسنا جديرة باحتوائها واحترام سطورها..!

إنه «الألم» هو الذي يوّحد بين كاتب أو أي بشري في هذا العالم.. كواعظ.. كجابي قمامة.. كمخبول وحده «الألم»..! الألم هو وحده يوّحد بين جميع الخلائق.. لكن طريقة نسيان أو

إسقاط أو تصدّي هذا الألم هو ما يميزنا حقاً..!

نقلت تلك الرسالة المنكّهة برائحة «ماركيز» واحتويت عباراتها من أوسع أبواب روحي.. كنت أقتطع منها عبارات وأدوّنها في نوتاتي الملونات على هيئة تفاحات صغيرات وأعلقها على شجرة تفاحتي كما أسميتها.. تلكم القصاصات التي ترعرعت إلى شجرة تفاح كبيرة واستحالت عالمي الصغير التي بحجم غرفة «فان جوخ» كما - أمازح صديقاتي - إلى تفاحة خضراء عملاقة.. لون يمددني بطاقات هائلة ..

وغدت قاعدتي في الحياة:

«قل دائماً ما تشعر به وافعل ما تفكّر فيه. . .»

ونصيحة أضعها في كل مكان:

«لأن الغد ليس مضموناً لا للشاب ولا للمسن. . ربما تكون في هذا اليوم المرة الأخيرة التي ترى فيها أولئك الذين تحبهم. . فلا تنتظر أكثر، تصرف اليوم لأن الغد قد لا يأتي ولا بد أن تندم على اليوم الذي لم تجد فيه الوقت من أجل ابتسامة، أو عناق، أو قبلة، أو أنك كنت مشغولاً. . كي ترسل لهم أمنية أخيرة. . .»

وكلما استعدت ذكرى رحيلك.. استعدت هذه العبارة:

«لو كنت أعرف أنها المرة الأخيرة التي أراك فيها لكنت ضممتك بشدة بين ذراعيّ ولتضرعت إلى الله أن يجعلني حارساً لروحك. . .».

وأنا حارسة روحك...... **يا «أبي». . !**

ابنتك التي انتقيت اسمها بحبّ: ليلى. .

من ذاكرة "ليلى" الصغيرة..

1

سألتك مرة وأنا صغيرة : لماذا أسميتني «ليلى» . . ؟

أجبتني بابتسامة شاسعة بحجم الكون : أنت ليلى . .
ليلة القدر . .

2

سألتك مرة وأنا طفلة : لماذا عيناك صفرتا . . ؟

احتويتني بدفء ابتسامتك النقية وأنت تشير بيدك نحو عينيّ وأعين إخوتي الذين كانوا متلاهين مع شقاوتهم : لأني منحت كل روح منكم جزءاً منها .

وبعدها ضحكت من قلبك وأنا صدّقت أن الكبار يمنحون أجزاء من أجسادهم لصغارهم كلما أنجبوا . . !

كل ما اقترف أعلاه هو محض خيال وافتراض عدا «الرسالة الأخيرة».

«أبتاه، ارسم لي هذا العالم على جسدي»

.

.

غناء لسكان داكوتا الجنوبية الأصليين

ليلى البلوشي

افتراضات تطلّون منها على الغيمة . . .

/

/

مدونة أتنفّس بهدوء : www.lailal2222.blogspot.com

/

/

تويتر : lailal222@

.



رسائل حبّ مفترضة

بين هنري ميللر وأناييس نن

حب الأب هو الحب الوحيد الآمن ..!

فالأب يحب دون غاية .. حبه مطلق لا يبرره سبب سوى عاطفة أبوة شاسعة .. غريزة أبوية لا تنطفئ .. بينما الرجل، أي رجل في حياة أنثى .. فإن حبه لها يكاد لا يخلو من غايات متضافرة .. كيفما كانت نياتها : صالحة ، سافلة ، حقيرة، محبة ، دنيئة ... !

فحسبما احترام الرجل لنفسه تعجنه غاياته : يحبها؛ لأنه يخشى أن تخنقه عقارب الزمن وحيدا دونها .. يحبها ؛ لأن لها عينان جميلتان كأيقونتان تلهمانه .. يحبها؛ لأنها مادة إغراء ملفوفة كسيجارة يمجّها بلذة .. يحبها؛ كي تكون عكازته التي يتوكّأ عليها في دروب الأرض الشّاقة .. يحبها؛ كي يعتشي على جيبها كأي وضيع اعتاد التسول من جيوب النساء .. يحبها ؛ لأن لا فحولة دون أنثى .. أما الذي يحبها لأجل غاية الحب هذه الغاية وحدها ـ بشحمها أوعظمها ـ دون غيرها .. فما أندره ..!

لكن الأب وحده .. هو الرجل الوحيد في أعطاف هذا الكون يحب أنثاه بلا مقابل .. بلا غاية .. يحبها في مجموع انفعالاتها: طيبة ، شريرة، مجنونة ، حزينة، مرحة .. وفي جُلّ أوقاتها يحبها حاضرة، غائبة، حية، ميتة ... وهذا هو صمام الأمان الذي يطوقها إلى أبدية الموت ..


ISBN 978-614-404-554-1
9 786144 045541